
أمجد ناصر
هنا الوردة
رواية
دار الآداب



الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

هنا الوردة

أمجد ناصر

هنا الوردة

رواية

دار الآداب ـ بيروت

هنا الوردة

أمجد ناصر / كاتب أردني
الطبعة الأولى عام 2017
ISBN 978-9953-89-527-7

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com




/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

تنويه

عندما يقول المؤلِّفون إنَّ التشابه بين أشخاص كتبهم وأمكنتها وبين الواقع مجرَّد مصادفة لا يصدِّقهم أحد، بل يصبح هذا القول دليلاً على العكس. ومع ذلك، لا أجد أمامي سوى هذه الصيغة المستهلكة للقول إنّ هذه الرواية، مكانًا وشخوصًا ووقائع، عمل تخييليّ، وكلُّ محاولة لمطابقتها بواقعٍ ما مضيعة للجهد والوقت.

ا. ن

لا يعرف يونس الخطّاط أنّه سيموت بعد أيّام، أو يتجمّد في الهيئة التي هو عليها الآن. في العمر نفسه، والجسد ذاته، والعينين اللتين تتطلّع واحدة منهما إلى جهة، والثانية إلى جهة أخرى. يموت، يتجمّد، يتلاشى، أوصاف لا فرق بينها في حالته. رغم أنّ كلمة موت قويّة جدًّا، ولا تشبه التجمُّد، أو حتى التلاشي، لكنّها عنده، في سنّه تلك، لا تختلف. فتلك هي السنُّ التي يقطع فيها اللسان وعودًا أثقل من الجبال، ويدقُّ فيها القلب بعنفٍ لطلّة المحبوب، أو من يظنُّه محبوبًا، إذ إنّ القلب يمكن خداعه مثل العين، مثل العقل. ولن يعرف يونس، وهذا تقريبًا أسوأ ممّا سبق، أنّه لن يستطيع فعل الشيء الوحيد الذي يرغب فيه، ذلك الشيء البسيط الذي كان يفعله، من دون جهد أو تفكير، كلّ يوم، وكان يظنّ أن لا شيء بوسعه الحيلولة دون ذلك.

هو لا يعلم هذا الآن.

أعني في خضمّ التيّار الذي يجرفه، فيما يظنّ أنّه هو الذي يسبح.

سيعلم لاحقًا؟

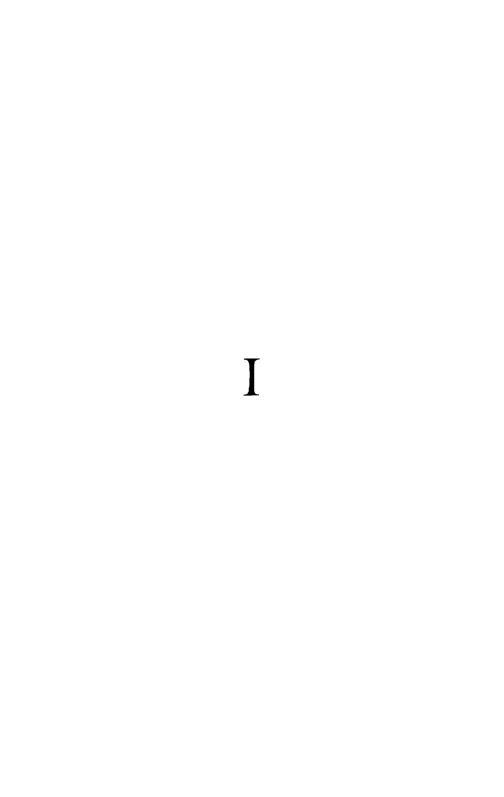
أكيد!

الأيّام تأتي، دائمًا، وتخبرنا، إن كنّا لا نزال على قيد الحياة، بما لم نعلم به، أو نخطّط له، ومثلما تفعل مع غيره، سوف تفعل مع يونس الخطّاط. هذه قاعدة ثابتة. وهذا لا يني يحدث من دون تفرقة بين شخص وآخر. إنّها عدالة الزمن الصمّاء، العدالة الوحيدة التامّة، المفروضة على الناس فرضًا.

إذن، كيف جرت الأمور في الأيّام التي «بقيت» له على هذه الأرض؟

هذا ما سنعرفه، لاحقًا، بعدما «أفسدتُ»، أنا الراوي/الروائي (كما تعرفون، بالتأكيد) واحدة من ذرى حبكتي السرديّة وأسرارها التي يجب الاحتفاظ بها جيّدًا لمزيد من التشويق الذي لا يُسْتخفُّ به في أيّ عمل روائيّ. قد يقول قائل إنّي فعلت العكس بـ «تفجيري» هذه المفاجأة في مستهلّ السرد. لست متأكّدًا، بصراحة. وبما أنّكم تقرأون هذه الكلمات الآن، فهذا يعني أنّ الوقت تأخّر على تدارك هذه «المجازفة». سأرجع خطوة، أو أكثر، إلى الوراء، وأترك للسرد أن يتوجّه إلى مجهول بدل خطابي هذا الذي يتوجّه إلى معلوم هو أنتِ أيّتها القارئة / أيُّها القارئ. ولكنّي لا أضمن أن لا أطلّ عليكم، كلّما وجدتُ أنّ السرد يحتاج تدخُّلي هنا أو هناك.

ومن دون إطالة قد تجعلكم تنصرفون عن متابعة الرواية، دعونا نترك السرد يأخذ مجراه.



I

بعدما وضع يونس الخطّاط حقيبته في غرفته بالفندق، نزل إلى الشارع واتّصل من هاتف عموميّ بالرقم الذي يحفظه. أبلغَ الذي ردَّ بأنَّ الضيف قد وصل. ذلك هو الكود المتّفق عليه. سأله الصوت، على الطرف الآخر من الهاتف، عن اسم الفندق الذي ينزل فيه ورقم الغرفة، وطلب منه انتظار شخص يُدعى مروان. مكث يونس ثلاثة أيّام في فندقه بانتظار مروان. أطول ثلاثة أيّام في عمره. هو، الذي ولِدَ يمشي ويتحرّك ويتكلّم ويحلم ولا يستقرّ في بقعة بعينها، حُكِمَ عليه بالبقاء ثلاثة أيّام بلياليها حبيس غرفة فندقٍ في مدينةٍ لا يعرف فيها أحدًا. لم يكن لديه ما يفعله سوى الانتظار. على الجدار المقابل لسريره ساعة حائط ذات ماركة معروفة تذكّره بالوقت البطيء، الذي يتمطّى أمامه كقطٍّ هرمٍ وضَجِرٍ من هرمه؛ وفوق رأسه مروحة سقفٍ، خاملة، ذات أنينٍ مسموع. كانت شمس الخارج تتسلّل إلى غرفته رغم الستائر الثقيلة التي يسدلها نهارًا ويفتحها عند الغروب. شمس تستعرض عضلاتها. تقول من كان منكم ابن أمّه فلينزل إلى

الشارع، أو فليطلّ بوجهه من نافذة! كان لا بدّ من أن يفكّر في الانعطافة الحادّة التي طرأت على مسار حياته وأوصلته إلى مدينة السندباد حاملاً رسالة سرّيّة لا يعرف مضمونها، في مهمّة لا يعرف هدفها. استرجع بصوت عالٍ، ولأكثر من مرّة، قصائد لشاعره المفضَّل الذي يُقيم في هذه المدينة، وشاعره المفضَّل قبله، ابن هذه المدينة أيضًا، وبينهما شعراء ترنَّحوا، بأرخص أنواع الكحول، إلى جانب النهر الذي حمل جسد السندباد السحريّ إلى بحار العالم وجزره البعيدة. فهذه ليست مدينة السندباد فقط بل مدينة الشعراء. يُقال هنا إنَّك إن ألقيت حجرًا سيقع على رأس شاعر! تذكَّر يونس نقاشاتٍ في حلقة الأصدقاء، يبرز فيها صوت إبراهيم الحنّاوي، الذي عرَّفه بشاعره المفضّل الأخير، يقول إنَّه يمكن لمكانٍ ما أن يحوز عبقريَّةً لا تفسِّرها التحليلات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة. عبقريَّة خاصَّة به، وقال، متعجِّبًا، كيف نفسِّر أنَّ هذه مدينة للشعر وليست للرواية ولا حتى للنثر، ولا للفكر السياسي، الشعر فقط، وربَّما الرسم والعواطف التي لا توسّط فيها. كيف؟ وما الرابط؟

كان يحمل نسخة مختصرة من كتاب حكائيّ مترجم يرجع إلى القرن السادس عشر، ورغم اختصارها، فهي تقع في نحو ٤٠٠ صفحة. إنَّه يحبُّ هذا الكتاب الذي يسخر فيه كاتبه من قصص الفروسيَّة والفرسان الشائعة في زمانه من خلال رحلة مضحكة مبكية، فرحة وحزينة، لبطل كتابه، الفارس الذي لا يشبه الفرسان في شيء سوى برمحه الهزيل مثله، وبخادمه، الذي يبدو أكثر معرفة بأمور الحياة من سيِّدٍ يظنُّ طواحين الهواء جيشًا من المَرَدة. تغيَّرت قراءات يونس أكثر من مرَّة، بحسب انشغالاته. فيمكنها أن تكون فلسفيَّة ونقديَّة، سوسيولوجيَّة بل واقتصاديَّة، أدبيَّة وشعريَّة بالطبع، قراءات نطَّاطة، لكنَّ

كلّ ذلك لم يمنعه من مواصلة شغفه بقراءة قصص المغامرات ولو من وراء ظهر رفاقه المنكبّين على أدبيّات التثقيف الحزبيّ الجافّة. تلك الملخّصات الكلّيّة التي يُراد لها أن تشفي العالم من آلامه الأرضيّة ونواحه على كسرة خبز وشربة ماء.

إن كان ذلك تعبيرًا عن التناقض بين الفكرة والشغف، بين ما سمّاه كاتبٌ «قراءات النهار» و«قراءات الليل»، ففي عروق كلّ امرئ يسري، لا ريب، شيء من هذا الإكسير الانفصاميّ. يكون المرء حداثيًّا في الشعر ويحبُّ الروايات التقليديّة، أو تقدُّميًّا ويبقي كوّة صغيرة تطلُّ على العالم الرجعيّ الأليف، ملحدًا ويشهق يا الله عندما تصيبه مصيبة، فنّانًا تشكيليًّا تجريبيًّا ولا تطرب أذنه إلّا إلى مواويل فلكلوريّة.. وهكذا.

كان قد قرأ نصف الكتاب خلال الرحلة الطويلة، وقسّط النصف الثاني على يومين تاركًا أفكاره تسرح مع مغامرات الفارس الهزيل وخادمه الذي يسمّيه «الفارس حزين الطلعة»، ذلك أنّه لم يَرَ شخصًا مثله من قبل بين الناس، أو ربّما، لأنَّ القتال هدَّه وأضناه، أو لأنّه فقد أسنانه! يضحك يونس. يضحك أمام الساعة التي يزحف عقرباها ببطءٍ ولؤمٍ على سطح الميناء. وقد كظم العديد من ضحكاتٍ مماثلة وهو محشور في الزاوية اليمنى بالمقعد الخلفيّ في سيّارةٍ خاضت بركّابها أمواج سراب الصحراء، وقاومت عصفًا مفاجئًا للرمال، وظلّت تحت قرص الشمس الحمراء حتى وصلت إلى هذه المدينة، التي تتعالى من بين جنباتها أشجارُ نخيل رابضة في حرٍّ جهنميّ.

وكلّما فكّر يونس في حكاية فَقْدِ البطل أسنانه، التي تسبّبت في منظره الحزين، الوصف الذي أعجب البطل نفسه، ضحك من كلّ قلبه. وهذا ساعده على تمرير وقت لا يعرف ما ينتظره في غضونه،

ولا في نهايته ولا ما يترتَّب عليه. فكلّ ما قيل له أن ينزل في فندق متواضع، قريب من الأسواق التجاريَّة، وأن يتَّصل من هاتف عمومي بالرقم الذي يحفظه غيبًا، ويبلغ من يردّ عليه بوصول «الضيف». التعليمات التي تلي ذلك، سيتلقَّاها من هناك.

*

لم يظهر يونس كثيرًا في ردهة الفندق ولا في مطعمه، ولا في ممرَّاته الغريبة، شبه المظلمة، بسبب إسدال ستائر ثقيلة طيلة النهار لردع ضوء الشمس المقتحم. كان طعام الفندق سيِّئًا بل غريبًا. بيد أن، الطعام لا يهمّه كثيرًا، ما دامت فناجين القهوة موجودة والسجائر متوافرة، وهذا يفسِّر نحوله الذي يحول دون قُبْحِه بنيتُه المتينة، وجسده المتناسق. اكتفى بطلب ما يعرف، وحتى هذا كانت له تسمية أخرى هنا. الشيء الوحيد الذي طلبه إلى غرفته، بانتظام، كؤوس الشاي وأباريق الماء المثلّجة، فقد كانت القهوة التي تذوَّقها، في أوَّل إفطار له في الفندق، من النوع سريع التحضير، وهذه قهوة لا يستسيغها. لا بدَّ أنَّ موظَّفي الفندق لاحظوا، بفضول أو استغراب، اعتصامه في غرفته. فهو لم يغادر الفندق الصغير الذي يطلُّ على شارع ينتصب فيه تمثال برونزيّ لرجلٍ لا يعرف هويَّته يرتدي قبَّعة مستطيلة تردُّه، بثيابه وهيئته العامَّة، إلى عشرينيَّات القرن أو ثلاثينيَّاته. سأله موظَّف الاستقبال ذو الشاربين الكثَّين المنسَّقين، عصر يومه الثاني في الفندق،

عمّا إذا كان يحتاج خدمة. ثلجًا؟ عصيرًا؟ بيرة؟ تبديل عملة؟ فردَّ عليه بالنفي. غير أنّ موظّف الاستقبال واصل تودُّده إليه *أحسَّ يونس أنّه فعلاً، كذلك، وليس تطفُّلاً او استدراجًا، ولكن من يدري؟* فذكَّره أنّه لم يغادر الفندق مذ وصل، فقال له يونس باقتضابٍ، ودودٍ أيضًا، إنّه ينتظر قدوم أحد أقاربه المقيمين هنا. خطرت له تلك الجملة على الفور ولم يُجهّزها كجواب مُسبق على سؤال موظّف الاستقبال في الفندق أو غيره. فهي ليست من الجمل التي تدرّب عليها في أحوال الاستجواب وما شابه ذلك. جملة من نوافل الحياة، أو من أكاذيبها الصغيرة، تُقال للتخلُّص من حرج أو إلحاح. إنّه لا يعرف ، في الواقع، أحدًا في هذه المدينة. سمع من جدّه ووالده بوجود أقارب لهم فيها، ولكنّه، شخصيًا، لا يعرفهم، فضلاً عن أنّه لا يعنيه، في هذه اللحظة الفائرة من حياته، وجود أقارب تربطه بهم صلة دم. القرابة بالنسبة إليه هي قرابة الاهتمامات المشتركة أو العيش المشترك. أمّا قرابة الدم والأنساب فتفرضها المصادفات البيولوجيَّة ولا يدَ للمرء فيها. *الاختيار هو فعل الإنسان الحرّ!* نوجد من دون اختيار. يكون هناك أب وأمّ. تلاقح. ولادة. يحدث هذا في الطبيعة، أيضًا، ولكنّ الإنسان يختلف عن الطبيعة في قدرته على الاختيار. في صنع ثقافة ومصير. الطبيعة لا تعي، على الأغلب، وجودها، على هذا النحو، ولا تقرِّر مصيرها بنفسها. الإنسان بوسعه ذلك. هذا دوره في الحياة: تحويل البيولوجيا إلى إرادة وفنون ومسؤوليَّة. هكذا يفكِّر يونس بشيء من اختلاطٍ ملتبسٍ، ومُتَبَادَل الأدوار، بين الشعريَّة والمادّيَّة، الجدل وبروق الأعماق الغامضة.

كان في ذروة انصهاره في الفكر الذي سيغيِّر العالم، الذي يتصادم، بلا هوادة، بلا رأفة، بكلِّ ما يؤمن به محيطه، تقريبًا. الأصول والأنساب والعادات والتراث المكتوب بماء الذهب. كلّ تلك الاعتبارات، في نظره، من صنع العالم القديم، وهذا عالم لا يرغب، بعدْ، في الانتماء إليه. يعرفُ أنَّ أصوله، من ناحية الأب، تتحدَّر من مدينة السندباد، لكنّ ذلك يرقى إلى زمن بعيد، ولم يغيِّر وصوله إلى بلاد أسلافه، في هذه الزيارة السرِّيَّة، شيئًا في شعوره أو تفكيره حيالها. فلم يكن جدّه ولا والده يعدَّان بلاد أسلافهما وطنًا لهما، فهما وُلدا في الحامية. صحيح أنَّهما لا ينكران تلك الأصول، وصحيح أنَّ جدَّه كان أكثر حديثًا من والده عن تلك الجذور، غير أنَّهما يعدَّان الحامية وطنهما وإليها ينتميان. أمَّا وطن والد جدّ يونس، الذي جاء مع الجنرال الأصهب، مؤسِّس الحامية، فقد انحسر ذكره بمرور الوقت وانقطاع الأواصر بين الفرع والأصل.

الفرع صار أصلاً،

وراح يترسَّخ ويتكاثر.

فقبل نحو قرن من الزمن، وصل والد جدِّه، نور الدين الخَطّاط، بمعيَّة الجنرال الأصهب، إلى الحامية التي لم تكن سوى جزء إداريّ وجغرافيّ مهمل في الأمبراطوريَّة الشاسعة. كان والد جدّه خطّاطًا في دائرة المساحة المركزيَّة في عاصمة الأمبراطوريَّة، وجدّ جدّه خطّاطًا في قسم الرسائل التابع لقلم الديوان في مدينة السندباد. هذا يعني أنَّ الخطَّ حرفة متوارثة في عائلة يونس وصولاً إلى جدّ جدِّه، وقبل ذلك، يصعب التعقّب، وربَّما لا يهمّ.

في هذا الجزء المهمل من أملاك الأمبراطوريَّة الشاسعة، قام الكيان الجديد الذي أصبح وطنًا لنور الدين الخطَّاط. فيه تزوَّج ابنة أحد الأعيان المحلِّيِّين الصغار وأنجب أبناءه الذي مشى معظمهم على طريقه، ومن بينهم انتقلت رعشة الخطّ، هزَّته الجماليَّة والروحيَّة، إلى أوَّل أبنائه، أحمد الكامل، الذي سمَّاه على اسم معلِّمه، ومن صُلب أحمد الكامل سيولد عدنان، كبير خطَّاطي الحامية، الذي سيحمل ابنه الثاني هذا الاسم الطويل في شهادة ميلاده: يونس عدنان أحمد الكامل نور الدين الخطَّاط، لكنَّه سيُعرف بين أقرانه باسم يونس الخطَّاط. هزّة الخطّ الجماليَّة التي أصابت الجدّ الأكبر وسرت، إلى هذا الحدّ أو ذاك، في سلالته لم تنتقل إلى الحفيد البعيد. فستكون هناك هزَّة أخرى تستولي على روحه، ليس بينها تلك الذخيرة الذهبيَّة من صنيع الأسلاف.

دار شريط متقطّع، مشوَّش، ذو وميض وخرخشة، في رأس يونس وهو يحاول أن يحدِّد صلة عائلته بهذه المدينة، التي يأتيها في زيارة سرِّيَّة وينتظر، تحت مروحة تخضُّ هواءً فاترًا فوق رأسه، شخصًا سيأتي، اسمه مروان:

كان نور الدين خطّاطًا شابًا يشقّ طريقه إلى الشهرة، في عاصمة الأمبراطوريّة وأضوائها المتلألئة، عندما تعرّف إلى الجنرال الأصهب في مناسبة اجتماعيّة جمعت أبناء المنطقة، الذين يعملون في دواوين الأمبراطوريّة ومرافقها. كان هناك شعور عامّ بين أبناء المنطقة بضرورة عمل شيء ما بعد تصاعد إجراءات التمييز ضدّ عرقهم لغةً وتاريخًا وحياةً يوميّة. صار تعصُّب المركز، واحتقاره للأعراق الأخرى، واضِحَيْن، بحيث لم تعد الغلالة الدينيّة التي تنشرها الأمبراطوريّة على أطرافها المترامية، قادرة على إخفائهما، ولا على إخفاء تحكُّم العرق المسيطر بدواليب الأمبراطوريّة الصدئة من عاصمتها المتثائبة.

وُلدت الحركة القوميّة في لقاءات كهذه. كانت متواضعة العدد والحضور، نواتها الأولى خليط من أبناء الوجهاء ورجال الدين الإصلاحيِّين والأدباء الشبّان والعسكريِّين الممتعضين، وبين هؤلاء برز الجنرال الأصهب، العسكريّ اللامع في الجيش الأمبراطوريّ كمحور لتلك الأنشطة السرّيّة. بسرعة راحت الحركة تتّسع بانضمام شبّان متعلِّمين من أبناء المنطقة إليها. شعراء وخطباء راحوا يجرِّبون استخدام لسان صامت في فم يأكل ويشرب فقط. هناك من يقول إنّ تمرّد الجنرال الأصهب كان ردًا على تحجيمه من قِبَل قادة الأمبراطوريّة العسكريِّين بعد تصاعد شعبيَّته بين بني قومه، وهناك من يرى أنّه كان على اتّصال بقوى أجنبيّة كبرى تُعدُّ العدّة للانقضاض على الأمبراطوريّة التي شاخت وضعفت سيطرتها على أملاكها، غير أنّ الرأي السائد يميل إلى اعتبار النزعة القوميّة، التي سيطرت على المركز وجعلته يبدو في نظر أبناء الأقاليم والأمصار يشبه الاحتلال، هي التي عجّلت ببروز الحركة القوميّة المضادّة التي لا بدّ من أن تخلق قادتها أيًا كانت أسماؤهم. هذا ما تعكسه، أيضًا، أدبيّات الحركة التي شدّدت على

إنّها تُعيد الأمور إلى نصابها. . تستعيد البضاعة المسروقة! فلم يكن للأمبراطوريّة أن تقوم وتمتدّ من دون دعوتها الدينيّة الأولى، التي اشهرت باسمها السيف وفتحت بلداناً لم تسمع بها من قبل. وبما أنّ الدين، الشرعة المعلنة التي قامت عليها الأمبراطوريّة، من عندنا، كلماته من لغتنا، فليعد، إذن، كلُّ شيء إلى أصله! ذلك ما تردَّد صداه في أدبيّات الحركة الأولى، ثم راحت تلك الأدبيّات تتّخذ طابعًا سياسيًا اكثر وضوحًا وأقلّ بلاغة وترسم برنامج عمل، بعدما كانت تعتمد على البلاغة اللغويّة والحميّة القوميّة.

شارك نور الدين الخطّاط في النشاطات الإصلاحيّة لأبناء المنطقة بهمّة ستميّز ابن حفيده يونس. عاطفة جيّاشة وإحساس عميق بالعدل وإيمان غامض بدور رساليّ. وبما أنّه خطّاط وله علاقة بالطباعة، فقد أشرف على المجلّة السرّيّة التي كان يحرّرها أفراد الحركة الإصلاحيّة. فجأة أصبح للخطّ دور آخر. دور غير تزيينيّ وزخرفيّ كما اعتاد أن يفعل حتى تلك اللحظة. إنّه انبعاث لتاريخ، لعراقة جارت عليها الأيّام، لأدب وفنون. باختصار، انبعاث لأمّة تمَّ تذويبها في إطار فضفاض بعد الاستيلاء على حروفها وأرضها وفنونها ومطبخها وأزيائها. حدث هذا في الوقت الذي بدأت تتّجه النزعة القوميّة المسيطرة على عاصمة الأمبراطوريّة لكتابة لغة عِرْقِها بحروف أجنبيّة كانت تعتبرها حروفًا عدوّة، أو حروف العدوّ، أمّا الحجّة وراء الدعوة لتغيير حرف الكتابة الذي تقرأ به القرآن والأحاديث والشعر وما إلى غير ذلك، فهي التحليث والانخراط في معمعة العصر الذي تدوّي فيه المدافع وتتدفّق في جنباته السلع والأفكار. عملت الحركة الإصلاحيّة على إعطاء حروف لغتها (حروف الأمبراطوريّة حتى تلك اللحظة) بُعداً قوميًا ودينيًا. إنّها الحروف التي نزلت بها آيات الكتاب، وكُتبت بها

قصائد الغزل والفخر والمديح والهجاء، ودوِّنت بها أسفار الفلسفة وعلم الكلام والمقامات وسير الشطّار والعيّارين وكتب الباه، وترنَّم بها المغنُّون والمغنِّيات، ورفعها الخطّاطون إلى مصاف الفرادة الفنيّة.

هكذا راح نور الدين الخطّاط يتألّق في خطّه مطبوعات الحركة الإصلاحيّة مستنبطًا تفريعات جديدة من الخطوط الشائعة في ذلك الوقت. كان يخطّ كتابات الإصلاح، التي أخذت تنحو شيئًا فشيئًا صوب الاستقلال وانبعاث أمّةٍ من رقادها، كأنّه يصنع تاريخًا. حروف مشحونة بخطّ يدٍ تقاتل، يعينها على ذلك القصائد الملتهبة، التي كان يكتبها الإصلاحيُّون في غير بلد وتنتقل بسرعة في أوساط الشريحة الضئيلة التي تعرف القراءة والكتابة. وعندما فرطت الأمبراطوريّة، بعد حرب كونيّة طاحنة، وانفتح أفق الاستقلال المداجي أمام المنطقة، التقى نور الدين الخطّاط، لآخر مرّة، معلّمه كبير خطّاطي الديوان الأمبراطوري في زيارة وداعيّة حزينة. أوصاه كبير الخطّاطين، صاحب الطغراءات، التي تتّخذ شكل إبريق ماء مرّةً، وطائرٍ لم يره أحد مرّةً أخرى، بأن يحافظوا هناك (في مهد تلك الحروف السماويّة، كما قال) على الخطوط التي كُتب بها كلام الله. على الحروف التي لم تكلّ عن نقل المعاني الشريفة. قال له إنَّ هذه الحروف التي تبارى سادة الأمبراطوريّة في تجويدها، بمن فيهم الأباطرة السابقون، وتفنَّنوا في استحداث أشكال جديدة لها، لن تُكتب هنا مرّة ثانية، ستذهب إلى المتحف وتنزوي، كاليتامى وأبناء السبيل، في أركان الجوامع والتكيّات والكتاتيب، بلا أب أو عائلة أو نصير، فاعملوا على أن تعطوها حياة جديدة هناك، ولا تصرفكم البلاغة القوميّة التي تكاد تعمي قلوبكم الآن، عن الرحابة الرحمانيّة التي سبغت نعمتها عليها من بين سائر ما خطّ أبناء آدم.

رغم فرحه بانفراط عقد الأمبراطوريّة، وانفتاح آفاق جديدة لبني قومه، إلّا أنّ نور الدين شعر بالحزن وهو يودّع آخر خطّاطي الديوان الأمبراطوريّ، الذي علّمه أصول الثلث والديواني الجلي والإجازة والطغراء التي برع بها بين سائر خطّاطي زمنه، فقد عرف أنّ أرض تلك الخطوط ستتقلّص، ويتقلّص معها امتداد الحروف التي نقّطها قومه ذات يوم بعيد، وأشرقت على دنيا واسعة بحجم الشمس، ستنفرط الأمبراطوريّة التي لم تعرف كيف تتوازن مع هبوب العصر، وربّما نال قومه الاستقلال، غير أنّ حروفهم ستتراجع، ستعود إليهم، ولكن ناقصة، ضيّقة، وتلك هي المفارقة. سيظلّ نور الدين يذكر، إلى آخر يوم في حياته، ما دار بينه وكبير الخطّاطين ويردّده لتلاميذه، برجفة داخليّة لم يكن يستطيع السيطرة عليها.

*

بقي يونس حبيس غرفته باستثناء مروره السريع، بين حين وآخر، في بهو الفندق ومطعمه، حيث رأى، مرَّةً، في البهو الذي تتدلَّى من سقفه مروحة كبيرة، خليطًا متنافرًا من النزلاء، ريفيِّين في عباءات وأغطية رأس وعُقل غليظة، موظَّفين حكوميين، أو تجّارًا في حِلل كاملة وربطات عنق يتصبّبون عرقًا، بضعة أجانب يرتدون بنطلونات جينز وقمصانًا نصف كمّ، بعضهم يعتمر قبّعات عريضة يجفِّفون عرقهم بمناديل جيب. بين الأخيرين، لاحظ وجود امرأة شقراء ترتدي بنطلون جينز وقميصًا كتّانيًا مجعّدًا وتنتعل صندلاً جلديًّا. كانت أعين الرجال الريفيِّين، ومن يبدون موظَّفين حكوميِّين أو تجّارًا، مسلَّطة عليها كرادارٍ نَشِط. كانوا يعانون من الحرارة، أو ربَّما من منظر المرأة الشقراء، التي تتحرَّك في كرسيّها بحرِّيَّة وتضع ساقًا على ساقٍ ما يجعل قدمها البيضاء في الصندل الجلديّ، عرضة لمزيد من النظرات. مغناطيس نظرات. بدا وجود الأجنبيَّة الشقراء نافرًا، بل فريدًا، كأنَّها المرأة الوحيدة على الأرض، حتى إنَّ يونس، العاشق الولهان، لم يستطع منع

نفسه من النظر إلى خصل شعرها الأشقر المتهدّلة على وجهها رغم أنّها تكبره، كما تبدو ملامحها، بعشر سنين على الأقلّ. فكّر كيف يبدو العاديُّ، خارج نسيجه واعتباراته، غير عاديٍّ بالمرّة، كيف يكتسب حضورًا وثقلاً قد لا يتوافر عليهما في سياقه الطبيعيّ فيبدو كأنّه طفرة، وكيف يشفُّ عن جوهرٍ ليس من لدنه، أو كأنَّ هذا الجوهر النفيس كان جوهره طوال الوقت، ولكنّنا لم ننتبه إليه من قبل إلّا عندما وُضِعَ في حالة نُدرة.

أذهله أنّه نسي، للحظة، حبيبة قلبه رلى، وراح يُحدِّق في خصل شعر المرأة، بل أمكنه، وهو يعبر البهو سريعًا، أن يرى طرفًا من سروالها الداخليّ. كان أبيضَ، مُخَرَّمًا. أزعجه الأمر. أزعجه أكثر أنَّ طرف سروالها الداخليّ الذي لمحه عندما كانت تميل بجذعها إلى الطاولة، تراءى له، غير مرّةٍ، وهو مستلقٍ على سريره تحت المروحة الخاملة، وأثاره؛ فحاول طردَه باستدعاء تعويذة مضادَّة: صور مختلفة لرلى. صورتها تضحك، فتتحرَّك غمّازتاها كبؤرتي عاصفةٍ مُهدِّدَة، صورتها تطوّقه أو تمسّد جبينه كأمٍّ صغيرة، صورتها ***وهذه ركّز عليها*** تشلح سروالها بإبهامين متوتّرين وخَفَرٍ قاتلٍ، صورتها ***هذه أضحكته من أعماقه*** تقطف وردًا جوريًّا من حديقة ذويها على صوت مغنّيتهما المفضَّلة، يلومُ الوردَ الذي جرح أياديَ كثيرة بما فيها أيادي الجنائنيَّة. تطبيق ساذج لأغنية حبٍّ تدشينيَّة في علاقتهما المشبوبة!

نبَّهه وجود المرأة الأجنبيَّة إلى أنَّه لم يشاهد امرأة أخرى في بهو الفندق، أو في مطعمه، بل لم يَرَ امرأة، حتى تلك اللحظة، بين موظَّفي الفندق. بدا له الأمر غريبًا. حتى في الشوارع التي دخلتها سيَّارة الأجرة، وصولاً إلى محطَّة الحافلات القادمة من الخارج، لا يتذكَّر أنَّه رأى امرأة وجهًا لوجه أو في مرمى البصر، سوى بعض

العباءات السود التي كانت تتراقص في بعض الشوارع الفرعيّة، التي لم يجرؤ على التوغُّل فيها خوفًا من طلب عونٍ غير مطلوب في حالته.
فأين نساء هذا البلد؟

عندما سمع كلام المجموعة الأجنبيَّة التي كان أفرادها يرتشفون شايهم من كؤوس شفّافة منمنمة، عرف لغتهم التي تعلَّمها في المدرسة، ففَهم أنَّهم يتعقَّبون، على الخارطة، خطّ رحلات المراكب التي تعبر أطلال الممالك البائدة في هذه البلاد.

*

كانت لغرفته نافذة تطلُّ على الشارع الذي يقع فيه الفندق، وبدا له شارعًا رئيسيًا بسبب المحالّ التجاريَّة وحركة السيَّارات والسابلة التي تنقطع، تدريجيًا، مع منتصف الليل ليحلّ محلّها صمت ثقيل، مريب. كان بمقدوره أن يرى من نافذة غرفته جانبًا من ذلك الشارع الطويل. عيادات أطبَّاء، محال ثياب، مطاعم، مكتبات. عراقة مُغبرَّة، عِزٌّ تُبديه تفاصيل صغيرة متلكِّئة في بعض المباني الذي يمزج بين الطرز المحليَّة القديمة والمؤثِّرات الخارجيَّة، تفاصيل أزمنة ولَّت تكافح من أجل بقاء غير مضمون: تشبيكات خشبيَّة، توريق جصِّيٌّ لنباتات وزهور وأشكال هندسيَّة متداخلة، بلكونات عائليَّة مهجورة للضجيج والغبار القادمين من الشارع التجاري. لفتت نظره دقَّة الخطوط التي كُتبت بها لافتات المحال. فهي تتراوح بين الثلث والتعليق والرقعة والديواني الغنوج، منفَّذة بمزاجٍ فنِّيٍّ رائق وحِرَفيَة عالية وتنافسٍ خفيٍّ لأيدٍ تحوَّل بعضها، على الأغلب، إلى تراب. كان معظم اللافتات مكتوبًا بهذه الخطوط الأليفة إليه. يستطيع تمييز الفروق الدقيقة، أحيانًا، بين خطٍّ وآخر من

العائلة نفسها. لو سُئل يونس عن سرِّ معرفته بهذا الفنّ المخصوص، دقيق القواعد والأحكام، لقال بنفاد صبرٍ مصطنعٍ بعض الشيء: إنَّه التعوُّد ليس إلَّا. فهذه الخطوط هي، بعد كلّ شيء، مهنة عائلتي!

كان يسمع، قرابة منتصف الليل، أصواتًا كالنشيج تعبر الشارع بتقطّع، كأنَّها طعنات حادَّة في جسد الليل. لم يرَ أصحابها، لكنَّه قدَّر أنَّهم سكارى. قدَّر، أيضًا، أنَّ ذلك النشيج الموحش غناءٌ طالعٌ من حزن دفين يُسْفِرُ عن وجهه العاري، على ما يبدو، تحت وطأة السُكر الشديد. نشيج. أصوات حلقيَّة ناهرة. هرولة. ثم صمت يعمُّ الشارع. تكرَّر سيناريو النشيج والأصوات الحلقيَّة الناهرة والطراد والصمت كلّ ليلة، وفي التوقيت نفسه تقريبًا.

*

خطر ليونس أنَّ تأخُّرَ رسولِ «التنظيم» مقصود. قد يكون لامتحان صبره، أو ربَّما للتأكُّد من أنَّه غير مراقب، أو لحكِّ معدنه ومعرفة قدرته على التصرُّف في مواقف مبهمة. مواقف ليست لها تعليمات في كتاب التلقينات. فكَّر في امتحان الصبر ووجد فيه ظلًّا ميتافيزيقيًّا غير مبرَّر، أو نوعًا من لعبة أعصاب صبيانيّة. نفد صبره بعد ثلاثة أيّام من الانتظار في غرفته. أنهى الكتاب الذي يحمله وأعاد قراءة بعض حكاياته مرَّة أخرى. وضحك أيضًا مع رحلة فارسه المتعثِّرة عندما اقتنع بأنَّه لكي يكون فارسًا، ويستحقّ هذا الوصف، ينبغي أن يتوافر على نقود وحامل سلاح، فعاد أدارجه، بعد أوَّل خروج فروسيّ له، إلى إقطاعيَّته الصغيرة، وراح يجهِّز نفسه لإعادة مكارم الأخلاق إلى عالمٍ مختلّ القيم.

دخَّن بضع علب من سجائر «اسكندر» الوطنيّة، التي جلبها معه. شرب أباريق من الشاي. الشاي اللذيذ، الصافي كعين ديك بلديّ، المصنوع بطريقة مختلفة، تمامًا، عن شاي بلاده. خربش العديد من

محاولات القصائد. كانت بطلة تلك المحاولات رلى. غير أنّه كان يمزّقها لاقتناعه بأنَّها قسريّة ولا قيمة لها. ادّعاء قصائد. اصطناع قصائد أكثر ممَّا هي قصائد طالعة من توافق مزاجيّ وذهنيّ. القصيدة لا تُكتب هكذا. هو يعرف ذلك. إنّها تطرح نفسها بحيث لا يمكن تفاديها. وهذا لم يكن يحتاج جهدًا بالنسبة له. وعمومًا، فإنّ شأن الشباب مع الشعر مثل شأنهم مع الجنس. سرعة في التهيُّج والقذف. تشبيه سيِّئ، ربَّما، ولكنَّه يشبه قريحة يونس التي سرعان ما كانت تتهيّج ثم تفيض.

في اليوم الثالث لانتظاره مروان الذي لم يأتِ، قرّر أن يخرق التعليمات ويتمشّى في المنطقة المحيطة بالفندق.

كانت ظهيرة حارقة تكاد أن تسيح الإسفلت. درجة الحرارة لا بدّ أنَّها في حدود الخمسين مئويَّة. نَدم على قراره بالخروج. فقد كاد أن يدفعه الوهج والحرارة، على شكل لكمةٍ في الوجه، إلى الوراء. ولمّا كان غير وارد أن يعود أدراجه أمام عين موظَّف الاستقبال، ذي الشاربين الكثّين، الذي تساءل عن بقائه طول الوقت في غرفته، مشى بمحاذاة المحال التجاريّة التي تحمي مداخلها بمظلّات كتَّانيَّة. رأى مكتبة في نهاية الشارع الرئيسي فدخلها مسرعًا. يريد أيّ سقف يقيه الصهد. تحدَّث إلى بائع، بدا له أنّه صاحب المكتبة، يلازم مروحةً فوق رأسه تصبُّ عليه هواءً لم يفلح في تقليل العرق الذي يتصبَّبُ من جبينه. كان البائع سمينًا بعض الشيء، لطيفًا. سأله يونس عن شاعره المفضَّل، فقال إنَّه يُقيم في هذه المدينة. أخبره، كمن يتواطأ معه على سرّ، بأنَّه أصدر ديوانًا شعريًّا جديدًا. قام، بصعوبة، من وراء الطاولة المحاطة بالكتب من كلِّ جانب، دخل في عمق المكتبة المعتم، ثم رجع يحمل كتابًا ذا غلاف أسود مكتوبًا عليه بخطّ نسخ صحافي «نجمة لمساء آخر».

فكّر أنّه سيطّلع على آخر نتاجات شاعرهما المفضّل قبل صديقه الحنّاوي الذي عرّفه بأعماله، وسيشهر الكتاب في وجهه، كما فعل هو عندما قدّم له كتابه السابق، وبالتأكيد سيحفظ، خلال هذه الفترة، قصائد منه عن ظهر قلب ويُسمعها له ولشلّة مقهى الزنبقة السوداء.

قال البائع، الذي ظلّ يمسح جبينه بمنديل أبيض يحمله في يده، وأحيانًا يهوّي به وجهه، يائسًا على ما يبدو، من هواء المروحة، إنّ الشاعر يكتب في صحيفة محلّيّة، سمّاها، كانت موجودة على حامل الصحف في مدخل المكتبة. قرّب البائع وجهه من يونس، وقال إنّ الشاعر عوقب لسببٍ مجهول، ربّما بسبب وشاية أو قصيدة أُلقيت في سهرة، وفُصل من عمله الحكوميّ. لكنّه يكتب باستمرار. قال إنّه لا يتوقّف عن الكتابة. الشعراء الآخرون يحسدونه على غزارته. ولكنّ هناك نقّادًا يأخذون عليه هذه الغزارة التي هي على حساب النوعيّة كما يقولون، ولكنّه لا يوافقهم الرأي، فهناك شعراء مثل السيل الجارف وهناك شعراء مثل الساقية. ثم قال: هذه طبائع شخصيّة. سأله يونس إن كان هو، أيضًا، يكتب الشعر، أو النقد. ضحك وقال لا هذا ولا ذاك. ولكنّي محبٌّ للشعر، القديم خصوصًا، وبعض الاستثناءات في الشعر الحديث، الذي أتاح، للأسف، وجودًا لكثير من المدّعين في الساحة الشعريّة. لم يجب يونس، لكنّه لاحظ أنّ دعاوى الاستسهال والخفّة والركاكة التي تلصق بالشعر الحديث، موجودة في مهد الشعر الحديث نفسه، مثلما هي موجودة في بلاده. وفكّر، بثقة، أنّ صراع القديم والجديد سيبقى أبد الدهر، وهو ضروريّ لتطوّر العالم ودفعه إلى الأمام. إنّه ديناميكيّة تقدُّميّة، هكذا قال في نفسه. لم يكن هناك زبون آخر في المكتبة. لا أحد يمشي في الشارع بسبب شدّة الحرّ. كان يونس بين نارين: حرارة الخارج والرغبة في العودة سريعًا لتلقّي

هِبَات ديوان شاعره المفضَّل. مال إلى الانتظار قليلاً ريثما تنكسر حرارة الخارج. كما أنَّه استطاب جلسة البائع الذي بيَّنَ الحديث معه معرفةً في الشعر والنقد تبزّ كثيرًا من المثقَّفين، الذين يصادفهم في مقاهي بلاده، وفهم منه، رغم حذره في الكلام كأنَّه يُفشي أسرارًا، بعض مشاغل الحركة الشعريَّة في هذه البلاد وأهمّ الأسماء الصاعدة ـ برأيه طبعًا. فكَّر يونس، وبائع المكتبة يتدفَّق في الحديث عن مركزيَّة الشعر في التراث الشرقيّ وصلته بالدين، بكلام والده عن ظواهر الأمور التي لا ينبغي أن تؤخذ على علَّاتها.

قال البائع، الذي تأكَّد يونس من أنَّه صاحب المكتبة: تشرب شايًا؟ خرج بكرشه المستدير، المكتنز، إلى الشارع وعاد مبلَّلاً بالعرق. بعد قليل، جاء صبيّ مقهى يرتدي مريولاً أبيض طويلاً، مبقَّعًا بدبغات شاي أبديَّة، يحمل صينيَّة صغيرة، فضِّيَّة اللون، عليها كاستا شاي رقيقتان مُعرَّقتان بنمنمة فارسيَّة، مكعَّبات سكَّر، وكاستا ماء. مدَّ يونس يده إلى علبة سجائره ماركة «اسكندر»، فلاحظ أنَّ صاحب المكتبة يتطلَّع إلى العلبة. وعلى شرف كاستيْ الشاي، طلب صاحب المكتبة أن يدخّنا سيجارتين من علبة يونس. أعجبه التعبير الذي استخدمه صاحب المكتبة. على شرف كاستيْ الشاي! يا له من شرف راشح بالعرق في درجة حرارة تقارب خمسين مئويَّة! فكَّر يونس.

لم يجد مقالة لشاعره المفضَّل في تلك الصحيفة، التي تحمل شعارًا يعرف هويّته الإيديولوجيَّة، هويَّة أقرب ما تكون إلى هويّته هو. أراد أن يأخذ الصحيفة، لكنَّ صاحب المكتبة نصحه، بما يشبه الهمس، أن لا يفعل. فثمَّة من يراقب الذين يبتاعونها. دهِشَ يونس من كلام صاحب المكتبة الذي يبيع الصحيفة علنًا، لكنَّه يحذِّر مَن يشتريها. ترك علبته لصاحب المكتبة، وغادر، بما يشبه الركض،

حاملاً معه ديوان شاعره المفضّل الجديد، ولمّا وصل إلى غرفته راح يقرأه، غير مبالٍ بالعرق الذي يرشح منه، ولا برسول «التنظيم» الذي لم يظهر حتى اللحظة من دون أن يعرف سببًا لهذا التأخير.

كان التحوّط الأمنيّ هو سبب التأخير. هذا، على الأقلّ، ما قاله مروان، الشابّ العشرينيّ، الذي جاء في مساء اليوم الثالث ولم يكن يشبه الرسول الذي تخيّله. ظنَّ أنَّه سيصعد إلى غرفته لأخذ الرسالة، لكنَّ مروان اصطحبه، بدلاً من ذلك، ومن دون إشارة إلى الرسالة، إلى بيت يقع في أحد أحياء المدينة العريقة. فهو لا يعرف المدينة، ولكنَّه حزر ذلك مقارنة ببعض الأحياء التي عبراها. لاحظ أنَّهما عبرا، مرَّتين اثنتين، جسرًا معلَّقًا ومستديرة يتوسّطها تمثال رخاميّ لزعيم البلاد يرفع يده تحيَّةً، في كسلٍ، لجمهور غير منظور. في الطريق، أخبره مروان أنَّه «رفيق». اعتذر عن التأخُّر في ملاقاته. قال إنّه إجراء أمنيٌّ.

*

يمكن وصف البيت الذي وصلا إليه، بعد نصف ساعة بالسيَّارة، بأنَّه ڤيلّا. الحيّ يبدو راقيًا بعض الشيء، أو هكذا كان في زمن ما، لكنَّ البيت لا يختلف عن جواره الذي تتطاول في حدائق بيوته أشجار لم يرها يونس من قبل، لكنَّه خمّن أنَّها من فصيلة الحمضيَّات. ثمارها الغريبة أوحت له بذلك. كان للبيت، من الداخل، روائح عائليَّة مألوفة، أقواها رائحة الهال.

أدخلتهما سيّدة حنطيَّة اللون، في الأربعينيَّات من عمرها، إلى صالون مكيَّف. ابتسمت له في حنان واختفت. لم يكن هناك ما يميّز الصالون سوى طوله النسبيّ. قد يكون ستَّة أمتار في أربعة. كَنَبَاتُه ذات اللون العنّابي في حالة جيِّدة. قديمة بعض الشيء غير أنَّها مريحة وزاهية. على الجدران صور فوتوغرافيَّة، مُسْتَنْسخة، على الأغلب، لمناظر طبيعيَّة خلَّابة موزَّعة بذوق سليم. الخضرة تطغى على تلك المناظر. أمامه، مباشرة، صورة كبيرة لشلَّالات تتدفَّق منها المياه بغزارة. خمَّن أنَّها قد تكون شلَّالات ڤكتوريا. ليست نياغارا، لأنَّه

يعرف أنَّ للأخيرة هيئة نصف دائرة. شَدَّه تساقط المياه الغزير، الذي يصنع ضبابة بيضاء طالعة من الأسفل. السماء في الصورة زرقاء. الخضرة الفاقعة تحتضن المياه المتساقطة بغزارة. ثمَّة أغصان لشجرة ذات أوراق كبيرة تتدلّى من جانبيْ المشهد. يبدو أنَّ الصورة التقطت من تلك الزاوية. كِبَرُ الأوارق، نسبة إلى مكوّنات الصورة، وتدلّيها من حوافّ المشهد يؤكّدان ذلك.

فكَّر بمَن زيَّن جدران الصالون بتلك الصورة الطبيعيَّة المستنسخة، على الأغلب. صور الأشجار والزهور والمياه المتدفّقة، الموزّعة بذوق سليم. ففي العادة، تحتلّ صور العائلة، أو الزعماء، جدران صالونات البيوت. في بيتهم هناك لوحات لجدّه ووالده وبعض أصحاب والده من الخطَّاطين. أحرف تتمايل أو تستقيم، بحبر أسود، بأحبار ملوَّنة، في أطر مُذهَّبة أو خشبيَّة. تخطف النظر بينها، كلّها، طغراء على شكل طائر لم يره أحد، خطّتها يد آخر معلِّم كبير في دواوين الأمبراطوريَّة الآفلة. طغراء كحيّة. كعنقود عنب ملتفٌّ على نفسه. خطر في باله أنَّ تلك الخضرة والمياه والزهور عمل يدٍ نسائيَّة. لمسة مؤنَّثة. قد تكون السيِّدة حنطيَّة اللون، التي أدخلته إلى الصالون وابتسمت له في حنان واختفت، هي من فعل ذلك. ثم خطر له، أيضًا، أنَّ الأمر قد يتعلَّق بطمسٍ مقصودٍ للهويَّة. وضعُ صورة عائليَّة أو صورة زعيم، قائد، بطل، رموز دينيَّة، في صدر البيت تحديد واضح لهويَّته وميوله. تجعله عائليًّا مبتهجًا بالسلالة أو منتسبًا لقضيَّة معيَّنة أو معلنًا ولاءً كاذبًا. عندما وصل في تفكيره إلى هذه النقطة، قال في نفسه: قد تكون الصورة قناعًا. هويّة مزيّفة. وهذه، أضاف في نفسه، هويَّة أيضًا.

في الحامية، مثلاً، تُرى صور الحفيد في معظم البيوت. ليس ذلك ملزمًا للناس. الإلزام يكون في المؤسَّسات الرسميَّة والمحال

التجاريَّة، ولكن ليس في البيوت. إنَّها العادة أو التقليد الذي انتقل من المؤسَّسة الرسميَّة والمحال التجاريَّة إلى البيوت. التقليد أو التقيَّة. مكتب والده، بالقرب من السوق المسقوفة، يحمل صورة للحفيد وهو منكبٌّ على كتابة شيء ما، عيناه مركَّزتان على الأوراق التي أمامه، القلم الذهبيّ نحيف، الأوراق بيج، قد تكون معاملات رسميَّة يوقِّعها فعلاً، أو لعلّ اللقطة، كلَّها، مجرَّد بوز للكاميرا التي يبدو أنَّه لا يراها، الكاميرا نفسها التي تعقَّبت مئة حالٍ وحالٍ لسيِّد البلاد ورمز عزّتها. لكنْ ليست هناك صورة له في بيتهم، رغم أنَّ والده يُعدُّ الخطَّاط الأبرز في الحامية، بل يكاد يكون الخطَّاط الخاصّ بالحفيد رغم عدم وجود منصب كهذا. فكَّر، للحظة، في علاقة والده بجابر عثرات الكرام، أحد ألقاب الحفيد العديدة، الشائعة. إنَّه لا يتذكَّر له رأيًا واضحًا في رأس الدولة سوى اعتراضه على التقوُّلات عن غموض حياته الخاصَّة، التي خلقت بيئة خصبة للشائعات. يتذكَّر يونس كيف زجره والده، بقوَّة، عندما تحدَّث أمامه، ذات مرَّة، عن حياته الجنسيَّة، فنهاه، بغضب، عن الخوض في أمر كهذا، لا لأنَّه ذو عواقب وخيمة ولكن لأنَّ لا أحد يعرف، على وجه اليقين، ماذا يدور في صدور الناس، أو عندما يغلقون عليهم أبواب بيوتهم. الله وحده عالم الغيب والشهادة، هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. تلك هي كلمات الأب التي طالما سمعها يونس في أحوال متشابهة، وأقلّ فداحة بالتأكيد ممَّا تفوَّه به عن الحياة الجنسيَّة المزعومة للحفيد. لكنَّ هذا الحضور المباغت للأب في ذهن يونس، الذي شرد بعيدًا عن صور حائط البيت الغريب، لم ينته عند هذا الحدّ، فقد عادت إليه فكرته التي كوَّنها، بشكل مرتجل، عن صوفيَّة والده باعتبارها هربًا من الواقع، أو بالتحديد: هربًا من الشأن العام في

بلاده. هل إمعان والده في التجريد الذي تنحو إليه أعماله في الخطّ، واستغراقه في التصوُّف هما ردّ فعل على واقع لا يرغب في مواجهته، أم هما حقيقته الداخليّة العميقة؟ جبنٌ، أم إيمان؟ أين الحقيقة؟ هذه الفكرة عن حقيقة موقف أبيه ممّا هو حوله، لم يجد يونس جوابًا لها، وستطلُّ برأسها كلّما استدعاها واقع ما، فكرة ما.

عاد يونس من شروده إلى المناظر المعلَّقة على جدران البيت، وتساءل في نفسه: هل قصد أصحاب البيت، الذين لا يعرف من هم حتى اللحظة، عدم إعطائه هويَّة واضحة ومباشرة أم أنَّ تلك اللمسة الأنثويَّة، النديّة، الخضراء، هي هويَّته الفعليَّة ولا شيء غير ذلك؟ وبعد الأب، الذي دخل على خطّ سرحاته التي لم يستطع السيطرة عليها، حضرت رلى. لو كانت معه الآن لعرفت أسماء تلك الأشجار والزهور التي تحتلّ صورها جدران الصالون الطولي، فهي مهتمَّة بالزهور والأشجار، وعمومًا بالطبيعة، وقادرة على وصف الألوان بتدرُّجاتها وأسماء تلك التدرُّجات، فيما هو يعطي أوصافًا تقريبيَّة أو حتى خاطئة لها، وكانت تقول له إنَّها تستغرب أن يكون قادرًا على وصف مشاعر دقيقة، أو وصف شامة تحت الإبط، فيما هو غير قادر على أن يصف، بدقَّة، لون زهرة أو شيء، فيقول أخضر عن الفستقيّ وبُنّيًا عن العنَّابيّ وأحمر عن الفوشيا، وهكذا.

عكسه، تعرف رلى أسماء معظم الأشجار والأزهار ومواطنها الأصليَّة. تفضِّل الزهور، والورد الجوري تحديدًا. هي من أخبرته بأنَّ ذلك الورد، الذي جرحت أشواكه أيدي العشَّاق والجنائنيَّة على السواء، بحسب قول مغنِّيتهما المفضَّلة، ينتسب إلى مدينة جور في بلاد فارس، رغم أنَّ اسمه الشائع، أجنبيًا، هو الوردة الدمشقيَّة، لكنَّنا، لسبب لم تعرفه، صرنا ننسب تلك الوردة إلى مدينة جور، فيما يعرفها

غيرنا باسمها الأصليّ. هذا هو معنى اسمها المشتقّ من المكان وليس من الجَور، فلا يستقيم الورد والجَور معًا. شاعر ولا تفهم في الورد؟ هكذا كانت تقول له في بداية علاقتهما، فكان يردُّ عليها إنّ الشعر يخترع وروده الخاصَّة. وردة الشعر غير وردة الحديقة. كانت تلك الكلمات أقرب إلى الكليشيه طبعًا، ولكنَّه لم يجد، لحظتها، غيرها. أليست هي الفارق بين الجمال في الطبيعة والجمال في الفنّ؟ كلمة وردة دفعت مقولة شهيرة أخرى، ذات سياق مختلف، إلى ذهنه. مقولة يعرفها جيِّدًا، ولا ترسم في ذهنه وردة من أيّ نوع بل لهبًا وحرائق: هنا الوردة فلنرقص. ولكن ما علاقة هذا بذاك؟

عندما قدَّمها إلى الرفيقة حنان، بوصف الأخيرة صديقة له، وليست مسؤولة الفرع النسائيّ في «التنظيم»، كان هناك شيء واحد مشترك بينهما: الأشجار والزهور، بل الورد الجوريّ على وجه الخصوص. حنان استلطفت رلى، ولكنَّها قالت ليونس إنَّها لا تصلح له: عالمها مختلف عن عالمك، والأفضل، برأيي الشخصي، أن تكون لك علاقة برفيقة في «التنظيم». فقد رأتها ساذجة، ورومانسيَّة أكثر من اللازم، لا تناسب مناضلاً ثوريًّا مثله، حياته معرَّضة للخطر دائمًا. ربَّما لم تستطع حنان تجاوز فكرة أنَّ رلى هي ابنة قائد الحرس السابق للحفيد. رلى، بدورها، استغربت شخصيَّة حنان. تدخينها وشربها وكلامها المسترجل وطلاقها وحياتها شبه المفتوحة لم ترق لها، وجدتها غريبة وصادمة، بل لم تتخيَّل أن تكون في بلادها نساء من هذا الطراز.

الزهور لم تصنع جسرًا فوق الهوّة.
الزهور أكثر هشاشة، على ما يبدو، من أن تفعل ذلك.

*

كان مروان قد خلع حذاءه عند المدخل. حذا يونس حذوه، تلقائيًّا. هذا ما يفعله، عادة، عندما يدخل بيتًا في بلاده. ثم تذكّر الرسالة. قَلِقَ. خطر له أن يعود إلى مدخل البيت ليرتدي حذاءه أو ليتأكّد، على الأقلّ، من وجوده هناك. لقد أخطأ في ذلك الفعل الآليّ. فحذاؤه ليس كحذاء رفيقه. وجوده، هنا، يتعلّق أساسًا بالحذاء. الرسالة، التي يحملها موجودة في تجويفٍ داخل إحدى فردتيه. كيف نسي أنَّ ما جاء به إلى هذه البلاد هو الحذاء؟ ما هو موجود داخل إحدى فردتي حذائه تحديدًا. كيف غفل عن ذلك؟ فكّر، أوّلاً، أنَّ فعلاً لا يتّسم بالحذر، كهذا، ستكون له عواقب وخيمة، ثم ذُعِر عندما هُيِّئ له أنَّ الأمر قد يكون فخًّا. فمن هو مروان أصلاً؟ ما هو هذا البيت؟ لمن؟ من تكون المرأة التي ابتسمت له في حنان واختفت؟ لِمَ سلَّم أمره، بتلقائيَّة، إلى صوت في الهاتف ربَّما يكون قد قاده إلى هذا الفخّ الفظيع؟ لقد اجتزتُ، بنجاحٍ تامّ، حدودًا لا يطير فوقها الطير من دون أن يُنتف ريشه، وها إنّني على وشك تضييع كلّ شيء بخطأ بسيط في تقدير الموقف!

لم يعد هناك مجال للاستدراك.
ما حدث قد حدث وانتهى الأمر.

ربَّما يكون مروان قد لاحظ استراق يونس النظر إليه، أو ربَّما لم يلاحظ. كان يودّ أن يلتمس في وجهه علامة تؤكِّد خطأ هواجسه. علامة تطمئنه. أيّ شيء يشير إلى عكس ظنونه التي راحت تتعاظم بمرور الثواني، حتى بدا أنَّ ساعة الوقت الكونيَّة قد تجمَّدت مذ دخل هذا البيت. لكنْ، لم تكن هناك علامة من هذا النوع على وجه مروان. فقد ظلَّ مغلقًا وصامتًا. ينتظر مثله، على ما يبدو، شيئًا سيحدث. كانت الأسئلة التي لا جواب لها تدوِّم في رأس يونس. يفكِّر في الشيء وعكسه في آن، حتى دخل إلى الصالون رجل في مطلع الخمسينيَّات من عمره. طويل، أسمر. داكن السُمرة. شعره الذي يخالطه الشيب مُصَفَّف بعناية. يرتدي حلَّة كحليَّة وقميصًا أبيض بلا ربطة عنق. المفاجأة أذهلت يونس. خفق قلبه بقوَّة وارتجفت يداه. نهض مروان في تأهُّب. وقف بقامة مستقيمة تمامًا. وقف هو أيضًا. نظر إليه مروان، ثم إلى الرجل طويل القامة الذي دخل من ممرّ يؤدِّي، على الأغلب، إلى الغرف الداخليَّة حيث اختفت المرأة التي ابتسمت له في حنان. حدّجه الرجل الطويل الأسمر بنظرة ثاقبة، نظرة أحسَّ أنَّها تخترق ثيابه وجلده وعظمه وتصل إلى أحشائه.

كان وجه الرجل يشبه صُوَره التي رآها يونس في الصحف والمجلَّات. تقدَّم مروان إلى الأمام وسلَّم على الرجل الطويل الأسمر، ثم تراجع إلى الوراء. لم يتحرَّك يونس من مكانه. فقد جمَّدته المفاجأة. عندما أصبح على بعد خطوة منه، تطلَّع إليه مروان وقال مخاطبًا الرجل الطويل الأسمر: إنَّه الضيف. مدَّ الرجل الطويل الأسمر يده إلى يونس وصافحه. بدت ليِّنة أكثر ممَّا توقَّع.

*

كانت الروائح العائليَّة المألوفة التي شمَّها عندما دخل البيت تنبعث من طبختين، أو ثلاث، قُدِّمتْ على العشاء الذي لم يعرف طعمه بسبب التوتّر أو الاستثارة. فقد كان على يونس أن يعرف، من تلقاء نفسه، أنَّ الرجل الطويل الأسمر هو الأمين العام للتنظيم المقيم في الخارج، رغم أنَّ مروان لم يقدِّمه إليه بهذه الصفة ولا بأيَّة صفة أخرى. فكَّر أنَّ الأمر لا يتعلَّق بالسرِّيَّة، أو ما شابه، ولكن، فقط، في كون الأمين العام معروفًا ولا يحتاج إلى تقديم. ماذا كان على مروان أن يقول؟ أقدِّم إليك الأمين العام؟ هل يحتاج الأمين العام الذي يعرفه القاصي والداني، من صوره المنتشرة في الصحف والمجلَّات، إلى تعريف؟

بعد وصول يونس بقليل، *قليل كدهر طويل*، جاء شخص يبدو في منتصف الثلاثينيَّات من عمره، أو ربَّما في أواخرها، يُدعى الرفيق هاني. كان أكثر انفتاحًا من الرفيق مروان، وبالتأكيد، أكثر من الأمين العام الذي لم يتوقَّع منه سوى ذلك المظهر الجدِّيّ، المهيب. بادره

الرفيق هاني، ما إن وصل، بأسئلة عن البلاد وأحوالها. فتحدّث يونس، بارتباك، عن الانفتاح الاقتصاديّ الذي بدأت تشهده وترافقه مع ارتفاع أسعار الأرض والعقارات وبروز ظاهرة رجال الأعمال كحيتان سوق وتشكيلهم شريحة من الكومبرادور، ***تعبير مستجدّ في أدبيّات التنظيم لفظه يونس مشدّدًا على كلّ حروفه بوقع الذي يعرف البراقع التي تتستّر وراءها الرأسماليّة في أحط أشكالها***، وربَط ذلك بالتحوُّلات الإقليميَّة والدوليَّة. ففي أدبيّات التنظيم السياسيَّة، يتراءى كلّ فعل سياسيّ أو اقتصاديّ في الداخل صدى، أو اندراجًا، في توجّه خارجيّ معروف المنشأ. البلد، بهذا المعنى، علبة أصداء رغم التشديد الإعلامي المحلّي على الاستقلال والسيادة وعدم السماح لأيٍّ كان بالتدخُّل في شؤونه التي يسيّرها أهله. سياستنا تعبّر عن مصالحنا. «سياستنا من رأسنا»، وهذا القولُ، الذي صار شعارًا رسميًّا، تحمله يافطات ضخمة مرفوعة في وسط البلد، منسوبٌ إلى الحفيد، ولكنْ من المستبعد أن يستسيغ الرجل الذي استقى علومه العسكريَّة في أرقى مدارس القادة في الخارج، لفظًا سوقيًّا كهذا. ربَّما قاله في عاميَّة مثيرة للتفكّه، في مجلسٍ مع خاصَّته، والتقطه مستشار مولع بالمحسَّنات البديعيَّة، أو السجع، الذي يبدو مثيرًا للرثاء في الخطابات الثقافيَّة للحفيد، ودبَّجه باعتباره شعارًا يختزل السيادة ويختصرها في ثلاث كلمات.

لاحظ يونس أنَّ الأمين العام ابتسم أكثر من مرَّة عندما لفظ بعض التعابير، مثل الكومبرادور، الطُفيليَّة، البورجوازيَّة الصغيرة، البورجوازيَّة البيروقراطيَّة، الطبقات صاحبة المصلحة في الثورة.. فداخله شعور بالراحة، إن لم يكن بالزهو. لكنْ ليس ذلك، بالضبط، ما أراد الرفيق هاني سماعه. استغرب أنَّه كان يرغب في معرفة أخبار

اجتماعيَّة وفنيَّة ورياضيَّة.

مثلاً، عن مغنِّية البلاد الأولى التي أوقفت الإذاعة الوطنيَّة بثَّ أغانيها، وعمَّا إذا كان ذلك بسبب فلتة لسان قاتلة نُسبت إليها تتعلَّق بالحياة الجنسيَّة للحفيد، أو عن الحفلات الخيريَّة التي تُقام تحت رعايته السامية ووجوه المجتمع التي تحضرها، التحضيرات لليوبيل الفضِّيّ لتنصيب الحفيد الجارية الآن على قدم وساق، حظوظ المنتخب الوطنيّ لكرة القدم في التصفيات القارِّيَّة.. أشياء من هذا القبيل.

كان يونس قد سمع حكاية مغنِّية البلاد الأولى التي أوقفت الإذاعة الوطنيَّة بثّ أغانيها، بعدما كان صوتها يلعلع، بلكنة ريفيَّة مصطنعة، في الراديو وعلى بسطات بيع الأشرطة الموسيقيَّة، واختفت أخبارها، فجأة، من الصحف والمجلَّات ولم تعد تُشاهد في مكان عام. يبدو أنَّ مغنِّية البلاد الأولى أفرطتِ في الشرب، خلال إحدى السهرات التي تُقيمها في بيتها لعلية القوم، فقالت ردًّا على سؤال ملغوم، من أحد زوَّارها، عن مدى «علاقتها» بالحفيد: مالوش فيه! صارت جملة «مالوش فيه» نكتة الموسم في الحامية. يسمع المخبرون السرِّيُّون همسها في المقاهي، من نوافذ البيوت التي يتنصَّتون عليها، في مواقف الحافلات العموميَّة، نوادي الشبيبة الرياضيَّة. وقد انزلق تنظيم معارض رصين إلى مجاراة نكتة الموسم، فوزَّع منشورًا عنوانه العريض: مالوش فيه! وأعاد نشر مقتطفات من كتاب لأحد معاوني الحفيد الفارِّين إلى الخارج يتحدَّث فيه عن حياة قائده السابق الخاصَّة، زاعمًا أنَّ «الآمر»، الرجل الرجل، كما يوصف في الصحافة الشعبيَّة، ليست له علاقة بالنساء، ممَّا يفسِّر عدم زواجه حتى الآن، وإنَّ وضعه هذا كان معروفًا لوالده «الآمر الأب» الذي مات وفي نفسه غصَّة على ابن قد لا يترك وراءه من يخلفه في الحكم. ترتَّب على منشور «مالوش فيه» حملة

اعتقالات واسعة في من يشتبه في علاقتهم بالتنظيم المعارض، وتردّد أنَّ المعتقلين تعرَّضوا إلى حفلة تعذيب هستيريَّة في أقبية مؤسَّسة الأمن الوطني. كان منشور التنظيم المعارض انزلاقة، رأى بعض أعضائه من المثقَّفين أنَّها أقرب إلى مستوى النميمة منها إلى السياسة، وتجاري صحف الفضائح، فيما رآها آخرون سعيًا لكسب شعبيَّة بأيٍّ ثمن.

الذعر الذي انتاب يونس، بعدما خلع حذاءه، تبدَّد. تأكَّد أنَّه لم يقع في فخ. فهذا هو الأمين العام أمامه بشحمه ولحمه. هذا، بالتأكيد، بيته. وهذه السيِّدة التي ابتسمت له في حنان هي زوجته. إنَّها الرفيقة خديجة. هكذا سمع الأمين العام يناديها. لا بدَّ أن تكون زوجته. فحَرَكتُها الحرّة داخل البيت والنظرات التي تبادلتها مع «الأمين العام»، والملامسات الخفيفة التي بدرت منهما في أثناء العشاء توحي بذلك. الجوّ، كلّه، بدا عائليًّا. وهذا أراحه. بيد أنَّ أحدًا من الحاضرين لم يسأله عن جانبه الآخر: الشعر. فكَّر أنَّهم لا يعلمون، على الأرجح، أنَّه شاعر واعد إن لم نقل معروفًا، على الأقلّ، في أوساط الشباب الذين يميلون إلى الشعر الحديث. لم يتوقَّف كثيرًا عند هذه النقطة. اكتفى بهذا الشرف، هذه اللحظة التاريخيَّة التي يحظى بها الآن: اللقاء بالأمين العام وجهًا لوجه.

كان لانضمام الرفيق هاني إليهم مفعول مرح استمرَّ حتى نهاية العشاء، الذي غاب عنه مروان ثم ظهر عند تقديم الشاي. إنَّه راوي نكات من الطراز الأوَّل. فاجأه أنَّ الأمين العام ضحك من قلبه بعد أكثر من نكتة رواها الرفيق هاني، الذي تبادل إشاعة المرح مع الرفيقة خديجة. لم يتكلَّم الأمين العام كثيرًا. كانت له تدخّلات مقتضبة بين حين وآخر. الغريب أنَّ يونس لا يتذكَّرها.

عبرت ذهنه، وهو يسترق النظر إلى قائد تنظيمهم، المطلوب حيًّا

أو ميتًا لسلطات الحامية، ثلاثة أو أربعة وجوه، لكنَّ الوجه الأبرز الذي ظلَّ يعاوده هو وجه صديقه ورفيقه، أبو طويلة. كيف سيكون ردُّ فعله لو علم أنَّه رأى الأمين العام بشحمه ولحمه، بل وتعشَّى في بيته؟ أيّ تعبير سيرتسم على وجهه؟ هل سيهزُّ ساقه اليمنى، كما يفعل عادة، عندما يقرأ له قصيدة جديدة كتبها، أو عندما يحدِّثه عن مهمَّة كلَّفه بها «التنظيم»؟ غير أنَّ يونس لن يعرف ردَّ فعله ولن يتسلّى بتقلُّصات وجه رفيقه، ولا بهزَّة ساقه العصبيَّة. هذه المرّة، لا يستطيع التحدُّث إليه عن رحلته السرِّيَّة إلى الخارج. إنَّها ليست مهمّة تنظيميَّة قام بها في شمال البلاد أو جنوبها، ولا هي اجتماع ببعض الخلايا النقابيَّة. هذه المهمّة التي كلّفته بها قيادة «التنظيم» في الداخل، من بين عشرات الرفاق، أُحيطت بكتمان شديد نظرًا لخطورتها، وقد أعاد مسؤول العمليَّات الداخليَّة في «التنظيم» على مسمعه، مرَّة فأخرى، ضرورة عدم التحدُّث عنها إلى أحد، أيًا كان. وتحت أيّ ظرف. وها هو يؤدِّي نصفها الأوَّل بنجاح تامّ.

*

كان الوقت يقارب الحادية عشرة ليلاً عندما خرج يونس بصحبة مروان من بيت الأمين العام. توقَّف خارج البيت قليلاً وأخذ نَفَسًا عميقًا. كانت هناك نسمات هواء تهبُّ من جهة الغرب محمَّلة ببعض الرطوبة. رائحة زهور لا يعرفها اقتحمته. بدت ثقيلة نوعًا ما، مُتخمِّرة، تبيَّن فيها رائحة ياسمين متقطّعة كأنفاس مبهورة. تذكَّر أكثر من ليلة كهذه في بلاده معانقًا رلى، أو ضامّها من خصرها. ذلك المُنحنى العجيب، المأثرة الهندسيَّة. لم يكن يملُّ تطويقه. تقبيله. يغويه البطن بسرَّته المستديرة كحقٍّ من العنبر، كعينٍ تطلُّ على الأبد. البطن الضامر. كأن لا شيء وراء تلك الرخامة القمحيَّة اللدنة. يغويه نداء الهوّة ما إن يصل فمه الطائف في جنائنها المحجوبة إلى الحافّة. حافّة الكون، كما يحبُّ أن يهمس في أذنها، فترتعشُ استثارةً، تجذبه إليها، مُخدّرًا، عندما تتصاعد روائح السفح بطيئة، متسلّلة. أعشاب بريَّة. عَرَقٌ. تخمّرٌ عضويٌّ خفيف. نبيذ يسكب على عشب جافّ. خزامى. رائحة طين. وردة جوريَّة تتفتَّح في فجر شمالي. عماء.

كوكايين. طيران. تعطُّل حواسّ واشتغال حواسّ أخرى.

لم يكن الطواف في نصف المرأة الأسفل من اختراعه. لم يكتشف مغارة علي بابا، مأدبة الحواسّ العامرة، من تلقاء نفسه. تسرَّب إليه هذا الميل الفضوليّ الخجول، المتردِّد، أوَّل الأمر، عبر صديقه أبو طويلة. هو الذي رمى تلك البذرة الخُشخاشيَّة في أرض ظنَّها بورًا، على هذا الصعيد، ولم يعرف ما طرحت.

بإمكان يونس الاعتراف بأنَّ صديقه يتفوَّق عليه في هذا الجانب. ربَّما لا يكون يونس قد أعلن اعترافه لصديقه بهذا التفوّق، ولكنَّه يُسلّم له، في قرارة نفسه، بريادات عديدة. منها، على سبيل المثال، لحرُ «الإجاصة». وهذا التعبير: «الإجاصة» من اختراع صديقه. لم تعد هذه الكلمة تشير إلى تلك الفاكهة البريئة أينما سمعها، حيثما رآها، بل إلى زورق الرغبات الجانح في حقل شعير مبلَّل بالندى. أخبره أبو طويلة أنَّه فعل ذلك مرارًا ووجد في مداعبة الإجاصة ولحسها إثارة رهيبة، *هذا تعبيره*، لشبق الرجل، ومعينًا لا ينضب من اللذَّة للمرأة، بل إنَّ بعض النساء، في رأيه، يفضِّلن ذلك على الإيلاج رغم تردّدهنَّ الكاذب أوَّل الأمر بداعي العيب أو النظافة والطهارة. ويبدو أنَّ أبو طويلة تمكَّن من تصنيف الفروج في أبواب ومراتب لجهة الشكل والحجم، ولم يعرف يونس أنَّ تلك التصنيفات التي أدهشته ملطوشة من كتب قديمة، صفراء الصفحات، تُباع على الأرصفة، وقد اقتنى واحدًا منها، أشهرها، ألَّفه قاضٍ محترم، فوجد فتوحات أبو طويلة النظريَّة في الجنس وأوضاعه التطبيقيَّة موجودة في هذا الكتاب، لكن بلمسات خاصَّة من لسان أبو طويلة الدراميّ. ثمَّة مقولة أخرى لأبو طويلة ثبتَ فشلها. فقد خَلَصَ، مرَّةً، في إحدى تجلّياته في الجنس إلى القول إنَّ شفتيَ المرأة تشبهان شفريّ فرْجها، فذات الشفتين السميكتين لها

شفران سميكان، وذات الشفتين الرقيقتين تمتلك شفرين رقيقين. الفم نسخة مكرّرة من الفرْج شكلاً وحجمًا، والعكس صحيح! رغم تأكُّده من فشل خلاصة صاحبه الطائشة، فقد سكنت يونس وسوسة المقارنة بين الفم والفرْج في المرّات القليلة التي كان فيها مع امرأة في سرير، ولم يكن هناك تطابق ولا من يحزنون. وهذه التحليقة الجنسيّة الخنفشاريّة لصديقه مأخوذة من الكتاب أصفر الصفحات إيّاه.

الروائح، لسببٍ ما، تذكِّر المرء بما يرغب وبما لا يرغب. لا نستطيع الاختيار. محظوظ من تُذكّره الروائح بما يرغب فقط. يبدو أنَّ يونس محظوظٌ في هذا، إذ قلَّما تفشل الروائح في تذكيره بما يسرّه ويرغب فيه، ومنها تلك الذكرى التي ألحّت عليه وهو يقف خارج بيت الأمين العام وتداهمه روائح عضويّة قادمة من قلب ليلة حارّة رطبة.

لم يكن قد مرَّ وقت طويل على زواجه برلى التي لم يقل لغيرها، قطّ، ما قاله لها. إنّه يعدُّ نفسه ملحدًا، بل يمكن القول إنَّه ملحد متبجّح. لا يؤمن بإله، أو هكذا صار بعدما فهم أنَّ الذي يؤمن بالماديَّة التاريخيَّة عليه أن يكون ملحدًا. المادَّة أوَّلاً ثم الفكرة. بل المادَّة صنعت الفكرة، والإنسان هو الذي اخترع الآلهة، المتعدِّدة أو المختصرة في واحد، ثم أصبح عبدًا لها. هكذا يفكّر. لكنّه يعبد تلك الفتاة التي رأى أنَّها طالعة من كلّ البكارات الممكنة في الطبيعة، التي راح يقرأ لها نشيد سليمان ويكتب من وحيه قصائد تفوح بروائح النباتات والحيوانات التي عرفها أو سمع بها. يعبدها. قال لها ذلك. فكّرت رلى أنَّها مجازات الشعراء، هلوسات الرغبة. تأخذه حميَّة الشوق والتحام الجسد بالجسد وسكرة روحه عندما تسري مادَّته العشقيَّة في مجراها، فيخرّف. يهلوس. ينطق بما لا يقصد أو يضخّم قصده. لكنَّه عندما أخبرها أنَّها إلهة ذُعِرت. جفلت كحيوان فاجأته السهام.

يعرف أنَّه يناقض نفسه، ولكنْ إن كان هناك إلٰه على الأرض، ليس في السماء كما تصفه الكتب الدينيَّة، فهو هذا الإلٰه الجبَّار والهشّ في آن واحد. ألم يركع له؟ ألم يخرّ على قدميه أمامها؟ ألم يطف بمعبدها ويسبِّح بحمدها؟ لقد فعل ذلك وهو يقبّلها فيذوق العسل واللبن تحت لسانها، فعل ذلك وهو يلمس، برجفاتٍ متَّصلةٍ، تكوير نهدها ويتمتم من وحي الأثر: ثدياك كخشفتيْ ظبي توأمين يرعيان بين السوسن، ثم وهو يتوقَّف عند قوس خصرها، ويغوص عميقًا بين فخذيها الحنطيَّيْن المدملجين، في ظلمة وداي الحياة والموت والخصب والعشب والبلل والخدر. مَنْ فعل ذلك هو نفسه الذي يناكف أباه في تحميله الحروف والخطوط أسرارًا عُلْويَّة، ويكاد يسخر من انتشاء روح والده بأشعار وشذرات عابدين من نوع آخر. إنَّه هو نفسه الذي يقول إنَّ الطبيعة خلقت نفسها بنفسها، يحكمها قانون النشوء والارتقاء، إنَّه هو نفسه الذي يمكن أن يطلق رصاصة على خصم له من أجل كلمات مكتوبة في شعار، هو نفسه الذي يضحك من مناجاة أمّه لطيور الله الطائرة، هو نفسه الذي قطع مئات الأميال حاملاً رسالة لا يعرف مضمونها إلى قيادة تنظيمه في الخارج. . هذا اليونس العاصي، المتمرِّد، المؤمن بالجدليَّة المادّيَّة وتعميد المجتمعات الهاجعة في قيلولة الطغاة الطويلة بالنار، هو نفسه الذي يركع على قدميه ويقول لرلى: أحبّك حتى العبادة. أعععععععبدك.

كان ارتباطه بها يبدو مستحيلاً حتى أودت رصاصة بحياة والدها. الرصاصة التي أخطأت الحفيد، في محاولة اغتيال فاشلة، أصابت قائد حرسه فأردته قتيلاً. هذا الحادث التراجيديّ الذي قلب حياة رلى رأسًا على عقب جعل ارتباطهما ممكنًا. إنَّها تكره مجرَّد التفكير في ذلك. بقدر حبّها وتعلّقها بيونس كان حبّها وتعلّقها بوالدها، بل ربَّما أكثر.

لم يكن لديها مجال للمفاضلة. لم تفكّر فيها أصلاً. إنّها تحبُّ يونس وتحبُّ والدها. حدث ما حدث وتزوّجا رغم معارضة العائلتين *لأسباب وجيهة جدًّا: صغر سنّ يونس، تركه الدراسة، مستقبله العمليّ الذي لا يبدو مبشّرًا، حماسته المفرطة لشيء ثم انقلابه عليه لاحقًا*، فغرقا في عسل الحبّ ولبنه فترة من الوقت، حتى بدأت رلى تدرك أنّ ليونس حياة ثانية. ليست مع امرأة، بل ما هو أخطر. لم يخبرها، قطّ، عن حياته الثانية ولا حتى ألمح إليها، ولكنّها عرفت ما يكفي لترتجف أعماقها كلّما فكّرت في عواقب تلك الحياة على حبيب القلب، قرّة العين. فهي لم تكن أقلّ حبًّا له من حبّه لها، ولكنّها لا تجيد التعبير عن ذلك بطريقته المتأجّجة نفسها، وإن تقاسمت معه هبات نشيد سليمان الذي راحا يقرآنه بالحواسّ وما وراء الحواسّ، النشيد الذي لا يمكن أن يكتبه شخص، رجلاً كان أو أنثى، إلّا من هذا الشرق الذي يبتهل أناسه إلى المطر لكي يسقط وإلى العشبة لتشقّ الأرضَ الجافّة وتطلع، لكي ترتوي الأفواه وتشبع البطون وتتناسل الحيوانات والبشر، ويطفر الحليب من الأثداء.

حبيبي مدَّ يده في الكوّة فأنّت عليه أحشائي.

اجعلني كخاتم على قلبك، كخاتم على ساعدك.

*

كان يونس قد تعرَّف إلى رلى على طريقة أشدّ الأفلام ميلودراميَّةً. رآها في المكتبة العامَّة المقبَّبة التي تعتبر من مآثر الحامية المعرفيَّة، وهي كذلك بحقّ. كانت تجلس إلى طاولة مستديرة صغيرة تنقل شيئًا من كتاب أمامها، وإلى جانبها فتاتان، في سنّها، بدتا كوصيفتين لهذه الأميرة ذات الشعر الكستنائيّ، والوجه الحنطيّ، القمريّ، والعينين السوداوين العميقتين، والهالة التي تشعّ، كما لو كانت كوكبًا. خفق قلبه بقوّة. اضطربت ساقاه. ارتجفت يداه. جفَّ حلقه. كان، هو أيضًا، يراجع كتابًا لورقة في الفلسفة كُلِّف بكتابتها. وقبل أن تضربه الصاعقة القادمة من طاولة مستديرة تتحلَّق حولها ثلاث فتيات، كان قد نقل هذه الجملة من الكتاب الذي يطالعه «إنَّ أهل أثينا لا يحفلون بالرجل إذا ظنُّوا فيه الحكمة، أمَّا إذا أخذ يبثُّ الحكمة بين الناس، فإنَّهم عندئذ يختلقون سببًا لصبِّ جام غضبهم عليه». لملم أوارقه كيفما اتَّفق. وضعها، بيدين مضطربتين، في حقيبته. ثم خرج. كان قلبه لا يزال يتأرجح في قفصه الصدريّ. لم يكن معه خلف، أو سالم، أو أبو

طويلة. لا أحد من أفراد شلّته التي نادرًا ما يُرى من دون أحدهم. لو كان أيٌّ منهم إلى جانبه، لتشاور معه، ربَّما. لربَّما خفَّف عنه. أو لربَّما جعل تلك الرؤيا مجرَّد حكاية عابرة. كان ينبغي، على ما يبدو، أن يكون وحده لكي لا يكون هناك عائق، حاجز، سبب، يحول بينه وبين خفقة القلب الكبيرة تلك. انتظر أمام المكتبة العامَّة دهرًا. بدا له كذلك. وقف لها، كقدرٍ لا مفرَّ منه، أمام أدراج المكتبة الرخاميَّة العريضة، وعندما خرجت بين وصيفتين، أميرةً من غير هذا العالم، ارتجفت أعماقه. أحسَّ أنَّه مريض. لم يعرف كيف يتصرَّف. ومن دون وعي ناداها. طلب أن يحدِّثها على جنب: ممكن لحظة؟ تراجع إلى الوراء. مشت في اتِّجاهه رغم استغرابها، وتحت ظلّ شجرة كينا عملاقة، كأنَّ شخصًا آخر تقمَّصه واحتلَّ لسانه، نطق هذه الكلمة الأثقل من جبل: أحبّك. كادت تضحك. تحرَّك طوربيدا غمَّازتيها، احمرَّت وجنتاها كوردتين، وقالت: أنت مجنون؟ فردَّ: ليس دائمًا! ثم أضاف، بعدما استردَّ بعضًا من سيطرته على يديه ولسانه: على الأقلّ ليس هكذا. ضحكتْ. ضحكتْ بسرور لم تستطع أن تخفيه. خدّها سِجِلُّها الذي لا يكذب. لذلك أدارت وجهها في اتِّجاه رفيقتيها اللتين ظلَّتا تنتظرانها بالقرب من مدخل المكتبة. إنَّها، عكسه، تؤمن بالحبِّ من النظرة الأولى، فوقعت في حبِّه في التوّ واللحظة. قالت له، في ما بعد، إنَّها كانت مهيَّأة لتلك اللحظة مذ رأته، من بُعد، أكثر من مرَّة، في المكتبة العامَّة التي يتردَّد إليها الطلبة للتزوُّد بمراجع خارجيَّة لدروسهم. وعلى طريق مدرستها، حيث كان يرابط، بين حين وآخر، مع سالم مرَّة، وخلف مرَّة أخرى، وأقلّ من ذلك مع أبو طويلة الذي كان محظوظًا مع الفتيات أكثر منه وكانت لديه دائمًا صديقة، أو يدَّعي بوجود صديقة إن لم تكن موجودة فعلاً. كانت تسمع أخبارًا عن سيرته

المتمرِّدة وقصائده الرومانسيَّة وتعرُّضه للعقاب غير مرَّة. وهذه أساطير شبابيَّة صغيرة تتكوَّن بالسمع وتتضخَّم مع تناقلها من شخص لآخر خصوصًا في وسط العائلات المؤسِّسة للحامية التي تبدو، بسبب تاريخ أسلافها المشترك وقلَّة عددها وتقارب أوضاعها المعاشيَّة، كأنَّها ناد خاصّ. لكنَّ يونس لم يرها، ولم يسمع بها، وهذا غريب جدًّا، نظرًا لقرب مدرسته من مدرستها، ومعرفة عائلتيهما بعضهما بعضًا. كما أنَّ الهالة التي تكلِّلُ فتاة مثل رلى لا بدَّ أن تُلمح من بُعد سفر ليلة وضحاها. لم يتذكَّر يونس أنَّه رآها قبل تلك الانبثاقة المفاجئة لهالتها في فضاء المكتبة العامَّة، وتعلُّقه بشباك عينيها، وحتى عندما تحدَّثا عن لحظة لقائهما الأولى، وعمَّا إذا كان قد رآها من قبل، لم يستطع أن يتذكَّر أنَّه فعل. قال إنَّها كانت تتجمَّع كصاعقة في فضاء مجهول لتصرعه دفعة واحدة. وبهذا المعنى لا ينفع أن يكون قد لمحها، رآها، من بُعد، فمن شأن ذلك أن يُفسد فتيل الصاعقة. يونس يبالغ. هذا معروف عنه. ولكنّه كان يقصد كلّ كلمة قالها لرلى. لأنَّه كان يشعر بها حرفيًّا. لقد وقع في حبّها «من النظرة الأولى» التي طالما سخر ممَّن يؤمنون بها ويردِّدونها. يا ويل من كان يلفظ أمامه هذه الكلمة المضحكة، المضمَّخة بالغباء المزلزل، على حدِّ تعبيراته المجلجلة. لكنَّ هذه الأمور من مكائد الحياة، أو من مفاجآتها التي تهزأ بالأحكام المسبقة. ولطالما حدث ذلك.

لم تكن رلى تعرف شيئًا عن السياسة، فهي لا تهتمّ بها. لا تعرف ماذا تعني أصلاً! اللَّهمَّ سوى أنَّ الحامية هي الحامية والحفيد هو الحفيد. السياسة للدولة. هذا شغلها. وللآخرين شغلهم. كانت تحبُّ الأغاني والزهور وقراءة القصص الرومانسيَّة. لها قلب عطوف. تملك إحساسًا قويًّا بالخير. تكره النفاق والتزلُّف والكذب. هذه حدودها

«السياسيَّة» بالعالم. غير أنَّ يونس لم يكن كذلك. كان ولدًا شقيًا متمرِّدًا على ذويه، على المدرسة، بين الأصحاب. كان شقيًا، ولكن بسلاح غير أسلحة أشقياء الشوارع والأحياء الشعبيَّة، رغم انخراطه في حياة الزعران هذه. سلاحه الذي سيميِّزه عن أصحابه الأشقياء، أبناء القاع الاجتماعي المسحوق الذين انتمى إليهم بالاختيار، كان الكلمة. وهذه ستقوده، بالمصائر الغامضة التي تحتشد فيها، إلى رلى، وإلى ارتباطات غير معهودة في محيطه. ليس الشعر، ليس النثر. ليس الأدب أو الفنّ، فهذا غير بعيد عن عالم والده الخطّاط المفتون بالشعر القديم، ولا عن صحبه الذين يتردَّدون إلى صالون الخميس، منتداه البيتي الأسبوعي، كما أنَّه يهون أمره أمام السياسة. الشعر أوّلاً، أو ما كان يظنُّه شعرًا، ثم السياسة. ليس هناك ترابط سببيٌّ بين الاثنين، لكن في بلد كالحامية، ثمَّة ارتباط بين الكلمة والسياسة، بالأحرى، بين التفكير والشأن العام. والشعر، أيضًا، يفكِّر. إنَّه ليس غيبوبة مشاعر. ليس رومانسيَّات مرسلة على عواهنها في خريف العالم اللانهائي، ولا عواطف متأجِّجة في صدور مأزومة، رغم أنَّ بداية يونس كانت كذلك. ولكن ما إن يتلفَّظ المرء في الحامية حتى يتحوَّل إلى كائن مرصود، خصوصًا إذا انزاح التلفُّظ عن الوجهة العامَّة التي ينبغي أن يصبَّ فيها الكلام. تتربَّى الكلمات في الحامية في حاضنات مجهَّزة لها خصِّيصًا: البيت، المدرسة، الشارع، الكتاب، الجريدة، مكان العمل. ثمَّة من يراقب، بلا كلل، نموّ الكلمات، الأشكال التي تتّخذها، المناحي التي تذهب فيها، فما يشذُّ منها عن الإجماع، ما يتنافر مع الناطقين باسمها يُحيَّد ويُعزل كما تُعزل الأمراض المُعدية. ومعروف في الحامية كيف يكون التحييد وأين يتمّ العزل. هكذا انزاحت كلمات يونس من الغزل الحسّيّ واستلهام نشيد سليمان **لقد سرقتِ قلبي أيَّتها العروس، أنتِ**

أيَّتها الجنَّة المغلقة والعين المختومة على مائها السحريّ، الذي ما شرب منه أحد من قبل، يا شقيقة الظبي وسيِّدة الإناث الصغيرات، جسدي أرضك افلحيه بأنفاسك، وروحي قطعة من صحراء ازرعيها برياحينك الفوَّاحة. انزياح بدأ بكتاب كان يضعه أمامه على طاولة في مقهى، ورجل يجلس إلى الطاولة المجاورة له وينظر، بين حين وآخر، إلى غلاف الكتاب ثم يتنحنح، أخيرًا، ليلفت نظر يونس أم سمعه؟ فيبدأ بفتح حديث متردِّد معه، حول الكتاب. كلمة تلتها كلمة تلاها لقاء منفرد، تلاها سرٌّ، تلاه قَسَمٌ على السرِّ، راح يتَّسع الانزياح ويكبر السرّ ويزداد خطورة. التورّط، الذي كان يونس مستعدًّا له بكلِّ كيانه، الذي بدا للحظة أنَّه مولود لأجله، حصل، ولا مجال للتراجع عنه.

❁

في صباح اليوم التالي لعشائه المثير مع الرجل الذي يثير اسمه الرعب في صفوف رجال الحفيد، القائد البديل الذي ينتظر العودة من المنفى على جناح الثورة المظفَّرة، جاء مروان إلى الفندق واصطحبه. لاحظ يونس، هذه المرّة، طوله الفارع وبنيته الرياضيَّة ممَّا جعله يعتقد أنَّه مرافق الأمين العام. إنَّه مقتضب في كلامه. يتَّسم سلوكه بالحذر. يتحلّى بيقظة دائمة تلمحها في عينيه اللتين يتوجَّب عليهما، كما تخيّل، أن ترصدا أيّ تحرّك مشبوه. هذه مواصفات رجل أمن أو مرافق لشخصيَّة مهمّة. هكذا فكَّر. لم يذهبا إلى بيت قائد تنظيمهم، إن كان ذلك بيته بالفعل، بل إلى شقَّة تقع في ضاحية بعيدة عن وسط المدينة، تبدو، من تشابه بناياتها طولاً وعرضًا، وكأنَّها مجمَّع إسكان حكوميّ، ولكنَّه لم يفعل ذلك إلَّا بعد أن دار حول مستديرة أكثر من مرَّة، وعبر أكثر من جسر. وعندما سأله يونس عمَّا إذا كان قد ضيَّع العنوان الذي يذهبان إليه.

كلَّا، قال الرفيق مروان. ولكن من باب الاحتياط.

توقّفت السيّارة أمام إحدى البنايات المماثلة، في اللون والطول، للبنايات الأخرى. كان المصعد معطّلاً، فصعدا ثلاثة طوابق. قال الرفيق مروان إنّ الأمر يتعلّق بتقنين دوريّ للكهرباء في المدينة. استغرب ذلك. فليس في بلاده مثل هذا الإجراء رغم تواضع مواردها. عكس هذه البلاد الغنيّة. توقّع أن تكون الشقّة تابعة لـ «التنظيم». صحّ توقّعه. فقد كان الرفيق هاني هناك. لم يخلع مروان حذاءه، ولم يفعل يونس. تذكّر وهو يخطو إلى الشقّة، التي لا بدّ أن تكون تابعة للتنظيم، أنّ فردتيْ حذائه لم تكونا بالوضع الذي تركهما عليه عندما خلعهما في مدخل بيت الأمين العام. كانت واحدة بعيدة عن الثانية. وليونس طريقة لا يمكن أن يخطئ فيها بوضع فردتيْ حذائه واحدة بجانب الأخرى. من دون فراغ بينهما. خطر في باله أنّ الأمر يتعلّق بالرسالة التي أُخِذتْ، وربّما بالتي وضِعت مكانها. وهذا موضوع لا ينبغي أن يسأل عنه، ولا حتى أن يفكّر فيه بعدما اطمأنّ أن لا أساس لشكوكه.

كانت الشقّة حارّة، رطبة، تتفوّح برائحة ورق وغبار وعزوبيّة. على جدرانها ملصقات لتنظيمهم. ملصقات كبيرة الحجم، بعضها لرفاق معتقلين في أقبية الأمن الوطني. لم يرَ شعار «التنظيم» مطبوعًا بهذا الحجم والاحتراف من قبل. خفق قلبه بقوّة عندما رأى ذلك الشعار السرّيّ مرفوعًا على هذا النحو المعلن، كأنّ رجال مؤسّسة الأمن الوطني، المبثوثين في زوايا الحامية، يقفون وراء ظهره وهو ينظر إلى الأيقونة المحظورة. كان على طاولة جانبيّة عدد من المطبوعات التي أصدرها التنظيم في الخارج ولم تصل إلى الداخل، أو أنّها وصلت ولم يرها يونس، ممهورة، كلّها، بذلك الشعار الذي

بعث في ذهنه أصداء معارك قديمة دارت في جنوب البلاد.

بدا الرفيق هاني جادًّا أكثر ممَّا كان عليه في الليلة السابقة. تمعَّن في وجه يونس، للحظة. ***كأنَّه يريد التأكُّد من أمر ما*** . كان قد شكَّ بنظراته في لقائهما السابق، وها هو يتأكَّد أنَّ هناك حَوَلاً خفيفًا في عين رفيقه الشابّ اليسرى. عرف يونس، الذي تسكنه عقدة خفيّة إزاء حَوَله رغم تسمية رلى الشاعريَّة له بـ «حَوَل الحُسْن»، ورغم حركة رأسه المدروسة بحيث لا يظهر زيغ عينه اليسرى لمن يراه، أنَّ رفيقه كان يدقِّق في عيبه الخلْقي، فامتعض قليلاً. يبدو أنَّه لن يتخلَّص، بسهولة، من عقدة طفولته ومن طنين تعليقات رفاقه الفظَّة على حَوَلِ عينه الذي لا يكاد يراه الناظر إلَّا إذا تفحَّصه بدقَّة، فتذكَّر رلى التي لم تلحظ ذلك سوى عندما أخبرها، فقبَّلت عينه اليسرى ضاحكة، وقالت له «يا أهبل هذا حَوَل الحُسْن»، ثم أخبرته أنَّ قِصر قامتها هو عقدتها. بالفعل كانت أقصر قامة من معظم الفتيات اللواتي عرفهنَّ، وكان فارق الطول بينهما، وهو الطويل الطويل، واضحًا لكلِّ ذي عينٍ، لكنَّ عين يونس لم تلحظ ذلك.

أعدَّ مروان قهوة ثم اختفى داخل الشقَّة. هذا الرجل الشبح. يحضر ويختفي. لا يتحدَّث معه إلَّا لكسر ثقل الصمت. بالكاد يجيب عن الأسئلة. رشف الرفيق هاني قهوته بمتعة بادية. قال، لتطرية الموقف، أو تمهيدًا لِما سيأتي، إنَّ هذه القهوة مستجلبة من الخارج، فهنا لا يشربون القهوة. رشف يونس فنجانه بمتعة أيضًا، فهو لم يذق طعم القهوة مذ غادر الحامية، حتى في «بيت» الأمين العام قُدِّمَ قبل العشاء وبعده شاي منعنع. الأمين العام جنوبيٌّ، وهناك لا يتوقَّفون عن شرب الشاي، خمر الكادحين على حدِّ وصف أحد الشعراء، مثلهم مثل أهل هذه البلاد التي يجاورونها، وتساءل في نفسه كيف يمكن أن

تكون الصباحات من دون قهوة، بل كيف يمكن للصباح أن يكون صباحًا من دون تلك الرائحة، التي تتصاعد من الفنجان وتتغلغل في الخياشيم، وتسري في القصبة الهوائيّة، وتستقرّ في الرئة، مصحوبة بأنفاس متلاحقة من أوّل سيجارة في الصباح؟ هذه الصباحات موجودة بالفعل، فها هم الناس هنا لا يشربون القهوة، ولا يسمّون المحال التي يتجمَّع فيها الناس للقاء والدردشة وقتل الوقت مقاهيَ كما هو الحال في الحامية. فكيف يسمُّونها مقاهيَ، فكّر، وهم لا يشربون القهوة؟

كان واضحًا ليونس أنَّ اللقاء يقتصر عليهما فقط. أوصاه الرفيق هاني بأن يكون حذِرًا في طريق العودة، حذِرًا إلى أقصى حدّ، فهو يحمل رسالة جوابيَّة مهمَّة جدًّا في كعب حذائه، ***حرَّك يونس قدمه اليمنى على نحو تلقائيّ*** ثم تحدَّث عن مرحلة جديدة سيدخلها «التنظيم». لم يُدل بتفاصيل كثيرة. فكّر يونس أن يسأله عن هذه المرحلة الجديدة، لكنَّ اقتضابه وصرامته منعتاه من سؤاله. الشيء الوحيد الذي يعنيه، شخصيًا، في كلام الرفيق هاني عن المرحلة الجديدة، قوله إنَّه سيلعب فيها دورًا، وسيعرف تفاصيل ذلك عندما يعود سالمًا إلى البلاد. شعر بالزهو. يبدو أنَّه حاز إعجاب الأمين العام وإعجاب الرفيق هاني، الذي لا بدَّ أن يكون كادرًا متقدِّمًا في «التنظيم». هذا ما استنتجه من تباسطه مع الأمين العام وتصرُّفه الذي يوحي بالحزم والمسؤوليَّة، رغم روح النكتة والمرح عنده.

رجع إلى فندقه بمعنويات عالية، فكَّر أنَّ مهمَّته أسهل ممَّا توقَّع، وكان يتوق للعودة إلى بلاده.

*

كانت شمس الظهيرة تسكب حممها على رؤوس المنتظرين عند مركز الحدود الدوليّ، الذين طُلِبَ إليهم الترجُّل من السيَّارت وأخذ أمتعتهم كلّها في انتظار استدعائهم إلى إحدى غرف التفتيش. شمس شرسة تسوط الرؤوس والأجساد والأمتعة والتراب والحديد والحصى التي تلمع، بيد أن لا أحد يتذمَّر. انصياع قدريّ لقوَّةٍ كامنة في كلمات مكتوبةٍ بخطّ ثُلث متكلِّف على قوس مدخل المجمَّع. يعرف يونس أنَّ يد والده هي التي خطَّت معظم الكلمات المرفوعة على مداخل العديد من المنشآت الرسميَّة في البلاد، ويعرف لما ظلَّ بيت الشعر الشهير ناقصًا على واحدٍ من أكبر أقواس الحامية **على قدر *أهل العزم***، لكنَّ هذا التأنُّق المبالغ به في خطّ رصين ليس، على الأغلب، من صنع ريشة أبيه. لا بدَّ أنَّه لواحد من تلامذته، أو منافسيه المنافقين. رأى عسكريَّيْن يقف كلّ واحد منهما على سلَّم طويل يمسحان، بخرق قماش مبلَّلة، غبارًا عن لوحة إعلانيَّة كبيرة منصوبة على قواعد حديديَّة بجانب الطريق، يعلوها نسر الحامية يشخص بمنقاره المعقوف وعينيه

الحاذَتين جهة الشرق. مدائح بخطّ نسخٍ آليّ تليق بإلٰهٍ مرفوعة إلى مقام الحفيد الذي يبدو في صورة الإعلان بسيطًا ومبتهجًا بين جموع غفيرة. ربع قرن من المآثر. ربع قرن من الأمن والاستقرار في ظلالك الوارفة. الأب الحاني. القائد الخالد. الرجل الرجل. معك إلى الأبد يا حامي البلد.

كانت حملة الإعلانات قد اكتسحت البلاد، منذ أشهر، في ذكرى اليوبيل الفضّيّ لتنصيب الحفيد آمرًا جديدًا على الحامية. تمَّ استنفار كلّ مكاتب الخطّ ووكالات الإعلان في البلاد بما فيها مكتب أبيه الذي يدير أعماله التجاريَّة الرائجة أخوه سند بكفاءة عالية. تراجعت لوحات الإعلانات القديمة ـ المتجدِّدة التي ترفع صورًا لجدِّه وأبيه وله، على التوالي، في إطار واحد، وفي أحجام مختلفة بحسب المواقع المعلّقة فيها. فمنذ بضع سنين، خرجت صورة الحفيد من الإطار السلاليّ الحاكم لتنفرد، وحدها، شيئًا فشيئًا في فضاءات الحامية. تلك، كما يُشاع، مشورة من مستشار الحفيد الأجنبيّ، الذي لم يره أحد، ولا يُستبعد أن يكون وجوده، كلّه، مجرَّد شائعة لطعن استقلاليَّة الحفيد، التي يعتزُّ بها في الصميم، ولكنْ أيًّا يكن صاحب المشورة، لعلَّه الحفيد نفسه، فقد تُرجمتْ في الواقع على نحو تدريجيّ لم يلفت نظر الكثيرين. فبحسب الشائعة المنسوبة للمستشار، كانت هذه الخطوة ضروريَّة لكي يميِّز عهده عن عهد أبيه وجدِّه، ولينفرد، وهذا هو المهمّ، بالحكم وحده، فما دام والده وجدُّه يظهران معه في الملصقات والجداريَّات المنتشرة في ربوع البلاد، سيظلّ حكمه ناقصًا، سيظلّ هناك من يشاركه فيه وهو في القبر، ورغم حبِّه وإجلاله لهما إلّا أنَّ عليه أن يقف وحده في مواجهة عالم يواجهه، فعلاً، وحده.

توقَّع يونس أن تكون الغرفة التي استُدعي إليها، داخل المجمَّع

الكونكريتيّ، أكثر برودةً من صهد الخارج. لم تكن. فالمروحة المتدلّية من سقفها المنخفض كانت تضخُّ هواءً ساخنًا، مُشْبعًا بالرهبة والعرق ودخان السجائر. كانت الغرفة عارية الجدران إلّا من صورة كبيرة للحفيد في زيّ حرس الحدود. طلاؤها الجيريّ ناصع البياض يبدو حديث العهد. في وسطها طاولة خشبيّة يجلس خلفها عسكريٌّ يعتمر قبّعة قاتمة الخُضرة خاصّة بحرس الحدود، وأمامه مقسم هاتفيٌّ صغير ومنفضة مُتْرعة بأعقاب السجائر. نافذتها الوحيدة تطلُّ على الشرق حيث يتلألأ السراب على وجه المدى القاحل. ***هناك أشياء أخرى في الغرفة: بندقيّة، نباتات ظلّ، إبريق وضوء، مضرب بولو، سخّان شاي وزجاجة ماء، لكنّه لم يلحظها***.

سأله العسكريُّ، وهو يمسح عرقه بمنديل يد، كأنّه يواصل استنطاقًا لم ينقطع:

ـ وأنت، ماذا كنت تفعل هناك؟

ـ سياحة.

ـ سياحة؟

ـ نعم.

ـ في شهر آب؟

ـ هل للسياحة شهر مفضّل؟

طلب العسكريُّ الذي لم تعجبه نبرة يونس، على ما يبدو، أن يُفْرِغَ محتويات حقيبته الصغيرة المفلطحة، من شدّة الحرّ، ووقف فوق رأسه. لم يكن فيها الكثير: علبة حلوى تشتهر بها تلك البلاد، طقم كاسات شاي معرّقة بنمنمة فارسيّة، بنطلون جينز، تي شيرت، قميصان، بضعة غيارات داخليّة، رواية وديوان شعر. تحسّس بطن

الحقيبة وجوانبها بيدٍ مُدرَّبة. وضعها، وأغراضها، جانبًا وأمسك الكتابين. قَلَبَ الرواية على الصفحة التي تحتوي على معلومات عن دار النشر وسنة الطباعة ورقم الفهرسة المتسلسل، فرأى ختم رقابة الحامية. ضمَّها إلى الحقيبة ومحتوياتها. رغم أنَّ عنوان الديوان مكتوب بخطِّ نَسْخٍ صحافيٍّ شائع، إلَّا أنَّ العسكريّ قرأه في تمهّل كمَنْ يُنشِّطُ ذاكرته، أو ربَّما كمن استصعب قراءته. بدا ذلك من التمتمة الصامتة على شفتيه، ثم قلَّبَه صفحة صفحة.

ـ ما هذا؟

ـ ديوان شعر.

مع تحرّك السيَّارة بعيدًا عن مركز الحدود، أصابت يونس موجة برد. تعرَّقَ. لعلَّه الخوف بأثرٍ رجعيّ. هكذا فكَّر. شيء يشبه الجرح عندما يبرد. لحظتها يشعر المرء بالألم. فقد طُلِبَ إليه، بوضوحٍ تامٍّ، وضوحٍ ما بعده وضوح، عدم لفت النظر. نبرته التي بدت مُسْتَفِزَّة، أو ساخرة، ليست أقلّ سوءًا من لفت النظر. دخَّن سيجارتين واحدة من عقب الأخرى. هدأ قليلاً. خشي أن تكون القشعريرة التي أصابته قد لفتت أنظار الركَّاب الآخرين. هؤلاء، أيضًا، لا يؤتمن جانبهم. واجتياز الحدود، بحدّ ذاته، ليس نهاية المطاف، فهناك نقط تفتيش ثابتة، وأخرى متنقِّلة، على امتداد الطريق وصولاً إلى البيت الآمن.

*

رغم طول الطريق، وتوقُّفهم في أكثر من محطَّة استراحة، ثم نومهم ليلة في فندق بائس في الصحراء، لم يتبادل يونس أحاديث مطوَّلة مع الركَّاب. هم، كذلك، لم يفعلوا في ما بينهم. فمواطنو الحامية الذين لا يعرفون بعضهم بعضًا، جيّدًا، لا يفتحون خزائن صدورهم. يصبح كلامهم، والحال. قناعًا، تمويهًا. أو جسًّا لنبض الطرف الآخر. يتوجّب عليه ألَّا يصدِّق أسباب زيارة زملاء سفره. لِمَ لا تكون مزيّفة مثل سبب زيارته؟ كانوا أربعة ركّاب سوى السائق، وبين الأربعة كان يونس الأصغر سِنًّا. عرف أنَّ أحدهم، أكبرهم سِنًّا، وكيل جرّارات زراعيّة. الذي يبدو أصغر من وكيل الجرَّارات الزراعيَّة ادّعى أنّه تاجر موادّ بناء. الأقرب إليه في السّنّ قال إنَّه طالب جامعي، ***وهذا تقاسم معه غرفة بسريرين في الفندق الصحراويّ***. السائق، متوسِّط العمر، كان مرحًا ومنفتحًا. شكل آخر للاستدراج!

في مركز الحدود، يُستنطَقُ الداخلون ويُفَتَّشُ متاعهم على انفراد. واحدًا وراء الآخر يتمّ استدعاؤهم إلى غرف داخل المجمَّع الكونكريتيّ

ذي الكتلة الرماديَّة، المربّعة. لا يجتمع، هناك، اثنان معًا. لم يفاجئه ذلك الإجراء، رغم أنَّه لم يغادر حدود الحامية من قبل. عندما وقع عليه الاختيار للقيام بهذه المهمّة مرَّ بتجربةٍ عمليَّة لاجتياز الحدود: كيف يبدو، ماذا يقول، أيّ سؤال يسهب في الردّ عليه وأيّ سؤال يقتضب. الحذر، في كلّ الأحوال، واجب، لكنَّ عبور الحدود هو اللحظة التي ينبغي أن يبلغ فيها الحذر أقصاه، والخطر ليس في ما تحمله ذاته، أو حقيبته، بل كعب حذائه.

تذكَّر، وهذا الخاطر يعبر ذهنه، ملحمة شعريَّة أسطوريَّة تقاذفَتْ بطلَها الظروفُ القاهرة والأمواجُ العاتية من بحر إلى بحر، ومن قدر مرير إلى آخر أكثر مرارة حتى وصل، بعد عشرين سنة، شيخًا، متعبًا إلى موطنه، فوجد زوجته وابنه وكلبه في انتظاره.. موتُ كلبه، الذي فارق الحياة بعدما اطمأنّ إلى عودته، أثَّر فيه كثيرًا. لم يكن هناك ما يدعوه إلى مقارنة نفسه ببطل الملحمة، حتى إنَّه، هو الذي غالبًا ما يجد نفسه متقمِّصًا شخصيَّات الروايات والقصص التي يقرأها، لم يرَ نفسه في وضع ذلك البطل ***أبطال الواقع هم الذين يفتنونه وليس أبطال الأساطير. الواقع الذي يصير أسطورة وليست الأسطورة التي ربَّما كان فيها شيء من الواقع ولكنَّها ليست واقعًا، وبما أنَّ المرء يصعب أن يكون إلهًا أو نصف إلهٍ فمن الصعب تقمُّصه***، ومع ذلك لم يستطع تفادي وجه الشبه بينه وبين بطل آخر في الملحمة، لا لأنَّه قويّ وقادر على طرح ثور بضربة كفٍّ مثله، فهو أبعد ما يكون عن ذلك، بل لأنَّه يشترك معه في نقطة الضعف ذاتها: كعبه. مقتل ذلك البطل، أو نقطة ضعفه السرِّيَّة التي لا يعرفها أحد، هي كعبه، ومن يعرفها يسهل عليه قتله، وقد لا يقلُّ ما يحمله هو، في كعب حذائه، خطورة عن ذلك.

يتوقَّف تفكير يونس عند هذا الحدّ، لأنَّ نقطة ضعف بطل

الأسطورة تنكشف ويقتل، يصرعه رمح خصمه في الميدان ويموت، يجرُّون جثّته الملكيّة المهيبة وهي ترشح بدمائها، ويحرقونها بشعلة نضيء ليل الحرب التي تقوم من أجل الحُبِّ!

في تقييم ذاتيّ سريعٍ لأدائه، عرف يونس أنّه ارتكب خطأين. الأوّل في الردّ على سؤالٍ، والثاني اصطحاب كتاب من الخارج. العلامة التي وضعها لنفسه: ثماني نقط من عشر. ليست علامة سيِّئة. كان ينبغي أن تكون، في مهمّة حسّاسة كهذه، علامة كاملة. فأيّ خطأ قد تترتَّب عليه عواقب وخيمة. قرَّر ألَّا يتطرّق إلى هذين الخطأين عندما يقدِّم تقريرًا عن رحلته، فمن شأن ذلك أن يؤثِّر على تكليفه بمهامّ قادمة. باستثناء نبرته، التي بدت ساخرة في الردِّ على سؤال العسكريِّ عن السياحة في شهر آب، فإنّ الكتاب المجلوب من الخارج لم يكن مثيرًا للشبهات. إنَّه ديوان شعر حديث.

*

قبل مغادرته الفندق، فتّش يونس جيوبه كلّها. الثياب التي يرتديها وتلك التي وضعها، كيفما اتّفق، في الحقيبة. أخرج أحشاءها. نفضها. هذا ما طُلِبَ إليه فعله بدقّة. عليه أن يتأكّد، مرّةً فأخرى، من عدم وجود شيء فيها يثير الشبهة. لا رقم هاتف. لا عنوان. لا اسم. لا صورة. حتى الدفتر الصغير الذي دوَّن فيه ملاحظاته عن الفوارق بين الديوان الأخير لشاعره المفضَّل، الذي ابتاعه في هذه الرحلة، وديوانه السابق، تخلَّص منه على مضض. كان قد توصَّل إلى فكرة بدت له وجيهة. إنَّ شاعره يستريح بهذا العمل. إنَّه يخرج من سباقه مع نفسه، ويكتب عملاً أشبه بفاصل بين معركتين قاسيتين مع المعجم واللغة والمخيِّلة والواقع، الذي ينبغي عليه ألَّا ينساه وهو يكتب قصيدته، وذاته التي يجب ألَّا ينساها وهو يحتضن الواقع والفنّ الذي لا يجب أن ينساه، وهو يفكِّر في نفسه والواقع.

من بين كلّ ما سقط من أحشاء جيوبه، أبقى يونس ثلاثة أعقاب تذاكر وإيصالَي مبيت في فندقين. واحدة من التذاكر لمهرجان موسيقيّ

يُقام سنويًا في المدينة، والثانية لدخول المتحف الوطنيّ، والثالثة لرحلة نهريّة تعبر أطلال الممالك البائدة، وهذه تدبَّرها بمعونة مروان. أمّا إيصالا الإقامة في فندقين، فالأوَّل من فندقه بتاريخ طُلب من إدارة الفندق تحديدَه، والثاني لمبيت ليلة في فندق على طريق الرحلة النهريَّة. لم يحضر يونس واحدة من حفلات المهرجان الموسيقيّ ولا دخل المتحف، ولكنَّ الرفيق هاني أعطاه فكرة عامَّة عنهما، أهمّ الفرق المشاركة في هذه الدورة من المهرجان، الحفلة التي حضرها، وكانت لفرقة الموسيقى الشعبيَّة لهذا البلد، وعزفت فيها مقطوعات غنائيَّة معروفة جيِّدًا في الجوار، وعدَّد له، من مطبوعة إعلانيَّة، بعض مقتنيات أهمّ جناح في المتحف الوطني. قال: عليك أن تحفظ ذلك. أمَّا الرحلة النهريَّة التي تُعتبر طقسًا لازمًا لكلِّ من يزور المدينة، فقد اكتفى بالذهاب، مع مروان إلى المرفأ الصغير الذي تنطلق منه، وعاين أشكال مراكبها الشراعيَّة عن قرب، وحفظ أسماء المرافئ الصغيرة التي تتوقَّف فيها.

كانت الأعقاب التي اقتطعها من أصل التذاكر والإيصالين، علبة الحلوى، طقم كاسات الشاي، نوعًا من التمويه. الدلائل المادِّيّة على رحلة السائح المزيَّف الذي كانه. يمكن أن نُضيف إلى ذلك هيئته كخنفسٍ مُزدَهٍ بشَعره الطويل وثيابه الملوَّنة، وهيئته العامَّة التي لا تدلُّ على اهتمام لا يتناسب مع عمره ومشاغله، بل إنَّ تلك الهيئة، التي تتبع آخر صيحات الموضة، هيئة يونس الحقيقيَّة، التي لا تحبُّها أمّه، علنًا، وأبوه، في صمت، هي البرقع الذي تلطَّت خلفه مهمّته السرِّيَّة.

ليس انتقاصًا من شجاعته، المتهوِّرة أحيانًا، الاعتقاد بأنَّ سنَّه ومظهره كانا، بجانب اعتبارات أخرى، في ذهن من كلَّفه بهذا العمل، لو علم يونس أنَّ هذا كان في ذهن من أوكلوه بهذه المهمَّة الخطرة لما قبل بها.

*

يبدو أنَّ استغراقه في استرجاع أدائه على الحدود، وتقييمه، صرفاه عن الحديث الدائر بين الركّاب. سمع وكيل الجرّارات الزراعيَّة يقول: إنَّهم يعقِّدون الأمور البسيطة.

أجابه تاجر الموادّ التموينيَّة: ليتهم يتدخّلون لتحصيل ديوننا هناك، بدلاً من تضييق الخناق علينا.

أضاف الطالب الجامعيّ: نخضع للاستنطاق على جانبيّ الحدود. هناك يظنُّون أنَّنا مرسلون من هنا، وهنا يظنُّون أنَّه تمَّ تجنيدنا هناك.

نظر السائق المرِح إلى يونس من مرآته الأماميَّة:

ـ تأخّرت؟

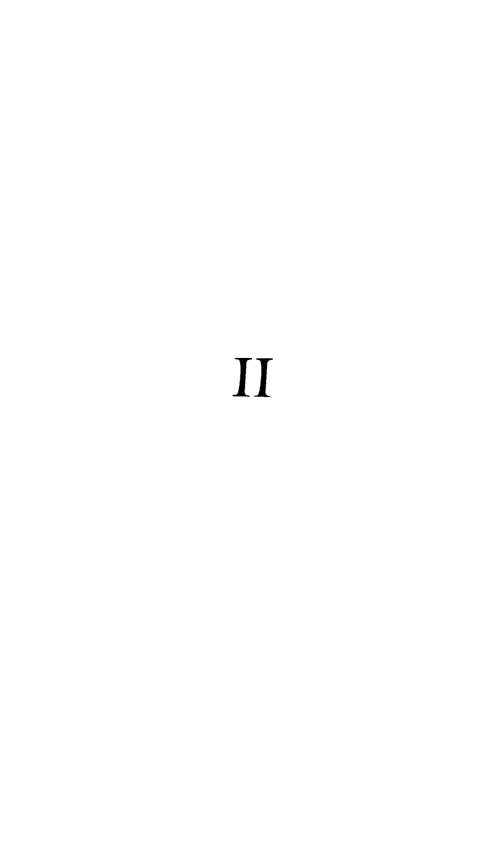
ـ إجراءات التفتيش!

ـ هذا واجبهم، كما تعلم.

ـ مفهوم.

كان يمكن للعسكريِّ أن يعثر على الرسالة التي يحملها يونس، لو

أنَّه طَلبَ منه خلع الحذاء وفتَّشه مثلما فتَّش الحقيبة بطنًا وظهرًا، ولكن، لحسن حظِّه، لم يفعل رغم أنَّ الفكرة ليست مُبتكرة تمامًا. فقد ضبط حرس حدود الحامية، من قبلُ، مجموعة هرَّبت قنابل يدويَّة في كعوب أحذيتها للقيام بعمليَّات عسكريَّة. يتوقَّف الأمر، أغلب الظنّ، على حجم الحذاء. لا بدَّ من أنَّ مقاسات أقدام أفراد تلك المجموعة أكبر من مقاس قدميه. لا بدَّ أنَّهم اختاروا رجالاً ضخامًا، من نسل العمالقة، للقيام بهذه المهمَّة. هكذا فكَّر يونس. عندها تذكَّر أحدَ أعضاء تلك المجموعة، حين ظهر على التلفزيون لكي يعترف بجريمته، ويطلب الصفح من الحفيد. لقد كان ضخمًا بالفعل. لم يعرف يونس في أيِّ فرْدة وُضِعَتِ الرسالة التي حملها إلى قيادة «التنظيم» في الخارج، ولا تلك التي عاد بها. فعندما سأل مسؤول العمليَّات في الداخل عنها، قبل انطلاقه في الرحلة، قال له من الأفضل ألَّا تعرف. إن عرفت سيتركَّز ذهنك عليها. قد تنظر، من دون وعي، إلى الفردة التي تحمل الرسالة. قد تمشي على نحو يوحي بأنَّ شيئًا يثقل قدمك. ألَّا تعرف في أيِّ كعبٍ توجد الرسالة سيُحرِّر ذهنك من التركيز على نقطة معيَّنة وتتصرّف بطلاقة من لا يعرف. عدم المعرفة في هذه الحال راحة. وطلب منه ألَّا يحاول تفتيش الحذاء عندما يصل إلى مدينة السندباد، فهو سيحمل رسالة جوابيَّة مهمَّة في التجويف نفسه. تجاهلِ الأمر كلِّيَّة. تصرَّفْ كأنَّه لم يكن. قال. كان، على الأرجح، مُصيبًا، لكنَّه شَعَرَ، مع ذلك، بأنَّها في كعب الفردة اليمنى. بدا له وقعها على الأرض أخفَّ من اليسرى. قد لا يكون شعوره صحيحًا. إنَّه نابع من تفكير تلقائيّ، بل ربَّما غير واعٍ، لأنَّ معظم الناس، ببساطة، يستخدم اليد اليمنى أو القدم اليمنى في العمل، المصافحة، الكتابة، الأكل، الخطو، الصفع، الركل.. إلخ.



II

بعد رحلة استغرقت نحو ثلاثين ساعة في سيَّارة أجرة، وصل يونس إلى ساحة الحافلات الدوليَّة. شعر، مذ خرج من الساحة التي لها شكل حدوة حصان، أنَّ هناك خطوةً تقتفي خطوته بإصرار. كان أذان العشاء يُرفَعُ من مسجد التقوى في وسط البلد، فطفق أفراد يهرولون في اتِّجاه الجامع، بعضهم يُسبِّح ويحمدل وبعضهم الآخر يُشمّر، من مسافة مائتي متر، عن ساعديه استعدادًا للوضوء. خطر له، والمهرولون إلى الصلاة يمرّون به، أنَّهم يسرعون إلى تشطيف أعضائهم التناسليَّة ومؤخِّراتهم! كم مرَّة يلمسون هذه الأعضاء في اليوم؟ خمس مرَّات. هل ينطوي ذلك على فعل تطهّري فقط أم أنَّ له بُعدًا جنسيًّا خفيًّا؟ استغربَ أن يمرَّ هذا الخاطر، بالذات، في ذهنه، ثم فكَّر أنَّ نوافير المياه، التي تمنح الجوّ الحارّ بعض الرطوبة، هي السبب. ولكن كيف؟ لم يجد رابطًا. ألقى نظرة خاطفة وراءه، فلمح رجلاً يرتدي حلَّة قاتمة يمشي خلفه بخطوةٍ حثيثة، مستقيمة. لم يكن يبدو من الذاهبين إلى الجامع. اندسَّ يونس بين مُلبِّي نداء الصلاة، الذين راحوا يتقاربون

ويتَّجهون، ككتلة واحدة، صوب الجامع. هرول مثلهم ناقلاً حقيبته الصغيرة من كتف إلى أخرى، ولمّا وصل إلى فِناء الجامع، حيث يندفع الماء من سبع نوافير في تعاقبٍ منتظم، انعطف إلى شارع طوليّ معروف بفنادقه وبنسيوناته المتواضعة، التي ينزل فيها القادمون من أطراف البلاد. ساقاه الطويلتان وخوفه من أن يُلقى عليه القبض متلبّسًا، أوصلاه إلى ساحة الساعة التي تحيط بها مقاهٍ ومحالّ أدوات كهربائيَّة وحوانيت لبيع السجائر والمشروبات الروحيَّة. تمهَّل في خطوه، وأنزل حقيبته عن كتفه ولفَّ حزامها على يده اليمنى. فكَّر في كعبيْ حذائه العاليين، اللذين أعاقا طيرانه عن وجه الأرض، لو كان حافيًا أو منتعلاً حذاءً رياضيًّا، لما تمكَّن الرجل ذو الحلّة القاتمة من العثور له على أثر. كان سيضيِّعه بعد لفَّتين أو ثلاث.

رغم أنَّ يونس لم يَرَ ملامح وجه مُطارِده، لكنَّه قدَّر، بسبب عجزه عن تقليص المسافة بينهما، بأنَّه أكبر منه سِنًّا وربَّما يكون مدخِّنًا عتيدًا. يونس أيضًا يدخّن، لكنَّه شابّ، ويمكن القول إنَّه رياضيّ سابق إذا أخذنا في الاعتبار لعبه كرة السلَّة، بتقطّعٍ، مع فريق مدرسته، وانخراطه، بعض الوقت، في فرقتها الكشفيَّة، وتنطّعه، مرَّةً، لسباق الألف متر. لم يركض يونس من قبل كما ركض مذ خرج من ساحة الحافلات الدوليَّة في قلب العاصمة، وربَّما لم يَخَفْ في حياته كما خاف عندما أدرك أنَّ الرجل الذي يتعقَّبه لا يمتحن لياقته البدنيَّة.

كان قد قطع مسافة مُعتبرة منذ بدأ هذا الطراد الخفيّ. كانت هناك حركة سير خفيفة تعبر ساحة الساعة وروَّاد قلائل في المقاهي، التي تتكرَّر فيها صورة الحفيد، في وجهٍ من وجوهه المتناسخة، يرتشف كأسًا من الشاي بسعادة بالغة. لمن لا يعرف البلاد سيظنّ أنَّ الصورة دعاية لنوعٍ من أنواع الشاي، أو لنوع من كاسات الشاي المستوردة من

الخارج. لاحظ أنَّ الساعة، التي تسمَّى الساحة باسمها، تشير إلى التاسعة وخمس عشرة دقيقة، وعلى السياج الحديديّ لبرج الساعة، الذي يتّخذ شكل المآذن المربَّعة، رأى يافطات متنافرة الألوان مكتوبة بخطّ نسخٍ تجاريّ تهنّئ البلاد باليوبيل الفضّيّ للقائد. تطلَّع خلفه، فلمح الرجل ذا الحلَّة القاتمة في طرف الساحة. حثَّ الخطى، في حركة التفاف عكس عقارب الساعة، في اتّجاه ساحة الحافلات الدوليّة. نظر إلى الخلف، فرأى مُطَارِدَه يتعقَّبه بالهمَّة نفسها. سبَّه في سرّه: كس أمّ أبوك. هذه شتيمة صديقه أبو طويلة المفضَّلة، وليست شتيمته. لكنَّه اقتبسها وردَّدها ربَّما أكثر من صاحبها، رغم إنكاره ذلك. فكَّر في أنَّ الرجل ذا الحلَّة القاتمة يأخذ هذا الطِرَاد على نحو شخصيّ. كأنَّه يشعر بالإهانة لمجرَّد أنَّه لم يستطع مجاراته في الركض، أو معرفة خارطة هذه المنطقة، التي يبدو أنَّه ليس منها. هذا مُطَارِدٌ عنيد، فكَّر يونس، وهو ينقل الحقيبة الصغيرة من كتف إلى أخرى. وقال في نفسه لا بدَّ من أنَّه من أبناء المناطق الجنوبيَّة، الذين يصبحون، كما يُقال في المَثَل، ملكيّين أكثر من الملك.

ترَدَّدَ يونس كثيرًا إلى أزقَّة هذه الأحياء المحشورة في أرض منخفضة تمتدّ بين الربوة العالية، التي تُطلُّ على مركز الحامية، والمنطقة التجاريَّة في وسط العاصمة. إنَّها عالم خلفيٌّ نقيض لما هو عليه الحال في الجهة الأخرى: مركز الحامية، ذو المدخل القوسيّ الكبير، المشيّد بالحجر البركانيّ، *المتوَّج بنسر الحامية محدِّقًا بالداخلين والخارجين، مرفرفًا عاليًا يكاد أن يفرَّ من الحجر الذي نُحت منه*، تقف على طرفيه ثلَّة من الحرس، شاكي السلاح، وحيث يتوارى، وراء السور الحجريّ البركانيّ الطويل وأبراج المراقبة وسبطانات المدافع المدهونة بلون أسود، مقرُّ الحفيد والقيادة العامَّة للقوَّات المسلَّحة، والمعسكرات الخاصَّة بكلِّ سلاح، ورئاسة الوزراء، ومقرّ مؤسَّسة الأمن الوطني، والتجمُّعات السكنيَّة لعائلات الضبَّاط والجنود ورجال الأمن، وسواها من المنشآت الموزَّعة بنظام هندسيّ متناسق على بسطة من الأرض غير معلومة المساحة، وهي أرض يتلألأ خلفها وهجُ الصحراء، الذي تحتمي فيه بقايا القبائل المحاربة التي أُقيمت

هذه المنشآت والأسوار وعاكسات الوهج المتحرِّكة لردعها.

مركز الحامية هو، في الواقع، الحامية القديمة، التي لا يُعْرَف متى أقيمت أوَّل مرَّة، ولكن لا بدَّ من أنَّ ذلك حدث منذ وقت طويل جدًّا، عندما كانت تمرّ في هذه المنطقة طريق التجارة القديمة، وقد أعاد الجنرال الأصهب تأهيلها لتكون مقرّ قيادته قبل ولادة كيان البلاد الحديث، فهناك حطَّ رحاله مع جيش صغير من المنتفضين على الأمبراطوريَّة المترنِّحة، وشرع في وضع مخطَّطه الطموح. لم تكن الحامية بهذا الاتِّساع وعدد السكَّان، فذلك حدث لاحقًا، وبالتدريج مع الولاءات التي أعلنتها المناطق والأقاليم تباعًا، طوعًا أو قسرًا، لسيِّد الكيان الجديد وصحبه من روَّاد لحظة حاسمة في التاريخ، لحظة تفكُّكٍ وقياماتٍ حقيقيَّة ومختلقة في آن. على جوانب مركز الحامية، باستثناء الشرق المتروك لرهبة الصحراء، أقام التجَّار والكسبة والباحثون عن الرزق والمهرّبون والقادمون من الجغرافيا المشطورة للأمبراطوريَّة المنهارة وأرهاط من أبناء القبائل التي هجرت الغزو، *أولئك الذين أرّقوا الحامية القديمة وحطّموا أسوارها أكثر من مرّة* أحياءً وأسواقًا ذات تخطيط بلديّ بسيط، ثم راحت تكبر وتتّسع وتتنافر علوًّا وانخفاضًا، متّخذة لنفسها اسم «البلد»، فالعاصمة، غير أنَّ الناس ظلّت تسمِّيها البلد.

من يعرف التنظيم الهندسيّ، والتوزيع العمرانيّ والوظيفيّ لمركز الحامية، يمكن أن يعتبر هذا الشطر من أحياء «البلد» أشبه بمتاهة من بيوت متجاورة، وأحيانًا متداخلة، تطلُّ نوافذها وشرفاتها، على بعضها، يكاد يسمع المتجاورون في هذه العلب الإسمنتيَّة أنفاس جيرانهم، تجشّؤاتهم، ناهيك عن أصواتهم التي تتعالى بسبب ومن دون سبب. من قبل، كانت هناك فراغات بين بيوت تلك الأحياء والمنطقة

التجاريَّة الأكثر تنظيمًا، لكنَّها، مع تكاثر الناس وتمدّد متاهة الإسمنت، لم تعد كذلك.

لا فاصل تقريبًا بين جلبة الأسواق

وأنفاس المحشورين تحت سقوف واطئة.

في هذه الأحياء، يقطن بعض رفاق يونس وخصومه الشرسين، مثل «عقلة الأصبع»، القامة القصيرة التي تُثير الرعب بين ربع سكّانها على الأقلّ؛ وحيد الذي كان لديه استعداد لقطع شريانه تعبيرًا عن وفاء أخرق له، وقاما معًا، مرَّة، بعمل أخرق إذ دهنا سيَّارة المحافظ، الذي جاء يتفقَّد هذه المنطقة؛ بالروث، وفرّا أمام صياح رجال الأمن ووجهاء المنطقة، «المهندس» الولد الموهوب الذي كان قادرًا على تحويل أيَّة قطعة خشب إلى مركبة تتحرَّك، وأيَّة أسلاك حديديَّة إلى هياكل أكثر السيَّارت الرياضيَّة شهرة؛ راجي، الذي كان يحمل، دائمًا، قطع فحم، أقلام فلو ماستر، علب دهان أحيانًا، وينقضُّ على الجدارن بعدَّته الفنِّيَّة، رسمًا وتخطيطًا، وعوقب مرَّات عديدة بسبب «تلويثه» الجدران وأبواب المحالّ برسومات كاريكاتيريَّة لشخصيَّات سياسيَّة وفنِّيَّة ورياضيَّة شهيرة ***ليس بينها الحفيد قطعًا***. لم يعد يونس يرى هؤلاء كثيرًا مذ بدأت هرموناته الفائرة بالاستقرار، وصارت له اهتمامات مختلفة عن اهتمامات مراهقته، لكنَّه، مع ذلك، ظلّ يحرص على لقائهم بين حين وآخر، حتى إنَّه توسَّط لدى أخيه سند لتشغيل راجي في دائرة المساحة العامَّة. إنَّهم جزء أصيل من ذاكرته وخطواته المجنّحة التي اتَّخذت، لاحقًا، مسارًا آخر بعيدًا عنهم. مع أنَّ هذه المنطقة جزء أصيل من ذاكرة يونس، إلَّا أنَّه لا يتحدّر منها. فأهله يقيمون في حيّ الرابية، الذي لا يبعد كثيرًا عن السوق المسقوفة. كان هادئًا وبعيدًا، في مستهلّ أمره، عن الضجيج قبل أن تزحف في اتّجاهه

السوق ويزحف العمران ويزحف البشر الذين تكاثروا أكثر ممّا هو متوقَّع ومخطَّط له. ثم إنَّ يونس أمضى مراهقته بين مركز الحامية، الذي انتقلوا إليه مع بداية دراسته الإعداديَّة، ومحيط السوق المسقوفة. هذان عالمان يفصل بينهما ممرّ مائيّ عليه بضع قناطر من الحجارة البركانيَّة لعبوره، مركبات ومشاة، في الاتّجاهين، وعلى تخوم الأسوار ذات الحجارة البركانيَّة كانت تدور مواجهات مع أبناء القاطنين وراء الأسوار، ومن هم خارجها، وصادف أنَّ يونس كان مرَّة هنا ومرَّة هناك.

إذن، يمكن القول إنَّ يونس عاش طفولته في محيط مكتب أبيه، بالقرب من «السوق المسقوفة»، ومراهقته أمضاها بالتنقُّل بين مركز الحامية ووسط البلد، حيث كان يتسكَّع مع أصدقائه بين صالاتها السينمائيَّة ومقاهي الرصيف، التي تتفوَّح بروائح شاي ثقيلة وتُسمع على طاولاتها رميات أحجار النرد والورق المصقول، المقوّى، وطلبات الزبائن التي لا تنتهي، وأغاني نجوم الطرب ذات المقدِّمات الموسيقيَّة الطويلة. هذا ما لم يفعله أخوه الأكبر، سند، ولا أخوته الأصغر، الذين انصاعوا إلى مشيئة الأهل. ذلك التغريد خارج السرب خصيصة انفرد بها الابن الثاني للخطَّاط الكبير، سليل مؤسِّسي الحامية، عن بقيَّة أبناء عائلته وأقاربه المباشرين، وصار وسمًا على جلده.

في الأوقات العاديَّة، كان سهلاً عليه أن يضيّع أبناء تلك الأحياء فيها، فالمعارك الصبيانيَّة كانت تقوده من حيّهم المتنحّي عن وسط البلد، إلى أزقَّتها المتنافذة أو المسدودة. كان يعرف من أيِّ زقاق يدخل ومن أيِّ واحد يخرج، كيف ينطُّ عن أسوار البيوت ويطير بقدمين مجنَّحتين فوق الأسطح. يرى السكِّين يُرْهِف نصله في زقاقٍ، بالكاد يتَّسع لمرور شخص واحد، فيستخدم سكِّينًا ومرآة مُحجَّرة تعكس

عشر سكاكين تحت شمس رابضة. تلك حيلة تعلَّمها من كتب المغامرات المصوَّرة. إنَّه ربيب تلك الأحياء بالاختيار. لذلك يعرفها كما يعرف باطن كفِّه.

لكن ليس في تلك اللحظة. فقد كادت ملامحها تمّحي من ذاكرته، والرجل الذي يطارده يتبعه كظلِّه. ولا ظلَّ في تلك الليلة سوى هذه الحلّة القاتمة التي تخفق وراءه بلا كلل. خارطة معارك طفولته ومغامرانها، التي طالما أثارت غضب أمّه وامتعاض أبيه، عادت إليه. هي التي دلَّته إلى درب ترابيّ يربط بين «حيّ الصحافة» (حيث يقع «المعهد العالي للصحافة» الذي التحق به نحو عامين ثم تركه) و«حيّ الشعلة». درب نحتته حوافر الدوابّ في السابق، قبل أن يصبح هذا الوسط السكّانيّ والتجاريّ المختلط كوكبًا قائمًا بذاته، ثم حوَّلته أقدام الأطفال والنساء وباعة الخضر والحليب إلى دربٍ مرصوصٍ متحجِّر.

*

بعد وقت، لم يعلم يونس كم طال، وجد نفسه يقف أمام شقَّة صديقه الحنَّاوي. تشارك الصديقان هذه الشقَّة المستطيلة، على سطح بناية مستطيلة، في حيِّ الشعلة، والمكوَّنة من غرفتين وصالون، لفترة من الوقت. تزوَّج يونس، فانتقل ورلى للعيش، موقَّتًا، مع أهله، فصارت الشقَّة، فعليًّا، لإبراهيم، رغم احتفاظ يونس بغرفته وبعض أغراضه فيها. كان على يونس أن يتأكَّد، تمامًا، قبل اقترابه من البناية، أنَّ الحلَّة القاتمة لا تخفقُ وراءه، بل لا أثر لها على امتداد الشارع الخالي إلَّا من بضعة جرذان سمينة تعبره من جهة إلى أخرى بلا وجل، بحيث اضطُرَّ إلى تفاديها وهو يركض تحت ضوء الإنارة العموميَّة الباهت والعرق يتصبَّب منه.

اللاوعي، الذي ينشط في حالات الخطر، اشتغل رادارًا داخليًّا له، وهو الذي وجَّه خطاه وقادها عبر شبكة الشوارع والأزقَّة الضيِّقة وأسواق الحبوب والتوابل والأنتيكات المقفلة في تلك الساعة حيث تعاقبت على أنفه موجات من الروائح الطيِّبة والكريهة. فرغم الخوف

الذي شلّه في لعبة القط والفأر مع الرجل ذي الحلّة القاتمة. إلّا أنّ يونس لم يقترب من البيت الآمن الذي كان هناك مَنْ ينتظره فيه على قلق.

تلك، ربّما، لحظة الوعي المؤكّدة في ركضه وهرولته المتشعّبين اللذين استمرّا زهاء ساعة.

لم يكن اختياره سكنه السابق، بعد الطراد المنهك مع الرجل ذي الحلّة القاتمة، خاليًا من المقامرة. فإن كان الرجل الذي يطارده يعرف المهمّة التي قام بها، أو يعرفه شخصيًّا، فليس مستبعدًا أن يفكّر في لجوء يونس إلى هذه الشقّة التي لا يزال يحتفظ بغرفة فيها، ولكن على مُطارِده، إن كان يعرف يونس، التفكير، أيضًا، في بضع شقق أخرى لأصدقاء وأقارب يتردّد إليها يونس، وهذه لعبة روليت. قد تصيب وقد تخيب.

على الرجل ذي الحلّة القاتمة، إذن، أن يحسم أمره ويقرّر أين اختفى الشابّ النحيل الطويل ذو الشعر المرسل حتى حدود كتفيه، ذلك الذي ترجّل من سيّارة أجرة في ساحة الحافلات الدوليّة في قلب العاصمة، ومن إحدى كتفيه تتدلّى حقيبة صغيرة تحوي أقنعة مضلِّلة لرحلته الخطرة: علبة حلوى، طقم كاسات شاي، رواية من القرن السادس عشر، ديوان شعر وبضعة غيارات داخليّة. لحسن حظّ يونس، لم يكن الرجل ذو الحلّة القاتمة يعرفه، بل لم يكن يرغب سوى في توجيه سؤال أو سؤالين عن الوجهة التي جاء منها، وهذا إجراء نسي مسؤولوه أن يخبروه باحتمال حدوثه. فمحطّة الحافلات المركزيَّة، التي تنتهي إليها رحلات القادمين من الخارج، تخضع للمراقبة ولا يخلو الوصول إليها من السؤال والرصد والمتابعة. هرولة يونس، ثم ركضه، هما اللذان أدّيا إلى هذه المطاردة المتشعّبة، المنهكة، غير الضروريّة.

ولكن كيف كان سيعرف؟

مسَّد، بيديه الاثنتين شَعرَه الذي تشعَّث في أثناء المطاردة، بعدما وضع الحقيبة على الأرض، الحقيبة التي نفعته خفَّتها في ماراثونه المفاجئ. مسح وجهه المتعرّق بطرف قميصه. أخذ نَفَسًا عميقًا، تحسَّس مفتاح الشقَّة في جيبه، لكنَّه قرَّر أن يطرق الباب. عليه أن لا يتصرَّف كما لو كان لا يزال يُقيم هنا. كان الحنَّاوي، في تلك الساعة من الليل، في الشقَّة، فهو ليس من الذين يسهرون، طويلاً، خارج بيوتهم، بل يمكن القول إنَّه «بيتوتي». بدا الإرهاق واضحًا على وجه يونس. كان عليه أن يخترع حكاية لزيارته المتأخّرة بعض الشيء، لإرهاقه وحقيبته ووضعه العام المضطرب. الحكاية التي رواها لصديقه نصفها صحيح ونصفها مُختلق. أخبره أنَّه كان في رحلة إلى مدينة شاعرهما المُفضَّل، ولم يجد واسطة تقلُّه إلى ناكوجا آباد. يعرف الحنَّاوي أنَّ عائلة صديقه تُقيم، صيفًا، في منزلها على أطراف الحامية، الذي يسمِّيه يونس ناكوجا آباد، بسبب الكلمتين الفارسيَّتين اللتين خطَّهما والده على مدخل البيت مستلهمًا إيَّاهما من السهروردي تعنيان ***«مكان اللاأين»، أو «بلاد اللاأين»***، وصار اسمًا شائعًا بين أصدقائه، لكنَّه يعرف، أيضًا، أنَّ ليونس أمكنة أخرى يتردّد إليها في وسط البلد، بعضها أقرب، بالتأكيد، إلى ساحة الحافلات الدوليَّة من شقَّته. غير أنَّه لن يقول له ذلك. فهو لا يرغب في الدخول إلى مناطق يعرف، بنوع من الاتِّفاق غير المكتوب بينهما، أنَّها محظورة، أو على الأقلّ لا يُسأل عنها ما لم تخرج إلى العلن.

- كيف كانت رحلتك؟

- جيِّدة. عرفت أشياء عن تلك المدينة لم أكن أعرفها من قبل.

- مثلاً؟

ـ إنَّهم لا يشربون القهوة!

ـ ماذا يشربون إذن؟

ـ الشاي طبعًا، فهل هناك غيرهما؟

ـ الكاكاو!

ـ دمك خفيف.

ـ ودمك أخفّ، خاصّة بهذا الشَّعر المنكوش.

بحركة تلقائيَّة، رفع يونس يديه إلى رأسه وراح يمسِّد شعره المنكوش، بحسب ما قال صديقه، ولكن شعره لم يكن منكوشًا بل منسرحًا، وتوحي لمعته، تحت ضوء غرفة الجلوس القويّ، بأنَّه لم يُغسل منذ بعض الوقت. انطلت الحيلة على يونس. ضحك الحنَّاوي، بشيء من التوتّر المكتوم، وجاراه يونس في الضحك، فأصدقاء الأخير يعرفون أنَّه شديد الحرص على شَعره. كان الحنَّاوي بصدد أن يقول شيئًا ليونس، غير مزحة الشعر المنكوش، ولكنَّه تراجع. أحسَّ يونس من تحفّز صاحبه، من جلسته على طرف الصوفا، من وضع كفّ يده اليمنى على يده اليسرى أنَّه غير مرتاح. *رأى يونس، لأوّل مرَّة، وشمًا باهتًا على ظهر كفّ الحنَّاوي اليمنى، مغطًى بالشعر، كأنَّه حرف «هاء»، فسارع الحنَّاوي إلى عكس يده بعدما رأى عينيْ يونس مسلَّطتين عليها، كأنَّه كان يتفادى، بتلك الحركة، حرجًا أو عورة.* هذا التحفّز الصامت، السؤال الذي لم يُسأل، وصل إلى يونس. شعر بأنَّ صديقه قلق من هيئته المرتبكة، من هذا الغموض المريب الذي يطبع سفرته، من أنَّه غير مرتاح للأمر كلّه. لكنَّه بعد تلك المطاردة المنهكة مع الرجل ذي الحلّة القاتمة، والخوف من أن يُلقى القبض عليه متلبّسًا بما يحمله في كعب حذائه، سيغضّ الطرف عمَّا بدا على صديقه من

إمارات انزعاج أو تململ. فلن يخرج إلى الليل المكتظ بالاحتمالات الجرذان. ولكي يُخرج نفسه، وصديقه، من هذا الجوّ القلق، انحنى يونس على حقيبته، التي وضعها بجانب الصوفا، فتحها، وأخرج منها، بزهوٍ ظاهرٍ، ديوان الشعر الذي ابتاعه عندما تسلَّل من الفندق تحت سياط شمس الظهيرة، ثم قال:

ـ انظر ماذا وجدت هناك!

ومرَّر الكتاب إلى الحنَّاوي الذي برقت عيناه الذكيَّتان، وقرأ العنوان بصوتٍ عالٍ: «نجمة لمساءٍ قادم». قال:

ـ صارت عناوين شاعرنا أقلّ جاذبيَّة من قبل.

ـ بالعكس، إنَّه عنوان مبتكر.

ـ ربَّما، ولكنَّه غير ملهم. أين هو من «نبيّ يقاسمني شقَّتي»؟

انتبه الحنَّاوي إلى ما يبدو تلميحًا لصديقه، وشريكه في الشقَّة.

ـ ليس أنت، بالطبع.

ـ ولا أنت أيضًا.

ضحكا.

كان ضحكًا صافيًا هذه المرَّة.

*

إبراهيم الحنَّاوي، الذي يناديه الجميع اختصارًا باسم عائلته، ليس صديق طفولة يونس أو مراهقته مثل معظم أصدقائه، ولا من محيطه الاجتماعيّ والجغرافيّ، ولا في سنّه أيضًا، فقد التقاه، مصادفة، في مقهى الزنبقة السوداء، عندما بدأ يونس يظهر كشاعر شابّ، متحمِّس، متطرِّف في آرائه، يناكف الشعراء المكرَّسين البائسين، على حدّ تعبيره، وصارا صديقين تجمع بينهما اهتماماتهما المشتركة بالقراءة والشعر والإعجاب غير المعلن، وربّما غير المفكَّر فيه، باختلاف شخصيَّتيهما. الحنَّاوي أفاد يونس باطّلاعه على الشعر الجديد خارج البلاد، رغم دراسته الشريعة، التي كانت أقرب إلى دراسة مفروضة عليه ممَّا هي اختياريَّة وطوعيَّة. لكنَّ هذه الدراسة أفادته في فهم النصّ الديني والتعمُّق في دراسة اللغة الضروريَّة للشاعر الذي كان يعدُّ نفسه أن يكونه، بحسب رأيه. كانت دراسته الشريعة في فصول الجامعة فقط، والانخراط في حياة الأدب والأدباء في ما عدا ذلك. وبالمقابل، شحنه يونس بطاقةٍ كان يفتقر إليها، وبميل إلى المغامرة اللغويَّة

التجريبيَّة، التي كان يتردّد في خوضها نظرًا إلى طبيعته المتحفّظة.
ومنذ لقائهما في مقهى الزنبقة السوداء، بدآ في تأسيس مجموعة شعريّة
ونصصيَّة طليعيَّة، أو تظنُّ نفسها كذلك، التي كان من بين أعضائها
القاصّ البوليسيّ، حسيب مرتضى، ومحمود فيضي (أبو طويلة) الشاعر
والقاصّ المديوكر بحسب تعبير الحنَّاوي، الذي كان يريد أن يفعل أيّ
شيء يقوم به يونس. كان الاختلاف في شخصيَّتيْ الحنَّاوي ويونس
واضحًا من اللحظة الأولى. ففيما كان يونس مباشرًا، متحمِّسًا، على
شيء من التهوّر، كان الحنّاوي متروِّيًا، يفضّل البقاء في الظلّ، كتومًا.
ليست السنون الأربع، أو الخمس، التي يكبر بها الحنَّاوي صديقه
يونس هي السبب. فأربعة أعوام، أو خمسة، بعد العشرين لا تصنع
فارقًا نوعيًّا في حياة المرء كانتقاله من خفّة الطفولة إلى ثقل البلوغ.
كلَّا على الأرجح. السبب هو الطبع، الذي يبدو أنَّه شيء متأصِّل في
الكائن البشريّ كاللحم والدم والعصب، الطبع الذي لم يهذِّبه الزمن
بعدُ وربَّما لا يهذِّبه أبدًا. فيونس مباشر لأنَّه كان هكذا منذ الصغر.
ولا علاقة لذلك، فقط، بالبيئة أو الفوارق الاجتماعيَّة بين الناس.
سند، اخو يونس الأكبر، ليس مباشرًا في علاقته بأبيه، رغم أنَّ هذا الأخير ليس من طينة الآباء الذين يبثّون الرعب في قلوب أبنائهم، ليحافظوا على مهابة مضحكة، فهو قليلاً ما كان ينظر في عينيْ والده عندما يكلِّمه، بينما لا يخفض يونس عينيه في أيّ حديث مع أبيه، ينظر إليهما من دون وجل. وقاحة، كان يقول سند، ربَّما كان يردّ أخيه الأصغر.

في يونس شيء من التفلُّت والتمرُّد والمباشرة في الكلام والنطنطة
المزعجة منذ الصغر. هذا هو طبعه. هذا ما كان يقوله والده، بنوع من
الإعجاب المضمر، لأمّه التي تولّت، عبر تلقينٍ مدرسيّ وانضباط

عاطفيّ حينًا وتضرُّع إلى الله ومناجاة الطيور الطائرة حينًا آخر، سدّ ما اعتبرته نقصًا في تربية ابنها الفالت على رأسه، كما تدأب تردّد. الابن الفالت، الذي لا شيء فيه من أبيه أو أعمامه المنصرفين، تحت هالة أخيهم الكبير الآسرة، إلى شؤون الخطّ والزخرفة، ولكن، ربَّما، فيه شيء من أخواله، تحديدًا من أخيها أدهم الذي كانوا يسمُّونه «غطّاس» لأنَّه كان كمن يغطس، يختفي عن الأنظار فجأة ويظهر من دون سابق إنذار. لاحقًا عرفت العائلة أنَّ أدهم، الذي فشل في الدراسة والاستقرار في عمل واحد، كان ينقِّب عن الآثار والكنوز المطمورة في مواقع سابقة لجيش الأمبراطوريَّة ومقارّ حكومتها. عندما تتذكَّر أمّه أخاها أدهم، الفالت بدوره، كانت تقول في نفسها «العِرق دسّاس». ولم تستغرب العلاقة القويَّة التي ربطت بين ابنها وخاله. يمكن لها أن تقول هنا، بكمدٍ وتسليم موقَّتين، إنَّ المرأة تكاد أن تلد أباها أو أخاها، ثم لا تلبث خرّيجة معهد التربية، التي عملت بالتعليم في سني زواجها الأولى، معاودة مهمَّتها المقدَّسة في ردّ ابنها إلى حظيرة الصواب من دون كلل.

ماذا كانت ستقول، وأيّ طيور ستناجي، وفي أيَّة سماوات، لو علمت أنَّ ابنها يعيش حياة موازية خطيرة واتَّخذ لنفسه، في هذه الحياة الموازية، اسم أخيها «أدهم» اسمًا حركيًّا له؟ أدهم الفالت على رأسه، الشاة السوداء في القطيع ناصع البياض، شقيق العزيزة فاطمة، زوجة الخطّاط الشهير المحترم، يتكرَّر، مرَّة أخرى، في مرآة سرِّيَّة، يصبح اسمًا محدود التداول، في طوبى العنف الثوريّ لابن الأخت؟ فعلاً، يبدو أنَّ المرأة تكاد أن تلد أباها أو أخاها!

تهوُّر يونس لا يعني أنَّه أحمق تمامًا، أو مجنون لا يقدِّر عواقب الكلمات والأفعال، ولا يعني أنَّه يقول ما يفضي به إلى الحنّاوي أمام

كلّ من تضمّه إليه جلسة في مقهى أو مكان عام. هو لا يفعل ذلك. إنّه، ببساطة، يثق بالحنّاوي، ولكنَّ هذا الأخير لا يثق به ما يكفي لمجاراته في كلامٍ لا يُقال، عادة، بلا مواربة أو تحفّظ شديد.

هناك لغة ملغَّزة، اخترعها الناس للتعليق على ما يجري، أو استعادة أحداث من الماضي. هناك حكايات تتحوَّل إلى كنايات وعِبَر وأمثال تصير لسان حال، وكتابة أدبيَّة تُنشر في الصحف والمجلَّات والكتب تستحدث مذهبًا أدبيًّا ملتويًا يُسمَّى الإسقاط، فيعمُّ ويشمل الشعر والقصَّة والرواية والمسرحيَّة. اسم عَلَمٍ كأبي ذرّ الغفاري يستدعي عند سامعه مقولته الشهيرة: عجبت لامرئ يجوع ولا يخرج شاهرًا سيفه. ثورة الزَّنج تعني تمرُّد القطاعات الشعبيَّة المهمَّشة على أحوالها.. وهكذا. لعلَّ هذا يفسِّر تحوُّل كتاب قديم، منسيٍّ تمامًا، إلى ملهم أدبيٍّ كبير. تصبح مملكة الحيوان تمثيلاً لواقع لا يُسمَّى باسمه بل يتمّ الاحتيال عليه بالحكاية المَثَليَّة.

الناس لا يتحدَّثون. البهائم والطير هي التي تفعل. تستعير من الآدميّ لسانه وحجَّته، اللذين يلجمهما الخوف.

*

الحامية تعلِّم الناس الكتمان، وهذا اسم آخر لمذهب قديم يُدعى التقيّة، ومن بين سكّان الحامية يتميّز الجنوبيُّون بكتمان أشدّ. إنَّه الفضيلة التي لا تعلوها فضيلة أخرى. ويبدو أنَّ الحنَّاوي تدرَّج، طويلاً، في مراتب هذه الفضيلة التي تُرْضَع مع حليب الأمَّهات. فهو من عائلة فقيرة تُقيم في جنوب البلاد، أُرسل في بعثة رسميَّة لدراسة الشريعة في الخارج ولم تكن ما يرغب فيه، فهو يحبّ الأدب وكان يرغب في دراسته، لكنَّ دراسة الشريعة، في منحة حكوميَّة، ستؤمِّن له عملاً مضمونًا في وزارة الشؤون الدينيَّة أو في التعليم الثانوي. وقد عُيِّن، فعلاً، بعد تخرُّجه، مدرِّسًا بمدرسة ثانويَّة في إحدى ضواحي العاصمة الجديدة، التي بدأت ترسم خطًّا فاصلاً، بل فاضحًا، بين الغنى والفقر بعد تصاعد أسعار الأراضي أو ما صار يُسمّى، باصطلاحات أهل الحامية، حُمّى الأرض.

الأعداء الداخليُّون في نظر السلطات، ومن يلتفُّ حولها من الناس، لا يقلّون خطرًا عمّا كان يُسمَّى العدوّ. معروف، بالطبع، أنَّ

هناك هدنة طويلة مستقرَّة مع العدوّ بعد آخر حرب جرت بين الطرفين خسرت فيها الحامية جزءًا من أرضها. حدث ذلك في زمن لم تعشه الأجيال الجديدة، ولكنّها تسمعه من الآباء والأجداد. كلمة العدوّ كانت شائعة في ذلك الوقت. تُسمع في الإذاعة، على منابر المساجد، في طوابير المدارس الصباحيَّة، في أعياد أسلحة الجيش المختلفة، في عناوين الصحف والمجلّات، وقد سمعها يونس، الذي وُلد بعد آخر حرب مع العدوّ، مرارًا، في صالون الخميس، الذي كان يلتئم في بيتهم ويحضره أصحاب والده من المهتمِّين بالخطّ والشعر والتصوُّف والقليل القليل من المهتمِّين بالشأن العامّ. لم يكن العدوّ من شأن الناس، فهو من اختصاص الدولة وأجهزتها، أمَّا الناس فعليهم أن يقفوا خلف الدولة وقائدها الذي تحوَّل كلامه، عندما سُئِل عن تمادي العدوّ في استهانته بالحامية وضرورة الردّ عليه، إلى قول مأثور: نحن نختار زمان الردّ ومكانه. لكنَّ الردَّ الذي توعَّد به الحفيد لم يأت ونسي الناس، بمرور الوقت، أمره. فما حدث بعد تلك الهزيمة كان في نظر السلطات أخطر من الحرب مع العدوّ. إنَّه ذلك التمرُّد المسلَّح الذي وقع في جنوب البلاد. صار ذلك التمرُّد، الذي يُسمَّى أيضًا ثورة، في عهدة الماضي، ولكنَّه ترك أثرًا قويًّا على الحفيد، شخصيًّا، والسلطات، والبلاد، فالجميع يعلم أنَّه ينبغي نسيان ذلك الجرح الغائر، لأنَّه ما كان يجب أن يحصل في المقام الأوَّل. شقُّ عصا الطاعة علنًا، وبالسلاح، على الحفيد وأجهزة الدولة يبدو اليوم كحلم، أو كابوس، حَلِمَت به كائنات قادمة من كوكبٍ آخر، ثم قرَّرت عامَّة الناس، بتواطؤ جماعيّ، نسيانه. محوه من الذاكرة كأنَّه لم يكن:

كيف حصل ذلك التمرُّد، أو الثورة؟ هناك ثلاث أو أربع روايات. رواية الدولة التي تتحدَّث عن تمرّد فوضويّ تخريبيّ محدود

مدعوم من الخارج، ورواية القوى الراديكاليّة في المعارضة التي تعتبره ثورة شعبيّة حدثت في أكثر مناطق الحامية فقرًا وإهمالاً تمّ إجهاضها بتحالف بين نظام الحامية وحلفائه في الخارج، وهناك رواية ثالثة ترى في خلفيّة التمرُّد أبعادًا طائفيّة وإثنيّة رغم الخطاب العلمانيّ المتطرّف، الذي طبع خطابات قوى التمرُّد، لكنَّ رواية رابعة، قد تكون الأصوب، تقول إنّه خليط من كلّ تلك الأسباب المذكورة، وإنّ التاريخ لا يُفهم بأثر رجعيّ ولا يحاكم على هذا الأساس.

قوى المعارضة الراديكاليّة، بما فيها التنظيم الذي ينتمي إليه يونس، تتحدَّث عن ثورة شعبيّة مثّلت ردًا على هزيمة الحامية أمام العدوّ واحتلال جزء من أراضيها. ثورة اعتمدت نظريَّة «البؤرة الثوريّة»، التي عملت بها ثورات ناجحة وفاشلة في أنحاء مختلفة من العالم، مذ هبط بضعة شبّان ملتحين، ومتوتّرين، من مركب متداع على شاطئ مهجور، وساروا، خفية، إلى جبل معمّم بالخضرة والضباب؛ وهناك، بين فلّاحي الجبال وأوكار النسور، أقاموا قلعة ثورتهم التي ستطلق سهامها الناريّة الملوّنة إلى المدن. شيء يشبه الشعرَ، أو يشبه السلاح. الزحف من الريف إلى المدينة. الانطلاق من بؤرة تقف عليها قوى الثورة نحو تحرير سائر البلاد. ساعة التحرير تدّق من أكثر المناطق نأيًا وصمتًا وعزلة، ساعة التاريخ الذي سيصحّح نفسه ويكتب، بلغة المقهورين والمهمَّشين، صفحة جديدة، صفحة حتميّة، لأنَّ العدل حتميٌّ، مثل الشمس التي تشرق كلّ صباح، ولا بدَّ من أن يجيء بيبارقه الحمر. فالأحمر لون العدل ولون الدم ولون الحبّ ولون الثورة! لكنَّ تلك البؤرة لم تتَّسع كثيرًا، فقد ظلَّت محصورة في البقعة النائية، المعزولة عن العالم الخارجيّ، التي انطلقت منها وإن كانت أصداء ما يحدث هناك تتردَّد في العاصمة والمدن الأخرى، تتناقلها

الألسن أو تُسمع أخبارها في الإذاعات الأجنبيَّة.

السهام الملوّنة الموعودة، طويلة المدى،

تساقطت بالقرب من القلعة.

والحتميَّة تأرجحت بترنّحٍ

بين الخيط الأبيض والخيط الأسود للتاريخ.

يبدو أنَّ الخلافات، التي عصفت بين قوى التمرُّد، أو الثورة، سهّلت مهمَّة أجهزة الدولة العسكريَّة والأمنيَّة في القضاء عليها. أفادت سلطات الحامية من لحظة تردّد قاتلة عرفتها مسيرة التمرُّد، التي عانت من ارتباك في الأهداف. لم يتواصل تمدّدُ البورة الثوريَّة. توقّف في محطّته الأولى بعد انقسام معسكر المتمرِّدين إلى جناحين، واحد ينادي بإعلان انفصال الجنوب عن الحامية وإعلانه دولة، كياناً مستقلًّا، وآخر يرى أنَّ الانفصال لن يُكتب له النجاح إلَّا إذا امتدَّت الثورة إلى سائر أجزاء البلاد، وخصوصًا المدن، فثورة من دون مشاركة المدن لا يمكنها أن تسقط نظام الحامية. النظم القويَّة لا تسقط من الأطراف بل من المركز. الحيَّة لا تقتل من ذيلها أو وسطها بل من رأسها. من دون ثورة تطال أرجاء البلاد سيظلّ حتى الانفصال غير قابل للتحقُّق والاستمرار.. هذا التردّد في حسم الخيارات مكّن السلطات من استرداد أنفاسها بعد هزيمتها أمام العدوّ وإعادة تأهيل جيشها والانقضاض على معقل التمرُّد الجنوبيّ، الذي تمكّن من بسط سيطرته شبه الكاملة على بلدات وقرى الجنوب. هنا يمكن أن يدخل دور «المستشار» الأجنبي، الرجل الأقرب إلى أذن الحفيد، ولا يظهر في مناسبة عامَّة ولا تُنشر صوره في الصحف، فإليه ينسب الفضل في تبشيع صورة التمرُّد، أو الثورة، في نظر الرأي العامّ. فقد صُوِّرتْ

اخطاء بعض قوى التمرُّد في الجنوب كنمط عامّ. كقاعدة سلوك للمتمرِّدين. مثل الإفطار علناً في رمضان. اختلاط ذكور التمرُّد بنساء (قليلات العدد أصلاً)، اقتناص جنود ذاهبين في إجازات إلى ذويهم وقتلهم، إهانة رموز دينيَّة ووطنيَّة. انتشرت أخبار كثيرة في العاصمة والمدن عن قيام المتمرِّدين، أو الثوَّار، بركل مصاحف بأقدامهم، باقتحام مساجد والتبوُّل فيها، بعلاقات جنسيَّة مفتوحة بين الرجال والنساء وما إلى ذلك من انتهاك لحدود مرعيَّة في نظر عامَّة الناس. قضت القوَّات الحكوميَّة، بقسوة، على التمرُّد، الذي استمرَّ بضع سنين، بمساعدة قوَّات خارجيَّة حليفة. هذه النقطة الأخيرة محلّ إجماع بين قوى التمرُّد المنهارة وأنصارها في الداخل والخارج. فهناك من تحدَّث عن قوَّات كوماندز أجنبيَّة، شاهدها الجنوبيُّون بالعين المجرَّدة وسمعوا رطانة لسانها، قادت هجوم القوَّات الحكوميَّة على معاقل المتمرِّدين، وهناك من أكَّد قيام طائرات حربيَّة، لم تكن تصعد أو تهبط في مطارات البلاد، بقصف مواقع التمرُّد من دون تفريق بين المدنيِّين والمقاتلين. التمرُّد أُخمدت نيرانه التي كان يتصاعد لهبها من الجنوب وأُسدل، على ما حدث، ستار سميك أسود، وسادت البلاد فترة من القمع والخوف والصمت لم تعرفها في تاريخها. قتل ما يقارب خمسة آلاف إلى سبعة آلاف من الطرفين، ثمَّة من يقول عشرة آلاف، لا أحد يعرف العدد بالضبط، إذ لا توجد إحصائيَّة حقيقيَّة. كلّ المكاسب التي حقَّقتها قوى المعارضة، على مدار عمر الحامية، تبدَّدت بعد إعلان الأحكام العرفيَّة التي لم ترفع مذ ذاك. أُوقفت صحف ومجلَّات عن الصدور. أُغلقت جمعيَّات ونواد. حُلَّ مجلس الشورى الأعلى (المعيَّن أصلاً). حتى أسماء الأشهر التي وقعت فيها الصدامات الدامية بين قوَّات الحكومة والمتمرِّدين صار الكتَّاب والصحافيُّون يتفادون ذكرها،

وإن اضطرُّوا إلى ذلك عليهم أن يمسحوا عنها أيّ ترسُّبٍ، أيّة دلالة، تشير إلى غير ما تعني بالضبط. الشيء الوحيد الذي نتج عن إخماد التمرُّد، أو الثورة، هو تعيين بعض قادتها في مناصب حكوميّة رفيعة وتحوّلهم إلى أبواق أعلى صوتًا من سلالة مؤسّسي نظام الحامية، وهرب الغالبيّة العظمى من قيادات وكوادر التمرُّد، أو الثورة، إلى بلدان مناوئة لنظام الحامية.

*

ميل الحنَّاوي، الذي جاء به يونس إلى الشلَّة الموسَّعة، للظلّ والتعفُّف وتفادي التصدُّر والبروز لم يكن يفسَّر على هذا النحو عند جميع أفراد شلَّة يونس، فبوسع محمود فيضي، صديق يونس ورفيقه في «التنظيم»، المسمَّى اختصارًا بين أصدقائه: أبو طويلة بسبب طوله المفرط، أن يقول إنَّ ميل الحنَّاوي إلى الظلّ وعدم الظهور «قِصَر ذيل»، فللظهور، بحسب رأيه، استعداد داخليّ خاصّ، والحنَّاوي لا يملك هذا الاستعداد فيعوِّضه بالتعفُّف والنأي عمَّا لا يستطيع الحصول عليه، أمَّا الكتمان فيمكن أن يستبدله، بحسب رأيه، بالباطنيَّة التي تميِّز الجنوبيِّين عمومًا بسبب ضعف انتمائهم إلى البلاد، أو ربَّما بسبب تكوينهم المذهبيّ الخاصّ. «صاحبك الباطني» هكذا كان أبو طويلة يقول ليونس عندما تأتي سيرة الحنّاوي، الذي لم يستلطفه ولا كان الحنَّاوي يفعل. ولطالما اختلفا على تقييمه. ولذلك أسباب كثيرة، منها، مثلاً، أنَّ أبو طويلة يغار من كلّ شخص يملك شيئًا لا يملكه هو. والحنَّاوي يملك كثيرًا من الخصال لا يملكها أبو طويلة، أبرزها

ثقافته الواسعة وموهبته الشعريَّة غير القابلة للشكّ. قد لا تكون الغيرة كلمة مناسبة لوصف مشاعر أبو طويلة تلك، ومن المؤكّد أنّه لا يقبلها باعتبارها كلمة رخوة، مضلّلة، وغير جذريَّة. كلمة لا تليق به. الأمر يتعلّق بشيء آخر. إنَّه الحسد. وله في ذلك نظرة خاصَّة. الحسد «المبدع» بحسب وصفه. ذلك الاستنفار، التامّ، للدواخل، الذي يدفع المكنونات إلى التحرُّك والاحتشاد. الطاقة السحريَّة الخلَّاقة. النفخ على جمر الأعماق كي يظلّ متّقدًا، متوهِّجًا، مانحًا أقصى درجة حرارة مختزنة فيه. هذا هو رأي أبو طويلة في الحسد، وتلك هي كلماته، تقريبًا، بالحرف. وكان ذلك الوصف الشعريّ المتأجِّج للحسد يذهل يونس، فيتساءل: كيف يتحوَّل شعور سلبيّ، ضيّق، ممرور، إلى خصلة ممتدحة، بل إلى طاقة خلَّاقة؟ وبالنظر إلى سجلِّه الاختلاسيّ، كان يشكُّ في أن يكون قد ابتدع، بنفسه، هذا الفهم العجيب للحسد. لا بدَّ من أنَّه قرأه في كتاب، أو سمعه من شخص ما، غير أنَّه يبدو على لسانه، ككلِّ اختلاساته الكلاميَّة الأخرى، من ابتداعه، من حواضر ذهنه ولسانه. ولكنْ يبدو أنَّ عدم قدرة أبو طويلة على استلطاف الحنَّاوي، أو حتى كرهه له، لا تتعلَّق بقربه من يونس ولا بثقافته وشِعره، على الأقلّ ليس على نحو مباشر، بل بقناعته الأكيدة أنَّه حاول مراودة هالة، صديقته ثم خطيبته، عن نفسها. أقسم له أبو طويلة بشرفه إنَّ ما يقوله صحيح، لكنَّ يونس شكَّ في قَسَم رفيقه:

لم يكن كلام أبو طويلة عن مراودة الحنَّاوي خطيبته هالة مُختلَقًا تمامًا، يعني أنَّ فيه بعض الصحَّة، ليس صادقًا ولكنَّه ليس كاذبًا، فالأمر لا يتعلَّق بمراودة ولا بمفاتحة، بل بلطفٍ، يُبديه تجاهها، بيد أنَّه لم يقل لها مرَّةً أنَّها خسارة بهذا المدَّعي، والمليوكر في كلّ شيء. كان يضمر ذلك، وشيء كهذا، حتى لو أُضْمِر وحُبِس في الداخل سيظهر، أو يمكن

الشعور به، على نحو أو آخر، وهذا ما شعرت به هالة التي فكّرت، للحظة على الأقلّ، لو أنّها تعرّفت إلى الحنّاوي قبل تعرّفها إلى أبو طويلة. حدث ذلك للحظة، ولكنّها كانت كافية لتستقرّ في نقطة عميقة في داخلها، ومن هناك أطلقت أشعّتها البنفسجيّة، أو تحت الحمراء، أو أيّ شيء من هذا القبيل.. ففي الحنّاوي معظم الخصال التي تحبّها في الرجل، فضلاً عن جاذبيّته الناتجة من تعفّفه وتعاليه عن الصغائر. شعر أبو طويلة بذلك من جملة إشارات لا تفوت واحدًا شكّاكًا، أصلاً، مثله، وواحدًا يعرف أنّه أقلّ من الحنّاوي، وواحدًا على قناعة بأنّ النساء يغريهنّ الرجل الذي يصعب الوصول إليه، مثلما تغري الرجال المرأة صعبة المنال، وما قاله ليونس عن مراودة الحنّاوي هالة، وأنسم بشرفه عليه، كان شعوره هو، وليس كلام هالة، أو حتى تلميحاتها من قريب أو بعيد. فشكوك أبو طويلة، إذا أردنا أن نمدّها على استقامتها، طالت يونس نفسه بسبب معرفته بهالة قبله، وانعدام الحواجز بينهما في الحديث الذي يتخلّله ضحك عميق وسعيد لا يخلو من تلامس الأيدي والتربيت على الأكتاف. فإذا كان أبو طويلة قد شكّ في يونس نفسه ونبّه هالة إلى ضرورة وضع مسافة بينها وبينه، فكيف لا يشكّ في الحنّاوي الذي لا ينزل له من حلق؟

ولكنّ إعجاب الحنّاوي المضمر بهالة ليس هو، فقط، ما يخفى على يونس من حياة الشخص الذي شاطره السكن، لنحو عام، ما يجعله أقرب إليه من معظم الذين يلتقيهم في العاصمة التي لا أهل له فيها ولا ذكريات، وربّما لا أقارب، إذ إنّ الحنّاوي لم يأتِ على ذكرهم، فهذه ليست مدينته الأولى كما هو حال بقيّة شلّة يونس التي انضمّ إليها، أو بالأحرى هي التي ضمّته إليها. يونس لا يعرف أيّ شيء عن حياة الحنّاوي الخاصّة، لم يَرَ معه صديقة، ولم يتحدّث عن واحدة. الشيء الوحيد الذي لمّح إليه في هذا الخصوص كان علاقات

طفوليّة في بلدته النائية في الجنوب النائي؛ ويذكر يونس أنّه سمع منه اسم فتاة تُدعى حياة، في ليلة دارت بهما كؤوس الشراب وتفلّتت من الأعماق بعض المكنونات، خاصّة من طرف الحنّاوي الذي لم يدخل، رغم كؤوس الشراب، في تفاصيل، مثلما لم يخبر يونس أنّ عمّه كان من كوادر التمرُّد الجنوبي، أو الثورة، وقُتل في واحدة من معارك التمرُّد، واضطرّ والده إلى التبرّؤ من أخيه تحت ضغط الترهيب. فكلّ ما يعرفه يونس عن الحنّاوي أنّه درس الشريعة في منحة حكوميّة في إحدى الدول المجاورة التي تقدّم للحامية منحًا كهذه فقط، وليس لأيّ نوع آخر من الدراسات، وهذا تعرفه سلطات الحامية وتعرف الغرض منه، فترسل إليهم الذين ينتمون إلى فئة مذهبيّة مختلفة، أو من يصعب أن يتأثّروا بالغرض الخفيّ من مكارم هذه المنح، وكان الحنّاوي من المبتعثين إلى تلك الدولة. . وأهمّ ما يعرفه يونس، ويهمّه، أنّ صديقه شاعر قبل كلّ شيء، وأنّه اضطرّ إلى قبول منحة الشريعة، وكان يودّ دراسة الأدب، لأنّها كانت النافذة الوحيدة المتاحة له للدراسة والالتحاق بوظيفة لمساعدة ذويه، ولم يُخفِ عنه أوضاع أهله الماديّة الصعبة، لكنّه لم يقل له إنّ حياة، تلك الشذرة التي طارت من صندوق أعماقه المغلق، هي حبّ حياته. ولم يقل له إنّه تعرّف إليها عندما كانت في الحادية عشرة من العمر، وإنّها كانت سمراء، ذات شعر جعديّ أسود، داكن كليل الجنوب، وعينين شهلاوين يعتريهما القلق، تبدو متعبة دائمًا، ولها رائحة أعشاب يصعب تحديدها. ولم يقل له أنّها من بنات النازحين الذين استقرّ قسم منهم في قريته بعد إخماد التمرُّد، أو الثورة، وتدمير قرى وبلدات عديدة في محيطهم، وإنّه كان يكبرها بعامين، وكانا يلعبان، معًا، تحت شجرة تين برّيّ ضخمة في نهاية أرض أهله، وغالبًا ما كانت ترتدي الفستان الأزرق نفسه الذي لا يخلو من خروق رتقتها، جيّدًا، يدا والدتها المدبّرة. ولم يقل له أنّ

وجهها المذعور صار يسكنه، بقوّة، ولا يطيق صبرًا حتى يلتقي بها مرّة أخرى تحت شجرة التين البرّيّ الضخمة، التي شهدت ولادة هذا الشغف الطازج الذي لم يعرفه من قبل. ولم يقل له إنّه كان صعبًا أن تتوافر على وقت للعب بسبب انهماكها في العمل مع أمّها، وأخواتها الأصغر في كلّ شيء: الاهتمام بالأبقار التي جاؤوا بها من بلدتهم، الحلب، الجلي، إعداد الطعام.. فالأطفال في عمرها، عمره، كانوا يرغمون على الانخراط في مشاغل البيت كلّ بحسب جنسه وعمره. فاللعب، وهو من اختراعات المدينة المتبطّرة، لا يعرفه أبناء المناطق البدويّة والفلّاحيّة النائية، ولكن حياة كانت تتمكّن، رغم ذلك، من تدبُّر وقت، ولو سريع، للقاء، بأنفاس مبهورة وعينين قلقتين وخلَّين محمرّين تحت شجرة التين البرّي الضخمة، بعيدًا، قليلاً، عن أعين أهلها وأهل إبراهيم. ولم يقل له إنّه كان، حينها، لا يزال قصير القامة وذا ملامح طفوليّة ما يجمله، في نظر أهله وأهلها، بعيدًا عن الشبهات، وإنّه بقي، حتى أواخر المراهقة، أقصر من معظم رفاقه في البلدة والمدرسة. ولم يقل له إنَّ حياة كانت تميل، بقوّة، إليه، ونمتثل له عندما يلمس جسدها، أو يقترب من عنقها، فيشمُّ رائحة عرق حامض خفيفة، ولكنّها كانت تتمنّع عندما تتوغّل يديه تحت فستانها، ثم تستجيب مغمضة عينيها. ولم يقل له إنّها كانت تستسلم له كعصفور مرتعش، مستسلمة لنشوة، أم خائفة، أم مستسلمة فحسب ليد أقوى؟ ولم يقل له إنَّ هناك متحفًا خاصًّا في ذاكرته بما تبقّى من تلك اللقاءات الخائفة تحت شجرة التين البرّي الضخمة: ارتجاف جسدها النحيف الهشّ، احمرار تفّاحة الخدَّين، أنفاسها المتسارعة، إغماضة عينيها على صور لم يعرفها. ولم يقل له إنَّ هناك، أيضًا، روائح سكنت ذاكرته إلى الأبد، لِعُبِّها وعنقها رائحة عرق خفيفة تخالطها رائحة لبن وعلف. ولم يقل له إنَّ حياة عادت مع ذويها إلى بلدتها بعدما رُمِّمت

بيوتهم، وأُعيد تأهيل مرافق البلدة مرَّة أخرى لمحو آثار التمرُّد، وإنَّه مشى بجانب القافلة الصغيرة التي ضمَّت عائلتها وعائلات نازحين آخرين، حتى خرجت من البلدة، وإنَّه لازم شجرة التين البرِّي الضخمة لفترة طويلة، يسترجع تحتها صور لقاءاته بحياة. ولم يقل له إن كان هذا هو الحبّ الذي يتحدَّثون عنه، فهو يحبّها إلى حدٍّ يتمنَّى معه أن يلتصق بها إلى الأبد، أن لا ينفصلا إلى الأبد، أن يعيشا بجسد واحد وقلب واحد ورئة واحدة، وأن يأكلا ويشربا بفم واحد إلى الأبد، لكنْ لا شيء يبقى إلى الأبد. فهي لم تعد موجودة، واللقاء بها لم يعد ممكنًا كما كانت عندما أقام أهلها قرابة عام في بلدتهم. ولم يقل له إنَّهما عادا للقاء بعد التحاقهما بالمدرسة الثانويَّة المقسومة إلى بنين وبنات في مركز إقليم الجنوب، ولم يكن يفصل بين المدرستين سوى سور إسمنتيّ، وإنَّه التحق بهذه المدرسة أوّلاً لأنَّه يكبرها بعامين، ثم لحقته، وإنَّها تغيَّرت عمَّا كانته وهي نازحة في بلدتهم، وإنَّه كان قد رآها مرَّات قليلة بعد عودة أهلها إلى ديارهم، وأرسل أكثر من رسالة بيد قريبة له متزوِّجة من رجل في بلدتها، وإنَّها صارت أطول، أجمل، أكثر تكوّرًا وامتلاء، وإنَّ مشاعرهما عادت إلى الالتهاب أكثر في مركز الإقليم، البعيد عن ذويهما حيث صار اللقاء متاحًا، ولم يمرّ يوم واحد وهما بعيدان عن بعضهما بعضًا منذ عادت تيَّارات الحبّ تضرب قلبيهما. ولم يقل له إنَّها ستُصاب بداء خبيث، وإنَّهم سيذهبون بها إلى العاصمة، وسيذهب هو، أيضًا، لكي يكون قريبًا من المستشفى، الذي تعالج فيه، وإنَّه لم يتمكَّن من رؤيتها إلَّا من بعيد، لأنَّ أهلها كانوا يتناوبون السهر بجانب سريرها، وإنَّهم لن يتقبَّلوا فكرة أنَّ شابًّا ليس من المحرَّمين عليها جاء لزيارتها حتى لو كان هذا الشابّ هو إبراهيم الحنَّاوي، الذي عرفوه طفلاً عندما نزحوا إلى قريتهم، ولكنَّه صار شابًّا بشاربٍ، وهذا غير مقبول في عرفهم. ولم يقل له إنَّ ما لا تصدِّق

حدوثه هنا في العاصمة يحدث هناك في الجنوب النائي. . ولم يقل له إنَّه كان في فصل الدراسة الثانويَّة الأخير عندما لفظت أنفاسها في مستشفى حكومي يفوح برائحة المطهِّرات وله سمعة تقول إنَّ داخله مفقود والخارج منه مولود، وإنَّ هذا لا يعني أنَّها ماتت بسبب سوء العناية الطبيَّة ولا أيّ شيء من هذا القبيل، ولكنَّها ماتت لأنَّها ماتت، وإنَّ الموت غدر، لأنَّك لا تتوقَّعه، ولأنَّه يتفوَّق عليك بغموضه، واستعصائه على الفهم، وانعدام منطقه، خصوصًا في حالة فتاة مقبلة على خطط الحياة التي رسماها بالأزرق الفاتح مثل سماء الجنوب.
وأخيرًا. . أخيرًا لم يقل له إنَّه بكى كما لم يبكِ في حياته، بل أنفق حصَّته كلّها من البكاء ولم يُبق منها دمعة واحدة، وإنَّ منحة دراسة الشريعة خارج البلاد، التي لم يردها لأنَّه يريد أن يدرس الأدب، جاءت في وقتها، فهو كان يحتاج إلى الابتعاد عن الهواء نفسه، الذي كانت تتنفَّسه، والسماء التي كانت تتطلَّع إليها والجبال المسنَّنة، الوعرة، ذات النسور المحلِّقة، التي كانت المنظر اليوميّ لحياتهم في الجنوب. . وإنَّه التحق بالفصيل الجنوبيّ في الخارج كأنَّه يعاقب نفسه ويعاقب النظام الذي قتل عمَّه وأجبر والده على التبرُّؤ من أخيه، ويعاقب حياة على تركها إيَّاه هكذا فجأة من دون سابق إنذار، فعمل كهذا سيجلب عليه العقاب عاجلاً أو آجلاً، وهو صار مستعدًّا، بكلّ كيانه، لتلقِّيه، لأنَّه لم يستطع أن يفعل شيئًا يُذكر لحياة ولا لأبيه، الذي سيظلّ يحمل إلى الأبد ذُلَّ تبرُّئه من أخيه، وقبوله برشوة صغيرة بالمقابل: إرسال ابنه في منحة دراسيَّة إلى الخارج.

*

نهض الحنَّاوي باكرًا وأعدَّ قهوته بأقلّ قدر من الضجَّة كي لا يوقظ يونس، الذي كان مرهقًا ومرتبكًا كما لم يره من قبل، لكنَّ يونس شمَّ رائحة القهوة، في غرفته القديمة، فصحا. لطالما سحبته هذه الرائحة من سابع نومة بلا أدنى تذمُّر أو اعتراض، هذه الرائحة المشبعة بحبِّ الهال، المرتبطة، أينما شمَّها، بأمِّه. غسل وجهه ونظَّف أسنانه *تنظيف الأسنان عنده عمل مقدَّس، بل يشبه الإدمان، فهو يفعل ذلك مرارًا في اليوم الواحد، خصوصًا، عندما يكون منزعجًا، كأنَّه يتخلَّص بذلك ممَّا يزعجه، ممَّا يترك طعمًا مزعجًا في فمه وليس بالضرورة طعامًا أو شرابًا*. كان هناك بعض الوقت قبل أن ينطلق الحنَّاوي إلى عمله. سكب فنجانًا من القهوة ليونس الذي تراخى بجانبه على طرف الصوفا في الصالون المستطيل استطالة الشقَّة نفسها، ثم أخبره أنَّه قلَّب كتاب «نجمة لمساء آخر» ووجده استمرارًا، في معظمه، لكتاب «نبيٌّ يقاسمني شقَّتي». قال أيضًا إنَّ شاعرهما المفضَّل يستثمر الأجواء نفسها التي طبعت كتابه السابق، فوافقه يونس، الذي أنعشته رائحة

القهوة وفتحت مسامّ الكلام لديه، على تواصل بعض أجواء الكتاب السابق، لكنَّه أبدى فهمًا للأمر فاجأ الحنَّاوي **المعتدّ بمعرفته للشعر في وجوهه المتملّصة** عندما قال إنَّ كتابًا واحدًا قد لا يكون كافيًا لاستثمار جوّ محدّد، ممَّا يجعل الشاعر يعود إلى توسيع مناطق لم يولها أهمّيّة من قبل، لكنَّ الأمر لا يندرج، في كلّ الأحوال، في خانة التكرار، لأنَّ التكرار مستحيل في الفنّ مثل استحالته في الحياة، وضرب مثل النهر الواحد الذي لا نسبح فيه مرَّتين. قال الحنَّاوي، الذي سدَّد يونس إلى مرماه كرةً لم يتوقَّعها، إنَّه سيعود لقراءة الكتاب، في تمهّل، ثم يتناقشان فيه بجدّيَّة أكثر. طبطب على حقيبته الجلديَّة السوداء وهو ينهض للذهاب إلى عمله تاركًا يونس يغادر على مهل.

*

لم يكن يونس أقلَّ توجّسًا، عند خروجه من البناية، عمَّا كانه في الليلة الماضية. صحيح أنَّه نجح في المهمَّة التي كُلِّفَ بها. أوصل الرسالة إلى القيادة في الخارج وعاد برسالة منها إلى الداخل في إحدى فردتيْ حذائه، اجتاز الحدود ونقط المراقبة وتملَّص من مطاردة أحد رجال الأمن الوطنيّ، قام بمهمَّة خطرة لم يعلم بها أحد سوى مَنْ كلَّفه بها، وكتم خبرها عن أقرب الناس إليه، رأى عاصمة البلاد التي تحدَّرت منها عائلته قبل نحو قرن. لقد جرت الأمور، تقريبًا، كما خُطِّط لها حتى الآن، ولكنَّ ذلك النجاح لن يكون تامًّا ما لم يصل إلى البيت الآمن ويسلِّم الرسالة. عليه، الآن، أن يعرف القلق والتوجُّس واحتمال اعتراضه من قبل رجال الأمن الوطني، وليس لهؤلاء، كما هو معروف، هيئة محدَّدة. قد يكونون رجالاً في منتصف العمر، موظَّفين مبكرين إلى عملهم، طلَّابًا، باعة خضر أو حليب، موزِّعي جرائد.. أو متسوِّلين.

مرَّ بالقرب من ملعب مرتجل لكرة القدم، أو ما كان ملعبًا مرتجلاً

للهوس الوطنيّ الذي اسمه كرة القدم. إنّه، في الأصل، فسحة أرض لم تُشغل. كانت هناك حكايات متناقضة عمَّن يملك هذه الأرض التي تُرِكت أشبه ما تكون بمكبٍّ للنفايات بالقرب من حيّ جابر. راحت بيوت الحيّ العشوائيّ، الذي أنعموا عليه بتسمية حيّ «جابر عثرات الكرام»، بسبب وجود بيت حكوميّ للعجزة فيه حمل هذا الاسم نفسه، تكبر وتتلاصق، ورقعة الأرض التي لها صاحب غامض، قيل إنَّه تاجر أسلحة، وقيل مخدِّرات، تقترب. وقبل أن يتمَّ تنظيفها من النفايات وتسييجها بالأسلاك الشائكة تمهيدًا لإقامة مصنع لمنتجات الألبان عليها، كانت معقل عقلة الأصبع، زعيم عصابة حيّ جابر، التي يتفادى الآباء والأمهات شرورها على أولادهم، فيطلبون منهم عدم التورُّط معهم، في مواجهة، حتى لو اعتدى أفرادها عليهم، لأنَّهم يعلمون أنَّ أبناءهم لن يخرجوا من المواجهة سالمين. يونس هو الذي سمّى حسن فيَّاض بـ «عقلة الأصبع». وهذه ليست تسمية سارية بين أفراد عصابته، والمعجبين بكرهه للمدارس والمدرِّسين من الأولاد.. فهؤلاء يسمُّونه الزعيم. أمّا عقلة الأصبع، التسمية التي ربَّما لم يلفظها أحد أمام حسن فيَّاض، فهي مأخوذة من القصَّة الشهيرة التي تحمل الاسم نفسه. ولكنْ، على عكس عقلة أصبع الرواية، فإنَّ حسن فيّاض كان قويًا، شرِّيرًا، مطرودًا من كلّ المدارس. وعندما يطرده والده من البيت، وكان هذا يحدث كثيرًا، يلجأ إلى النوم في الجوامع، فإن طُردَ منها نام في عربات القطار القديمة المشطوبة من الخدمة، والمركونة في الفناء الخلفيّ لمحطَّة القطارات المركزيَّة.

«الذي لا يخاف لا يُخوِّف»! مثلٌ سمعه يونس من جدَّته، وهو يعني، كما حاولتْ توضيحه لحفيدها الشغوف بأمثالها وحكاياتها، أنَّ الخوف شعور مشترك. حتى الذي يُخيف يَخاف. هناك من تُخِيفه

وهناك من تَخَافُه، ولكنّ الذي تخافُ منه يخافُ، هو، أيضًا، من شيءٍ ما، أحد ما. من جدَّته، أيضًا، فهم أنَّ الخوف في داخلنا وليس في الخارج، وأنَّ الرجل هو الذي لا يُظْهِرُ خوفه للآخرين.

كان يمكن أن لا يصل يونس إلى هذه الأحياء، وأن لا يكون على تماسّ مع أناسها لولا قوّة الدفع الغامضة التي تحرّك قدميه. كما أنَّ ملازمته مكتب والده في وسط البلد، جعلته يحتكُّ بفئة ممَّن كانوا يُطردون من مدرسة إلى أخرى بسبب سوء سلوكهم، ويتسكّعون بين المقاهي ودور سينما الدرجة الثالثة. وضعته قدماه الطائرتان، أو الجنّيُّ الذي يسكنه، بحسب تعبير أخيه سند، في مواجهة مع أجساد تطير وأخرى تزحف وثالثة تُقعي على مداخل أزقَّة لا يعرف كيف يدخل إليها، أو يخرج منها، إلَّا الذين صنعوا تلك المتاهة الإسمنتيَّة المرتجلة:

عادت إلى يونس ذكرى المواجهة الفاصلة في طفولته، التي صنعت نقلة في نظرة الأولاد إليه. كانت أقدام يونس وأصحابه تجرّهم إلى أماكن خارج مناطق «نفوذهم»، منها ملعب كرة القدم المرتجل هذا. في عصر أحد أيّام الخريف، وكانت المدارس قد فتحت أبوابها مجدَّدًا، ذهب يونس، بعد انتهاء الدوام المدرسيّ، بصحبة أبو طويلة وخلف للعب بكرة قدم جديدة اشتراها الأصدقاء الثلاثة من مصروفهم. كانوا فرحين بها. وأرادوا أن يجرّبوها. ولكن كان هناك من يتربَّص باللين يأتون إلى اللعب في الملعب، أو يمرُّون بمحاذاته. ذلك هو عقلة الأصبع الأقصر قامة من يونس وأبو طويلة وخلف، لكنَّه قادر على نزالهم والتغلُّب عليهم، بسبب قدرته على الأذى بلا رادع، وتلقّي الأذى بلا خوف. كان اسم عقلة الأصبع، الذي يتمترس، مع أعضاء عصابته، في ملعب كرة القدم المرتجل، يثير الرعب بين الأولاد. كتلة

من العضل والعصب. رأس حليق على الصفر حيث تلوح ندب وجراح. له عينان تحدّقان، في هدفه، لساعةٍ من الوقت دون أن يرفّ لهما رمش. كان ذائع الصيت في استخدام السكّين وتدخينه على الملأ، واتّخاذه طفلاً وسيمًا كخليلة له. يمكن لعقلة الأصبع أن يظهر، فجأة، في غير مكان. لكنّه يفضّل طرق المدارس التي فُصل منها جميعًا، ولهذا يكره المدارس والتلاميذ وذويهم، ويوجّه نحوهم عنفه الخام. أمّا من يأتي إلى هذه المنطقة تحديدًا فقد دخل عرينه الشخصيّ. فهذا معقله. وإلى هنا يعود بعد كلّ جولة في السوق التجاري ومحيطه يحفّ به أفراد عصابته.

رأى يونسَ، الذي كان يقذف كرة القدم الجلديّة بين يديه، فناداه من بعيد. التفت الأصدقاء الثلاثة إلى بعضهم بعضًا، وقرّروا، من دون كلام، تجاهل ندائه، وراحوا يتقاذفون الكرة في ما بينهم. أرسل لهم عقلة الأصبع أحد معاونيه لأخذ كرة القدم، المنفوخة حديثًا. التقط يونس الكرة من الأرض وقرّبها من صدره. حاول معاون عقلة الأصبع انتزاعها، فلم يستطع. تشبّث بها يونس وسط تحفُّز صديقيه. يبدو أنّ مشهد تمنّع يونس قد استفزّ عقلة الأصبع.. فجاء راكضًا.

أعطني الكرة.

لماذا؟

لأنّي أريدها.

ولكنّها لنا.

هي الآن لي.

لن تأخذها.

هكذا إذن؟

تطلّع يونس إلى أبو طويلة وخلف. بدا أنهما على وشك الانسحاب. شعر عقلة الأصبع، الذي كان يحيط به اثنان من عصابته، بأنَّ الأولاد سيفرُّون. فهجم على يونس، الذي كان يمسك الكرة بيديه الاثنتين ويشدّها إلى صدره، فلم يستطع انتزاعها. ضحك، كما لو أنَّ مقاومة يونس العابرة سلّته بعض الشيء، ثم استجمع قوّته وانتزع الكرة منه. حاول يونس أن يستردّها. مرّر عقلة الأصبع الكرة لأحد أعضاء عصابته، وأمسك يد يونس اليمنى وطواها. كان يونس يعرف، استمراراً لمَثَل جدّته، أنَّ عقلة الأصبع يريده أن يصرخ. يتألّم. يبدو خائفاً. ولكنّه لم ير شيئاً. كان جامد الملامح كتمثال. طوى يد يونس أكثر، وقال:

لا توجعك؟

كلّا.

تريد أن تبدو قوياً أمام جماعتك؟

نريد أخذ كرتنا ونغادر.

دعني أَرَ كيف ستفعل ذلك.

أرخى عقلة الأصبع يد يونس ثم سدَّد قبضته إلى صدره، وضربه بقوّة، فهجم عليه يونس والتحم به. لم يستطع، بسبب تشبّث يونس به، أن يوجّه له ضربة ثانية. حاول، بكلِّ قوّته، أن يتخلّص من يَدَي يونس اللتين تطوّقانه، غير أنَّه لم يستطع. رفسه بقدميه ولكن من دون جدوى، ثم راح ينطُّ وينفض جسده كما لو أنَّه يريد التخلُّص من حشرة كبيرة علقت بجسمه. أخيراً رماه على الأرض. لم يتمكّن أبو طويلة وخلف من مساعدة يونس، لأنَّ أفراد العصابة حالوا بينهما والاقتراب من «أرض المعركة»، فظلّا يكزّان على أسنانهما من بعيد.

اتركني.

ليس قبل أن أعلّمك درسًا لن تنساه طول عمرك.

عندها انهال عقلة الأصبع، أو حسن فيّاض، أو الزعيم، ضربًا بقدميه على جسد يونس، الذي تكوّر كطابةٍ، حاميًا رأسه بذراعَيْه ومقرّبًا ركْبتَيْه منهما. كمن يلفظ لهبًا من فمه، صرخ عقلة الأصبع: أنت تتحدّاني يا كلب! كان همّ يونس حماية رأسه من رفساته، التي كان يوجّهها، في غِلٍّ، إلى أنحاء جسده المتكوّر. وقبل أن يفرغ من درسه الذي يريد ليونس أن يتذكّره طوال عمره، قال له: تسبّني في قلبك يا جبان؟

ذهل يونس. فكيف عرف عقلة الأصبع سيل الشتائم التي كان يوجّهها له في سرّه!

لاحقًا، قال عقلة الأصبع إنَّ مواجهة يونس له كانت «مشرّفة». أعجبه أنَّ يونس لم يشكه لأهله، ولا للشرطة، أنَّه لم يستعطفه. هكذا صار عقلة الأصبع صديقًا ليونس، ويكنُّ له الاحترام بسبب المواهب التي اكتشفها فيه، وليس أقلّها قصُّ الحكايات التي كان زعيم العصابة شغوفًا جدًّا بها، خصوصًا حكايات الفروسيّة واللصوص الشرفاء، الذين يسرقون الأغنياء ويساعدون الفقراء، وكان يطلب من يونس أن يقصَّ عليه بعضها، ويستمع إليها كما لو كان طفلاً تُقرأ عليه حكاية ما قبل النوم.

*

رأى يونس هاتفًا عموميًّا مقابل مخفر شرطة الحيّ. فكَّر أنَّه قد لا يكون مراقبًا نظرًا لموقعه. اتَّصل بالرجل، الذي كان ينتظره منذ البارحة ولم يغمض له جفن حتى اللحظة التي طمأنه فيها بسلامة وصوله. أخبره يونس أنَّه قادم إليه، فلا داعي للقلق.

هو الذي كان قلقًا جدًّا. فهناك احتمال، في أيَّة لحظة، أن يخسر الرحلة كلّها، بما فيها من مغامرة وانتظار وامتحان صبر وأعصاب وقدرة على مواجهة الاحتمالات غير المخطَّط لها وحلّها.. لقد فعل كلّ ذلك، ولم يكن يشعر بالقلق الذي يشعر به الآن.. فكَّر أنَّ ذلك يشبه الجرح عندما يبرد. لحظتها يشعر المرء بالألم. الخوف يتضاعف عندما يقترب المرء من هدفه. وهدف يونس على بعد نصف ساعة، أو أقلّ، ولكنَّه على بُعد دهر ممَّا هي عليه ساعته الداخليَّة.

مرَّ، في طريقه إلى البيت الآمن، ببعض شوارع ليلة الطراد المتشعِّبة. كان الوقت ضحًى. أصوات الباعة والمتسوّقين في المنطقة

التجاريَّة، كعادتها، عالية ومتداخلة، خصوصًا في الشارع الرئيسي المؤدّي إلى ساحة الحافلات الدوليَّة. روائح المقالي تختلط بروائح خبز وبهارات وماء زهر وشاي وعفونة طالعة من المجاري. الحرارة التي راحت تشتدّ وتضْلي الأشياء تضاعف من قوّة روائح متناقضة تستوطن، إلى الأبد، هذه المنطقة من قلب العاصمة. إنّها الروائح نفسها التي تُعيد إليه صورًا من طفولة متمرِّدة ومراهقة مطبوعة ببحث عن شيء غامض لم يعرف له كُنهًا.

قد يكون رغبات الجسد التي دبَّت فيه فجأة،

قد يكون الكلمات التي طفقت تلحُّ وتتسنّن،

وقد يكون شيئًا آخر.

لو سُئل عن ذلك الشيء الغامض الذي كان يبرق في سهوب روحه المراهقة، لقال إنَّه هذا الذي يفعله الآن. إنَّه هذا المزيج من الخطر والحبّ والكلمات، الذي يستولي على كيانه في كتلة واحدة متراصّة لا ينفصل فيها مكوِّن عن آخر. هذه الخفَّة التي تجعله يمشي ويمشي ويسابق الزمن ويحلّق عاليًا ليضمّ العالم، الذي ينبض فيه قلب صغير من أجله، وعينان سوداوان تلتمعان فرحًا برؤيته، وشَعر رابض كماعز على جبل جلعاد ينتظر أن يشمَّ عبيره الربيعيّ النشوان. لم يسأله أحد، بالطبع، ولم يفكِّر في ذلك.

كانت الأغاني المؤلَّفة، خصِّيصًا، في مناسبة اليوبيل الفضّيّ لتنصيب الحفيد التي تصدح من سيَّارت الأجرة والبسطات والمقاهي وشرفات البيوت المطلّة على المنطقة التجاريَّة، تنافس أغاني طرب ودروس دينيَّة لبعض الدعاة الذين يحظون برعاية الدولة ودعمها. مزيج مشوَّش من الديني والدنيوي. حمَّى الاحتفال القادم بخمس وعشرين

سنة من تربُّع زعيم البلاد على عرشه، الذي لا ينازعه عليه أحد، تسري في أوصال المدينة كدورة دمويَّة مرتجلة. اليافطات الكبيرة التي تحمل صوره، في أزياء وهيئات مختلفة، مرفوعة فوق المباني والمؤسَّسات والمحالّ التجاريَّة، بعضها يحتلّ جدرانًا بأكملها: القائد. الأب. الزعيم المفدّى. الابن البارّ للوطن يرفع يده. يلوّح. يقف بين جنوده. يصلِّي. يقطف عنقودًا من العنب. يمتطي فرسًا. يمسّد شعر طفل. يحمل فأسًا. يصوِّب مسدَّسًا. لقطات عرف يونس بعض مصوِّريها الماهرين، وخطوط رأى قسمًا منها يُخطُّ في مكتب والده، الأجود والأرصن في كلماتها خطّته يد أبيه، مثل بيت الشعر، الذي قال يونس لوالده، ساخرًا، عندما رآه يعكف على كتابته بالثلث الجليّ: هل سيفهمه صاحبك؟

تمرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمى هزيمةً...

من بين الأغاني، التي تصدح في هذه المناسبة، ميَّز أغنية من كلمات شاعر الحامية، خالد رستم، كانت قد نشرتها صحف البلاد ومجلّاتها قبل أن تعهد بها دائرة المصنَّفات الفنِّيَّة إلى مغنٍّ صاعدٍ يثير شَعره السبطيُّ الأسود وصدره المكشوف وتمايله في الغناء شبقَ الراشدات قبل المراهقات. اعترف يونس، الذي تسلَّلت إليه الأغنية، بقوّتها كلمات ولحنًا وغناء. لو لم تكن الأغنية عن الحفيد لأمكن لها، كما فكَّر، أن تدخل السجلّ الذهبيّ للغناء الجميل. اللعنة، إنَّها أغنية قويَّة، قال في نفسه، ثم فكَّر أنَّ الحفيد لن يصمَّ أذنيه وهو يسمعها كما يفعل مع تلك الأغاني الريفيَّة المصطنعة التي يمقتها، حسبما سمع من أبيه، بل يقرف منها. فارتباط اسمه بهذا الغناء الركيك المبتذل جعله يعتقد، أكثر من مرَّة، أنَّها مؤامرة محاكة ضدَّه وليست أغانيَ في تمجيد حكمه الرشيد. كيف يمكن أن يكون اسمي مرتبطًا بهذه التفاهات التي

يعدّونها فلكلورًا؟ إنَّهم يضحكون عليّ!

أمر، مرَّةً، وقد طفح به الكيل من تزلُّف المتزلِّفين ونفاقهم، بإيقاف الأغاني والأوبريتات التي تصله أصداؤها في مكتبه في وسط البلد، *يذهب إليه متنكِّرًا، على طريقة خلفاء قدامى، بين حين وآخر*، ومعاقبة شعرائها وملحِّنيها. . كما أمر بالتوقُّف عن لصق صوره على أيّ حائط، أو عمود كهرباء، على سيَّارت الأجرة، المحالّ التجاريَّة، البنوك، البقاليّات، الكراجات، عربات الباعة الجائلين. ولم يمضِ وقت طويل على هذا القرار حتى أقنعه المكتب الفنّي التابع لديوانه بضرورة عودة الأغاني والصور لكي لا يفسِّر المثقَّفون والعامَّة إيقافها بأنَّه تنازل، سيطالبون بعد ذلك بالمزيد. قالوا له: هؤلاء نماريد سيطمعون فيك ولن يفهموا قصدك النبيل، وربَّما اعتبروه ضعفًا. ننصح بالمزيد من الأغاني والأوبريتات والصور. حضرتك ينبغي أن تكون في كلّ مكان، في كلّ وقت. فهذا جزء من سلطتك الخفيَّة التي ينبغي أن تتسلَّل، من دون أن يعوا ذلك، إلى عيونهم وآذانهم وأدمغتهم. الصور والتماثيل والكلمات، كما أكَّدت تجارب كثيرة في العالم، هي التي تحكم، فسيادتك غير قادر على التواجد في كلّ مكان وأينما ينظر رعاياك، ولكنَّ صورك والتماثيل والأغاني المكرَّسة لك تستطيع.

لتفادي رؤية أشخاص يعرفونه، أو مفاجأة غير محسوبة، وهذه محتملة جدًّا في وسط المدينة، قرَّر يونس أن يستقلَّ سيَّارة أجرة إلى البيت الآمن. كان مزاجه قد بدأ يتحسَّن رغم توجّسه. فلن يطول الوقت حتى يلتحق برلى في ناكوجا آباد. إنَّها هناك بشعرها الرابض كماعزٍ على جبل جلعاد، بأعطافها التي تتفوَّح برائحة مسكٍ، فكَّر **براحة الحلقوم**، حتى وهي تنهض من النوم. إنَّها هناك وهو ذاهب إليها، بعد إنهاء آخر شوط في مهمَّته، ولن يؤخّره أيُّ شيء. لن يطول

الأمر، فكَّر، وقال في نفسه: أنا قادم.

انتابه شعور جنسيّ قويّ وذاكرته تستعيد رائحة عبيرها المتصاعد من جسدها ذاته، لا العطور ولا مزيلات روائح العرق وما شابه، بل عبق جسدها الذي يتسلَّل إلى أنفه، عندما يضمّها، من قبّة ثوبها. تلك رائحة أعشاب ظلالها النديّة التي يميّزها أنفه من بين ألف رائحة.

*

يقع البيت الآمن في حيّ الياسمين. هذا لا يعني أنّ الحيّ الذي تسكنه عائلات من الطبقة الوسطى، الآخذة في الانحدار، مشهور بالياسمين. إنّه مجرّد اسم جميل مثل أسماء أحياء عدّة قد لا يكون لها نصيب من أسمائها: حيّ النسيم، حيّ التضامن، حيّ الشعلة، ***وهذا يرمز إلى المسيرة التي يقودها الحفيد***، حيّ جابر عثرات الكرام، ***أحد ألقاب الحفيد***، حيّ الوفاء ***للقائد، طبعًا***. الاسم، هنا، وربّما في غير مكان، أقوى من الواقع. يحتمل أن يكون للاسم، في البداية، نصيب من الواقع، غير أنّه يصبح، بمرور الوقت، هو الواقع ولا شيء سواه. أهل الحامية الماكرون يطلقون أسماء أخرى على أحيائهم وشوارعهم غير تلك المكتوبة على اللافتات وفي السجلّات الرسميّة، أسماء من واقع حالها أو مستمدّة من الجهات التي تقع فيها: فحيّ الشعلة يُدعى الحيّ الشمالي، حيّ التضامن يُدعى حيّ المطحنة، ***توجد فيه أكبر مطحنة للحبوب***، حيّ جابر عثرات الكرام يسمُّونه اختصارًا حيّ جابر، حيّ الوفاء يُسمّى حيّ المسلخ، لأنّه كان يضمّ مسلخ اللحوم المركزيّ

قبل أن يُنقل إلى خارج العاصمة، وهكذا. إنّه شكل من أشكال المقاومة المخاتلة، كما تقول أدبيّات القوى المعارضة التي تعمل جاهدة على أن تتّخذ هذه المقاومة المخاتلة شكلاً واضحًا، مستقيمًا، وعلنيًا، بدل التلطّي وراء المكر والخنوع الظاهريّ، والمجازات المهلهلة والمسْكنة المصطنعة.

رأى يونس من نافذة سيّارة الأجرة التي خرجت، بصعوبة، من زحام المنطقة التجاريّة، أبو طويلة يغذُّ الخطى في الاتّجاه المعاكس. فكّر أنّ صديقه ورفيقه في طريقه إلى مقهى الزنبقة السوداء، فالمقهى الذي يقع عند مدخل «السوق المسقوف» هو في الاتّجاه الذي تذرعه ساقا صديقه الطويلتان اللتان تحملان جسدًا يمور بطاقة داخليّة قادرة على جرّ جبل. أحسَّ يونس، لحظتها، بعاطفة قويّة تجاه صديقه ذي الساقين الطويلتين اللتين تجرّان جسدًا ونَفْسًا لا يعرفان الاستسلام. فكّر أنّه لا بدَّ أن يكون في حيص بيص حيال غيابه. فأزعج ما يزعجه أن لا يفهم ما يجري حوله، وخصوصًا عندما يتعلّق الأمر بيونس. لا يرتاح إلّا حين يعرف. خمّن يونس أنَّ أبو طويلة يأمل، لا بدَّ، أن يلتقيه هناك. إنّه المكان الذي يلتقي فيه يونس، وبضعة أصدقاء آخرين، في وقت كهذا في أيّام العطل، وعصرًا في أيّام الدوام الرسميّ؛ أمّا ليلاً، فإنَّ المكان المفضّل لهم هو بار الاسترخاء الذي يسمّيه بعضهم، تندُّرًا، الاستخراء بسبب رداءة مشروباته وعفونة روائحه وترهُّل أرتيستاته، ولا حاجة إلى القول إنَّ التسمية مجرَّد ترجمة مباشرة وركيكة لكلمة أجنبيّة.

أبو طويلة، الطالب في السنة الثالثة في كلّيّة السياسة والاقتصاد بالجامعة الوطنيّة، في عطلة صيفيّة. وهذا وقت مناسب لكي يلتقي يونس الذي يرابط هناك في عطله الإجباريّة بين طردٍ من عمل وآخر.

فقد عمل صحافيًا في جريدة الأمّة، التي أُغلقت لنشرها خبرًا عن احتمال خصخصة المستشفى الوطنيّ وبيع أرضه المشجّرة إلى شركة أجنبيّة ستقوم بتأهليه كمستشفى من فئة الخمس نجوم وتشييد منتجعات صحّيّة فاخرة على أرضه الحرجيّة التي تحتلّ ربوة بأسرها. تحدَّثت الصحيفة عن شائعة. احتمال. ولم تؤكِّد شيئًا، لكنَّ تلك الشائعة انتشرت بين الناس كالنار في الهشيم. فهذا المستشفى الأكبر في البلاد، الأقدم أيضًا، وهناك حاجة ماسَّة إلى وجوده بالنسبة لعدد كبير من السكّان، فضلاً عن كونه مَعْلَمًا وطنيًّا نوستالجيًا لآخرين. إنَّها الصفقة التي سأل عنها الأمين العام يونس، في لقائه المرتجف أمامه، فأكّد له صحَّتها، ورجَّح أن يكون المستشار الأجنبيّ هو الذي أوصى الحفيد بالتراجع عنها بعدما كانت أوراقها جاهزة للتوقيع على مكتبه، فقد التقط فريقه ذبذبات غضب مكتوم تسري بين الناس، الذين لم يصحوا بعد من صدمة بيع المجمَّع المركزيّ، الذي يضمّ معظم الدوائر الحكوميَّة الضروريَّة لمصالح المواطنين اليوميَّة، إلى خليط من المستمرين المحلّيِّين والخارجيِّين.

وبما أنَّ الأسرار، التي تنتمي إلى هذا النوع، تُصنَّع في فابْرِيكَة الشائعات النشطة، أو تتسرَّب من بين الجدران الأربعة التي تدور داخلها، فقد سرت شائعة قويَّة بين الناس تقول إنَّ أموال تلك الصفقة الضخمة لم تدخل خزينة الدولة، بل ذهبت إلى جيوب الحفيد وعائلته، وبعض أفراد بطانته، والوسطاء الذين دبَّروا الصفقة مع الكونسورتيوم المهجَّن من المستثمرين، الذين أنشأوا مُركَّبًا تجاريًا على أحدث طراز مكانه.

أُغلقت جريدة الأمَّة رغم تأكيدها، في نهاية الخبر، أنَّ الأب القائد لن يقبل ببيع مَعْلَمٍ وطنيّ كبير لرأس المال الجشع وترك أبنائه بلا

علاج أو دواء.. فعاد يونس إلى المرابطة، من جديد، في مقهى الزنبقة السوداء، ولكنْ بشعور عميق بالإحباط، هذه المرَّة، لأنَّه، هذه المرَّة، متزوِّج حديثًا ولا يرغب في أن يكون عالة على ذويه. بعد فترة قصيرة من البطالة، التحق يونس، بوساطة صديقٍ لوالده في المكتبة الوطنيَّة التي لا يزال، نظريًّا، يعمل فيها، بقسم المخطوطات،التي هي أبعد ما تكون عن اهتمامه. المخطوطات بالنسبة إليه، في لحظته الفائرة هذه، شيء ميِّت، لا حياة فيه.

كان سيل التهاني في ذكرى اليوبيل الفضِّيّ للحفيد يتوالى في راديو سيَّارة الأجرة: جمعيَّة المحراث الوطنيّ الزراعيَّة، مدارس الراعي الصالح، شركة الوطن للمياه المعدنيَّة، رجل الأعمال الفلاني يهنِّئ القائد بذكرى استلامه الأمانة، عائلات الجنوب تجدِّد البيعة لرمز وحدة البلاد، اتِّحاد مزارعي الحبوب يضرعون إلى الله بأن يُبقي علينا الأمن والأمان، اللذين بسطهما القائد على ربوع البلاد. كانت هناك، أيضًا، أخبار عن وفود زارت الحفيد لتهنئته شخصيًّا بذكرى يوبيله الفضِّيّ. لفت سمع يونس زيارة وفد الهيئة التنفيذيَّة لجمعيَّة الهدى والإصلاح. فكَّر في صديقه أبو طويلة، الذي كان عضوًا في كشَّافة الجمعيّة، وشديد التعصُّب لأفكارها وبرامجها الدينيَّة، التي ترمي إلى إصلاح المجتمع قبل إصلاح الدولة، لأنَّ إصلاح المجتمع يؤدِّي أوتوماتيكيًّا، برأيها، إلى صلاح الدولة. وكان نظام الحفيد، ومن قبله نظام والده، يدعمان هذه الجمعيّة في مواجهة الجماعات الملحدة، ذات الأفكار المستوردة، التي لا همّ لها إلّا الوصول إلى السلطة، كما دأب الإعلام المحلِّي على القول. لكنَّ دعم الجمعيَّة، ذات التأثير الشعبي، لم يكن بلا مقابل، فقد قدَّم لها نظام الحفيد بعض التنازلات، خصوصًا بعد مساندتها إيّاه ضدَّ التمرُّد الجنوبيّ، على

الصعيد الاجتماعيّ والتربويّ مثل موضوع اختلاط الذكور بالإناث، رفع المنسوب الدينيّ في المناهج، الحدّ من رُخص البارات ومحالّ بيع الخمور، وعدم إعطاء أذون عمل لنساء من بلدان معيَّنة يقلّ عمرهنّ عن الأربعين. ومن القوانين التي سُنَّت لإرضاء الجمعيَّة، وجمهورها، قانون خاصّ بالاختلاط يحدِّد بالسنتيمتر المسافة التي ينبغي أن تفصل بين الذكور والإناث، من غير المحارم، في الأماكن العامَّة. صار رجال الشرطة يحملون، إلى جانب هراواتهم ومسدَّساتهم، ميترات معدنيَّة، مثل التي يستخدمها البنّاؤون، يقيسون بها المسافة الفاصلة بين الذكر والأنثى في حال الاشتباه في خرقهما قانون الاختلاط. المسافة المقرَّرة ١٥٠ سم، وهي كافية لئلَّا تتلامس الأيدي والأرجل فوق الطاولات أو تحتها. صار القانون مسخرة الناس، وكاد أن يحوّل رجال الأمن المرهوبين إلى مهرِّجين. لم يُلْغَ القانون رغم النكات والمساخر التي دارت حوله، ولكن اختفت، تدريجيًّا، الميترات المعدنيَّة التي كان رجال الشرطة يحملونها.

ولم يكن غريبًا، والحال، أن يرعى هذه الأرض الحرام، في غياب رجال الشرطة، غرسونات المقاهي والمطاعم الذين كان يغيظهم، أو بعضهم على الأقلّ، هؤلاء الفتيان والفتيات، الذين يقتفون آخر موضة لباس وقصَّة شعر، وتسمح لهم ظروفهم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة بإقامة علاقات، أيًا كان شكلها، والتمتُّع بها في المقاهي أو المطاعم التي يخدمونهم فيها. شيء يشبه الحقد الطبقيّ الذي كان يقرُّه يونس ويراه شعورًا طبيعيًّا رغم وقوعه مرَّةً ضحيَّة له. حدث ذلك في أوج علاقته برلى، بعد فترة طويلة على سَنِّ ذلك القانون الذي لم يكن يعلم يونس بوجوده. كان يظنُّه تشنيعة. تواعدا على اللقاء في مقهى راقٍ في وسط البلد. كانت مقاعد ذلك المقهى الجلديَّة من النوع

الملاصق للحائط، كما لو أنَّها أرائك، مقابلها طاولات وكراسٍ. لم يجلس يونس ورلى متواجهين بل متجاورين. قل متلاصقين. كان المقهى شبه خال. وكان النادلُ شابًا في عمرهما لم يتوقَّف عن مراقبتهما مذ دخلا. لم يعجبه يونس. ففي يونس شيء مستفزّ. ربَّما ثقته الزائدة عن الحدّ بنفسه. ما إن جلسا على ذلك النحو حتى جاء وقال لهما إنَّ عليهما ترك مسافة بينهما. لم يعلِّق يونس. ثم عندما تلامست أيديهما مرَّة أخرى، جاء النادل، الذي لم يتوقَّف عن مراقبتهما، وقال إنَّ هذا محلّ محترم ولا يجوز عمل هذه الأشياء فيه. استُفزّ يونس. قال له ماذا تقصد بهذه الأشياء؟ ردَّ النادل: ما تفعلانه. كاد يونس أن يفقد أعصابه. قام مستعدًا للقتال. هدّأته رلى. عندما هدأ يونس قليلاً، قال للنادل الذي ظلّ متماسكًا: بأيِّ حقٍّ تتدخَّل في حرِّيَّتي الشخصيَّة؟ ردّ النادل: بالقانون. قانون الاختلاط ينصُّ على وجود مسافة بين الذكر والأنثى في الأماكن العامَّة لغير المحارم، ولا أظنّ أنَّ الآنسة أختك. انتهى الأمر بأن غادرا ذلك المقهى. ثم عندما سأل يونس عن حقيقة قانون الاختلاط، قيل له إنَّه حقيقيّ ولكنَّه غير مطبَّق، غير أنَّ بإمكان ندل المقاهي والمطاعم أن يقولوا إنَّكما خدشتما الحياء العامّ، وهذا أيضًا قانون مرعيّ.

ابتسم يونس عندما فكَّر بتلك الحادثة التي كادت أن تنتهي به إلى أحد مخافر الشرطة بتهمة خدش الحياء العامّ، أو كسر قانون الاختلاط، وفكَّر كيف صار صديقه، الذي رآه قبل قليل يمخر الشارع بساقين كأنَّهما مجذافان طويلان، أشرس أعداء جمعيَّته السابقة، والدين أيضًا، أفيون الشعوب، غيبوبة الجهلة، كما يحلو له أن يردِّد في أيَّة مناسبة يجري فيها ذكر الدين والمتديِّنين وليس فقط إخوته السابقين في جمعيَّة الهدى والإصلاح، إلى درجة أنَّ يونس كان يردعه،

أحيانًا، عن الاسترسال، مراعاة للذوق العامّ، ومن يمكن أن يسمع هذا التجديف المجّانيّ. لم ينفق يونس وقتًا طويلاً لجرّ قدم صديقه إلى تنظيمه، فربّما أحسّ أبو طويلة أنّ سلّم الجمعيّة للوصول إلى القمّة طويل وممل، فضلاً عن أنّه لا يُجاري العصر.

كان أبو طويلة قد استطول غياب يونس. فليس من عادته أن يختفي، تمامًا، كلّ هذا الوقت، فاتّصل بذويه في ناكوجا آباد، فقيل له إنّه في مأموريّة لفتح فرع للمكتبة الوطنيّة في كبرى مدن الجنوب لمناسبة اليوبيل الفضّيّ. ففكّر أنّ رفيقه يقوم، على الأرجح، بمهمّة تنظيميّة هناك، ولا يعتم أن يظهر.

كانت أمّ يونس هي التي ردّت على أبو طويلة، وكان الوحيد من بين أصحاب ابنها كلّهم الذي لا ترتاح له. فرغم تغيّر أصحاب يونس، مع تغيّر اهتماماته، ظلّ هذا الصبيّ «المبتلع راديو»، بحسب تعبيرها، الذي تضاعف طوله ما إن وصل مرحلة البلوغ، ملاصقًا لابنها. مِنْ زجّ نفسه في حياة الشوارع، إلى الاهتمام بالصيد والبرّيّة، وصولاً إلى الانشغالات الثقافيّة، تبدّل أصحاب يونس، وبقي أبو طويلة ثابتًا على تلك اللائحة الطويلة من الأسماء والوجوه. التربويّة، أمّ يونس، التي تعرف أنواعًا عديدة من الشبّان والبنات في السنين التي قضتها في التدريس، وتعرف أنّهم يتغيّرون في لحظة معيّنة في حياتهم المتقلّبة، لم تستطع أن تهضم صديق ابنها ورفيقه منذ الطفولة. لا تفسير لديها سوى قولها إنّه لزج. ***تصوّره يونس عندما سمع هذا التعبير من والدته بزّاقًا*** لم يشفع له انتماؤه إلى واحدة من العائلات المؤسّسة للحامية مثلهم، ولا معرفتها بوالدته، وهي سيّدة كريمة مهتمّة بالأعمال الخيريّة، ولطالما اشتركتا في أنشطة على هذا الصعيد. ورغم أنّه ناداها يا أمّي أكثر، ربّما، ممّا فعل ابنها يونس، فإنّ ذلك لم يجعله قريبًا من قلبها. لا

نعرف والدة يونس، التي تظنُّ أنَّ لأبو طويلة تأثيرًا سيئًا على ابنها، أنَّ يونس هو الذي ورَّط أبو طويلة، وليس العكس، في أخطر عمل يمكن أن يقوم به شابٌ في الحامية، أنَّ ابنها هو الشيطان الذي وسوس لصاحبه. لم يكن لوالد يونس رأي مماثل في صديق ابنه هذا. فهما، في نظره، شابَّان متحمِّسان وقد يكونان طائشين، تحرِّكهما حميّة الشباب وتتَّقد في داخلهما رغبات عمرهما وتطرُّفاته. هكذا هو الشباب، في رأيه، رغبات وتطرُّفات وحدود مرسومة بالأبيض والأسود. لكنَّ هذا الرجل النزيه، العادل في قلبه ولسانه، كان يفضّل الحنَّاوي على سائر أصحاب ابنه. ولا غرابة في ذلك، فالحنَّاوي عارف بالدين، مهتمّ بقضايا التراث، ذو اطِّلاع جيِّد على الشعر الصوفيّ الذي يفتن والد يونس. إنَّه خرِّيج كلِّيَّة الشريعة التي تكاد تعطيه أفضليَّة تلقائيَّة عند الغالبيَّة العظمى من الناس. ولولا المسافة التي يحرص عليها الحنَّاوي بين شخصه وتحصيله العلميّ لكانوا نادوه بالشيخ.

ولكن من يعلم الأعماق والنوايا؟

*

أبو طويلة لم يجد يونس في مقهى الزنبقة السوداء، لأنَّ الثاني كان في طريقه إلى مكان آخر، فهناك شيء كالجمر يكوي قدميه، وعليه التخلُّص منه سريعًا، لكنَّه رأى المعلِّم، إحسان الشطِّي، بين شفتيه سيجارته الأبديَّة وعلى محيّاه شعاع رضى داخليّ. سأله عن يونس، فقال له الشطِّي إنَّ الخطَّاط الصغير، الاسم الذي ينادي به يونس مذ كان طفلاً، لم يأت إلى المقهى منذ قرابة أسبوع. لدى أبو طويلة عادة التفرُّس في الناس والأشياء، كمن يمسحهما مسحًا ويخزِّن ما يراه في ذاكرته الفولاذيَّة لكي يستخدمه طازجًا كأنَّه حدث للتوّ. وقع نظره، وهو يمسح المقهى بعينيه المتفرِّستين، على الشاعر، حامد علوان، فتوجَّه إليه وجلس إلى طاولته من دون استئذان، كأنَّه من بقيَّة أصحابه. إنَّه لا يحبّ، في أعماقه، هذا الشاعر الذي يراه فظًّا وذا ضحكة مجلجلة فاضحة، لكنَّه شاعر شهير وهو ينجذب، تلقائيًّا إلى المشاهير وذوي الحيثيَّة في حقولهم، ويرغب، إن استطاع، في صحبتهم. الغريب أنَّه لا يحسد حامد علوان على شهرته، على اسمه الطنَّان في

أوساط المثقَّفين والقرَّاء على السواء. لا تتحرَّك آلة حسده ضدَّه. ربَّما لأنَّه يعرف أنَّ شهرته قائمة على السائد من الكلام والمجاز، ولا يملك، رغم جرأته، مشروعًا تحديثيًّا.. وبهذا لن يكون له مقعد في الصفوف الأولى للمستقبل! هذه نظرة نقديَّة يدين بها أبو طويلة ليونس، وتحديدًا، للحنَّاوي الذي يتقدَّم على يونس في فهمه الشعر، قديمه وحديثه. وقد قفزت جملة يردِّدها يونس، كتعويذة مقدَّسة، إلى ذهن أبو طويلة وهو يجلس إلى طاولة الشاعر الشهير. *على المرء أن يكون حديثًا دائمًا*. وهذه جملة ليست من تأليف يونس ولم يراوغ في نسبتها إلى صاحبها، فهي من الشهرة، على كلّ حال، بحيث يصعب انتحالها.

حامد علوان لم يزجر أبو طويلة كما هو متوقَّع منه. الشاعر الشهير الذي يكره التطفُّل ويخشاه المتطفِّلون، فاجأته حركة أبو طويلة، فتململ في جلسته قليلاً وأشعل سيجارة. لم يكن يفكُّر في قصيدة جديدة، أو يقرأ صحيفة أو كتابًا، مثلما يفعل عادة عندما يأتي إلى المقهى. كان خالي الذهن والمشاغل، على شيء من الضجر، ولا بأس في أن يصرف بعض الوقت في حديث مع أحد قرَّائه، فهو لا يعرف أبو طويلة وإن بدا وجهه مألوفًا لديه. حاول أن يتذكَّر أين رآه ولكنَّه لم يفلح. الغريب أنَّ حامد علوان ذا الضحكة المجلجلة الفاضحة، القادر على تسفيه أعظم الأمور بكلمة واحدة، سرَّه كلام أبو طويلة، فاسترخى في جلسته وراح ينصت إليه. تحدَّث أبو طويلة عن مشروع حامد علوان الشعريّ واستخدامه مجازات جديدة في نقد الوضع العام غير مسبوقة، خصوصًا في قصيدته عن الأسد والثور التي صنع فيها انزياحًا فارقًا عن القصَّة المعروفة، بحيث استقلَّت عن أصلها التراثيّ وأسَّست معنى قائمًا بذاته. بدأ أبو طويلة، الذي شجَّعه إنصات

الشاعر الشهير إليه، بالتحدُّث عن قصَّة الأسد والثور، ثم بيَّن الافتراق الذي قام به حامد علوان عن الموروث، فبدا أنَّ المشكلة ليست في حاشية الأسد ولا في سذاجة عقله، بحيث يستطيع واحد من بنات آوى أن يحرِّضه على الثور الذي أنِس إليه، بل في طبيعة الأسد نفسه. الثور عندك فريسة وهذه هي حقيقته؛ والأسد مفترس وهذه هي طبيعته، ولا تغيِّر النوايا الطيِّبة طبيعةً مجبولةً على الافتراس. وهذا مجاز جريء جدًّا، ليس غامضًا لكي يصعب سبر غوره وفهمه من عامَّة الناس، وليس مكشوفًا في الوقت نفسه فيوقعه في العاديَّة والمباشرة!

معروف عن حامد علوان ملله السريع وضيقه بالذين يثرثرون. لكنَّه أبدى هذه المرَّة سرورًا فاجأ أبو طويلة، بحيث قاطعه أكثر من مرَّة سائلاً عن اسمه.

ذكِّرني باسمك؟

. . .

كأنّي رأيتك هنا من قبل؟

أمَّا مِنْ أين جاء تأويل أبو طويلة لقصيدة حامد علوان عن الثور والأسد، فالبركة في لقاء ضمَّه بيونس والحنَّاوي حيث ناقشوا هذه القصيدة، ورأوا فيها نموذجًا لمذهب «الإسقاط الأدبيّ» المتهالك الذي يتحتَّم على الشعر، والكتابة الأدبيَّة الحديثة، أن تبارحه، لأنَّ ذخيرة الشعر والأدب هي من يوميِّ الحياة ونثرها المبذول، لا من التراث أو الأسطورة اللذين قُتلا استخدامًا، وأنَّ النضال لا يكون فقط في السياسة، بل على الفنون أن تناضل في داخل حقولها أوّلاً، وفي علاقتها بالجمهور. على الفنّ أن يتوازن بين حاجته لأن يكون فنًّا

وفائدته! ولم يغفل يونس، المتشدّد في مواقفه، عن الإشارة إلى أنّ معارضة حامد علوان محسوبة بالبيكار، فعلوان، مثله مثل يونس، يتحذَّر من العائلات المؤسِّسة للكيان، ولكنّه، على عكس يونس وزمرته، يعرف أين ومتى تتوقَّف قصائده الملتهبة عن ملامسة الخطوط الحمر. فهو غالبًا ما يركِّز على قضايا المنطقة ويرفع صوته عاليًا فيها، لكنَّه في القضايا الداخليَّة يتلعثم ويلجأ إلى التراث والإسقاط التاريخيّ على الواقع، بحيث يمكن أن يُفهم النصّ على أكثر من وجه.

لكنْ يُسجَّل لأبو طويلة تلك القفلة البارعة عن طبيعة الثور وطبيعة الأسد. هذه من عنديّاته فعلاً.

*

لم يخلع يونس حذاءه في مدخل البيت الآمن، إذ إنَّه لا يفعل ذلك، عادة، إلَّا في بيوت الناس، وهذا ليس من بيوت الناس. إنَّه أشبه بمكتب سرِّيٍّ تُعقد فيه اجتماعات تنظيميَّة محدودة، يقطنه رفيق عازب يعمل موظَّفًا في بلديَّة العاصمة، وهو ليس البيت الوحيد الذي تُعقد فيه اجتماعات الدوائر الحزبيَّة، ولكنَّه البيت المخصَّص لهذا الغرض في منطقة يونس إن لم تطرأ تعليمات أخرى. هنا لا حاجة بيونس إلى ذلك التدبير المصطنع مع الشخص الذي جوَّف الحذاء ودسَّ فيه الرسالة، فلن يتولَّى مروان، أو أيًّا كان الفاعل، سحب الرسالة التي جاء بها، من وراء ظهره، ووضع رسالة جوابيَّة مكانها كما حدث في مدينة السندباد. لذلك طلب منه مسؤول العمليَّات في الداخل، الذي كان ينتظره على أحرّ من الجمر، أن يخلع حذاءه، بفردتيه، ويعطيه إيَّاه. عولج حذاء الرحلة الخطرة، وكان هناك حذاء جديد ينتظره. هكذا لن يعرف يونس في أيِّ فردة وُضِعت الرسالة. أزعجه هذا التصرُّف، الذي لا يوحي بالثقة، قليلاً، لكنَّه سرعان ما اعتبره

جزءًا من إجراء قياديّ له وجاهته، ونسي الموضوع، فحذاء الرحلة الطويلة، حذاء المهمّة السرّيّة ينبغي أن يُتلف في كلّ حال، ولا معنى لفضوله الطفوليّ في معرفة الفردة التي خُبِّئت فيها الرسالة. إذ إنّ وجود التجويف في إحدى فردتيه دليل على استخدامه في غرض خطير. هذا ما فكّر فيه. على الحذاء الذي ينافسه، على ارتدائه، أخوه سند، أن يختفي من الوجود، فذلك التجويف، المصنوع في إحدى فردتيه، كفيل بإيصال صاحبه إلى الأشغال الشاقّة المؤبّدة في السجن، إن لم يكن إلى حبل المشنقة الذي يتدلّى، صباحات الجمعة، في ساحة الحافلات المركزيّة حاملاً رأسًا بشريًّا يميل إلى جنب، وعلى صدر ذلك الشقيّ خُطّت هذه الآية «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب».

تجاوز يونس في تقريره ذكر استفزازِهِ العسكريّ في مركز الحدود، وخروجه من فندقه، وقد بلغ به الضجر حدّ الاختناق، إلى مكتبة تقع في نهاية الشارع وشرائه ديوانًا جديدًا لشاعره المفضّل. كان عليه أن يصف، بالتفصيل، وقائع الرحلة. ذلك ما طلبه منه مسؤوله. قال له: حاول أن تتذكّر كلّ شيء، مهما كان صغيرًا أو لا يبدو لك مهمًّا. كان يرغب في ذكر نصيحة صاحب المكتبة له بعدم شراء الصحيفة، التي يكتب فيها شاعره المفضّل، وعن مراقبة السلطات لمن يقرأها، ولكنّه لا يستطيع، لأنّه لم يكن عليه أن يفعل ذلك. لقد أثار استغرابه ما أسرَّ له به صاحب المكتبة. إن كان ما قاله صحيحًا، فهذا يعني أنَّ البلاد التي يُقيم فيها الأمين العام، كملاذٍ سياسيّ آمن، لا تختلف عن الحامية في تربيتها للكلمات وتدجينها، وقهرها للناس وتكميم أفواههم. صحيح أنّ المغامرة فتنته رغم خطورتها. ***لم يفكّر في عواقبها، فروحه النطّاطة وجسده المتوثّب كانا يضربان في فضاء آخر.*** لكنّه لم يرتح لفكرة إقامة قادة تنظيمهم في بلاد تسمح للكلمات بأن

تُنشر ثم تراقب من يقرأها وتصطاده. يا له من تدبير شرِّير! هكذا فكَّر.

كان يونس قد لاحظ التجهُّم والتكتُّم على وجوه وألسن من تحدَّث إليهم في مدينة السندباد. لم يكونوا كُثُرًا، ورأى نماذج فاقعة لطقوس عبادة الفرد، تعكسها الصور والتماثيل المنتشرة لزعيم البلاد الذي لم يستطع أن يجد رابطًا مفهومًا بين قسوته ذائعة الصيت، وكسل يديه وهما تحيِّيان جمهورًا مفترضًا. مزيج غريب من الرخاوة، إن لم يكن من الأنوثة والقسوة، بل الجبروت. ولن ينسى، بطبيعة الحال، ذلك النشيج الذي كان يسمعه عند منتصف الليل والأصوات الحلقيَّة الناهرة. تلك الأصوات المفزعة، التي تطارد سكارى يتهدَّجون بغناء حزين يشبه العويل، ثم دربكة الخطى والصرخات. فكَّر يونس، أثناء انتظاره رسول التنظيم، في غرفته في الفندق، أنَّ هذه المدينة حزينة، نخيلها حزين، وجوه أناسها حزينة، موسيقاها حزينة، وليلها ينتهي، كما يتناهى إليه من الشارع، بالعويل الذي يقطِّع نياط القلوب.

بعدما أنهى تقريره، مستلهكًا علبة من سجائر «إسكندر» الوطنيَّة، وعددًا من فناجين القهوة، ودستة من الأوراق، وبعدما ظنَّ أنَّ هذا كلَّ شيء وبمقدوره الذهاب إلى ناكوجا آباد، جاءته المفاجأة التي لم يحسب حسابها، ولا خطرت في باله، حتى تلك اللحظة.

❊

حاول الحنَّاوي طرد صورة يونس من ذهنه، وهو يلقي حصصه المقرَّرة على التلاميذ في مدرسة الاجتهاد الثانويَّة بحيِّ الشعلة، ولكنَّه لم يفلح. فمنذ أن فتح له الباب في الليلة الماضية، ورأى الارتباك والإجهاد باديَيْن على وجهه ويديه، أحسّ أنَّ هناك شيئًا غير عادي في سلوك يونس، وازداد شكُّه عندما أخبره، وهو يضع حقيبته الصغيرة جانبًا ويُخرج منها الديوان الأخير لشاعرهما المفضَّل بزهوٍ طفوليٍّ، أنَّه كان في زيارة لمدينة السندباد. شيء ما ارتعش في داخله عندما سمع يونس يلفظ اسم المدينة. فهو لم يغادر، بحسب علمه، حدود الحامية من قبل، ومن غير المعقول أن يكون ديوان الشعر هذا سببًا لرحلة طويلة شاقَّة. يترك بلده وعائلته ورلى، لكي يقوم بزيارة سياحيَّة أو لإحضار ديوان شعر. لا بدَّ أنَّ هناك سببًا أقوى من ذلك.

الحنَّاوي الذي كان يتفادى الإشارة إلى هويَّة يونس السياسيَّة أثناء أحاديثهما الطويلة، ولم يلفظ اسم تنظيمه مرَّة واحدة أمامه، لا يحتاج إلى الضرب في الرمل كي يعرف تلك الهويَّة، بل واسم التنظيم الذي

ينتمي إليه صديقه. وقد تساءل، في نفسه، أكثر من مرّة: لماذا يعارض شابّ من العائلات المؤسّسة للحامية، مقرَّبة من الحفيد، ميسورة الحال، نظام الحكم على هذا النحو الطائش؟ هل يمثّل المعارضة للإيقاع به؟ يدخل إليه من باب الصداقة والشعر وتمثيل الشجاعة ويستدرجه إلى الفخّ؟ لكنّه يعود ويتساءل، أيضًا، هل يبلغ التمثيل، وتضليل الآخرين، حدَّ تحمُّل وسم صليب مُحمًّى على البطن؟ الشارة الأبديَّة على بطن يونس لاقتنائه كتابًا محظورًا. لم يجد الأمر منطقيًّا، ولكنْ في الحامية كلّ شيء ممكن، كان يُجيب نفسه.

كم مرَّةً فكّر الحنّاوي في علاقته بيونس؟ أكثر من مرَّة، ولكن كان يجد نفسه حيال مشاعر متضاربة. فهو، فعلاً، يحبّ يونس ولكنّه لم يستطع أن يهضم صدق، أو براءة، ألفاظه وسلوكه المتأجّجين بالمعارضة للنظام، فحتى من يعارضون الوضع القائم، ويعرف أنّهم ينتمون إلى قوى سياسيَّة مناهضة لنظام الحامية، لا يسلكون مسلك يونس المتهوّر. لا يفعل ذلك، على الأغلب، سوى شخص مدسوس. ثم إنه فكّر في حمق صاحبه، في فروسيَّته الحمقاء، وكان يرجِّحُ هذا الاعتقاد، أحيانًا، على تمثيله المعارضةَ المعلنة المتهوّرة. فهو بعد كلّ شيء، شابٌّ لم يخبر الحياة جيّدًا، ولم يعرف منها سوى وجهها الناعم، أو ما قرأه في كتب ألهبت روحه وخياله، وهذه ليست الحياة مهما ادّعت الكتب قربها منها.

لكنْ كلّ هذا شيء، وما رآه على يونس في تلك الليلة، شيء آخر. فهو يعرف أنَّ قيادات معارضة للحامية تُقيم في الخارج، من بينها قيادة التنظيم الذي ينتمي إليه يونس. هؤلاء، بالذات، لهم مقرٌّ قيادة في مدينة السندباد، وربَّما كان أمينه العام، الجنوبيّ مثله، يقيم هناك. فهل كان يونس في مهمَّة تنظيميَّة خارج البلاد؟ هل كان يمارس

فروسيَّته المتهوِّرة هناك؟ هذا ما رجَحَ، بقوَّةٍ، في ذهنه. وهذا خَطِير، كرَّر الحنَّاوي في نفسه، خَطِير. إنَّ يونس يتسلَّى بالخَطَر، مثل طفل يلهو بقنبلة لا يقدِّر مدى خطورتها. هذه ليست لعبة يا يونس، إنَّه لعب بالمصائر. لعلَّه يفكِّر أنَّها لعبة عسكر وحراميَّة. فروسيَّة الروايات التي يدأب على قراءتها. يفتنه التشويق والتمرُّد والظهور بين أبناء جيله، لكنَّه لا يعرف إلى ماذا ستنقلب هذه اللعبة. ثم أضاف الحنَّاوي في نفسه وهو في حيرة فعليَّة وارتباك: هذا هو شعوري الحقيقيّ تجاهك يا يونس، وليس شكّي فيك. ولكنِّي عكسك، لا أملك رفاهيَّة هذا اللعب. فأنت ستنهار حتمًا، وتتراجع مع أوَّل تحقيق حقيقيّ يجرى معك.

بعد انتهاء دوام المدرسة، قرَّر الحنَّاوي أن يبحث عن يونس في الأمكنة التي يتردَّد إليها. تملَّكه شعور بضرورة أن يراه ويتحدّث إليه، ليس عن ديوان شاعرهما المفضَّل الذي جلبه من مدينة السندباد بل عن شيء آخر. لا يعرف، بالضبط، ما هو هذا الشيء الآخر، ولكنَّه يتَّصل بسفرته، وربَّما بالمسكوت عنه بينهما. أحسَّ أنَّ يونس قد يكون في حاجة إليه. وربّما هو، أيضًا، في حاجة إلى فتح صندوقه المغلق أمامه. كان على الحنّاوي أن يكتب تقريره الشهريّ لقيادة تنظيمه في الخارج، ولكن ليس لهذا السبب يريد أن يلتقي يونس. عندما اقترنت رغبته في أن يلتقي بيونس في الموعد المقرَّر لكتابة تقريره التنظيميّ، شعر بالانزعاج. طرد الفكرة من رأسه. لكنَّ تلك الفكرة ـ السوسة ظلَّت تدوِّم في رأسه.

الذاكرة الماكرة استرجعت، بلا إرادة منه، نُتَفًا متقافزة من معلومات استقاها من أحاديث يونس إليه، وذكرها في التقارير الدوريَّة التي يرسلها إلى قيادة تنظيمه في الخارج لوضعها في صورة ما يجري

في الحامية من تطوُّرات. من تلك الأخبار، «خطبة الغضب»، التي سمع يونس قصَّتها من والده، الذي سمعها بدوره من أحد موظَّفي ديوان الحفيد، وقد شدَّد الحنَّاوي في تقريره على كونها تمثِّل اتِّساعًا للهوّة بين وجهاء البلاد، الذين يشكِّلون الغطاء الاجتماعيّ للنظام، وبين الحفيد. وطلب من جماعته أن يأخذوا هذا التطوّر في حسبانهم، وأكَّد لهم أنَّ مصدرها «موثوق»!

وحكاية «خطبة الغضب» التي رواها له يونس جرت وقائعها كالتالي:

أثارت التقارير المرفوعة إلى الحفيد من مؤسَّسة الأمن الوطني، عمَّا سمَّته ثرثرات وجهاء البلاد في صالوناتهم، غضب الحفيد، فأمر بجمعهم في ديوانه. كان لوجهاء البلاد حظوة عند الآمر الأب استمرارًا لتقاليد أرساها الآمر المؤسِّس، غير أنَّ الحفيد لم يراع تلك التقاليد تمامًا. كان يعرف أنَّه مضطر إليها، بيد أنَّه فعل ذلك بنفاد صبر، شعر به وجهاء البلاد فعزوا الأمر، في البدء، إلى طبيعته الجافَّة وتشبّعه بأفكار وسلوكيَّات أجنبيَّة مصدرهما تلقِّيه علومه العسكريَّة في الخارج، لكنَّ نفاد صبر الحفيد حيال وجهاء بلاده تحوَّل، بمرور الوقت، إلى صدٍّ عضويٍّ داخليٍّ لم يستطع السيطرة عليه، تمامًا، بحضورهم. ورغم محاولاته التشبّه بأبيه وجدِّه التي كان يحضُّه عليها مستشاروه (كارتدائه العباءة المقصَّبة، ووضعه غطاء الرأس التقليديّ، تقدُّمه صفوف المصلِّين في صلاة الجمعة، تحدُّثه بلهجات المناطق بتعثُّر يثير ضحكًا مكتومًا عند سامعيه) إلَّا أنَّه لم ينجح في تطبيع هذه العلاقة معهم. كان يفعل ذلك كمن يتجرَّع شيئًا مُرًّا. كمن يشمّ رائحة كريهة. وهذا الإحساس، بالضبط، الشيء المُرّ، أو الرائحة الكريهة، كان يصل إليهم.

استغرب وجهاء البلاد طلب استدعائهم للمثول أمام الحفيد في

غير موعدهم الفصليّ الثابت، الذي قرَّره مذ تسلَّم سلطانه، وهذا فارق آخر بين الحفيد وبين أبيه وجدّه، اللذين كانا يلتقيان وجهاء البلاد مرّة في الشهر، للسلام والكلام والتشاور واستلام الجعالات الماليّة أو الهدايا العينيَّة عند انصرافهم.

كان في لهجة مدير مكتب الحفيد بعض الجفاف والاقتضاب، لكنَّهم لم يتوقَّعوا ما كان في انتظارهم. كانت الصالة التي دأبوا على لقائهم به فيها فارغة تمامًا من أيّ أثاث، سوى صور الجدّ والأب والحفيد، ذات الأُطُر الذهبيَّة السميكة المعلَّقة بجانب بعضها بعضًا في صدر الصالة. لكنَّ هذا لم يكن عقاب وجهاء البلاد على ثرثراتهم فقط، بل لم يطلّ عليهم الحفيد إلَّا بعد ساعة من وقوفهم في صالة فارغة ليس فيها كرسيّ واحد أو متكأ من أيّ نوع، أو حتى منفضة سجائر. دخل عليهم «جابر عثرات الكرام» بقامته المعتدلة ووجهه الأصهب، مرتديًا زيَّ المغاوير المُرقَّط، ، يتدلَّى مسدَّس من حزامه العسكريّ الكتَّانيّ، خلفه اثنان من حرسه الشخصيّ طويلا القامة، ومن دون سلام وقف في وسطهم بعدما شكَّلوا، على نحو تلقائيّ، حلقة حوله، وراح، بعينين يطير منهما الشرر، يزأر فيهم. أخبرهم أنَّه يعرف ما يُقال عنه في مجالسهم. قال لهم إنَّهم يحبُّون الثرثرة وهو يكره ذلك، فلا وقت لديه لسماع كلامهم الفارغ. ثم قال إنَّهم يأخذون عليه بُعده عنهم وعن الناس، ولكنَّه ليس بعيدًا عن الناس، فهو يعرف شعبه وبماذا يفكِّر، وما يفكِّر فيه شعبه ليس الذي يفكِّرون هم فيه. صمت قليلاً، ثم رفع نبرته وقال إنَّه جعل لهم قيمة بين الناس ومنع غضبهم عنهم. أمَّا عمَّا يُقال إنَّه يقرِّب الأجانب ويبتعد عن وجهاء البلاد وأعيانها، فحدَّق في الدائرة المحيطة به وهزَّ سبّابة يده اليمنى في وجوههم، وقال بلهجة محليَّة متعثِّرة: ماذا لديكم غير شكاواكم التافهة وطلباتكم التي لا تنتهي؟ تتحدَّثون عن الفساد؟ هل هناك من هم أفسد

منكم؟ من الذي يتستَّر على فسادكم أمام الناس؟ من حال بينكم وبين مثولكم أمام «اللجنة الوطنيَّة العليا لمحاربة الفساد»؟ تعرفون ذلك؟ طبعًا تعرفون، فلا تفتحوا دفاتر لن يكون فتحها في صالحكم.

ويبدو أنَّ الحفيد أراد أن يختتم «خطبة الغضب» على نحو دراماتيكيّ عندما أخبرهم، أخيرًا، أنَّ التطاول عليه بلغ مستوى غير قابل للتحمُّل: تقولون إنَّني أبيع أرض الدولة للمستثمرين الأجانب وألعب القمار وأشرب الخمر مع خاصَّتي، وأتقدَّم صفوف صلاة الجمعة من دون وضوء لأنِّي لا أعرف طقوس الوضوء؟ هل وصلت بكم الثرثرة إلى هذا الحدّ؟ دعوني، إذن، أذكِّركم أنَّني قادر على أن ألقي بكم إلى الشعب لكي يأكل لحمكم نيِّئًا. فاحذروا غضبي مرَّة ثانية، وتذكَّروا أنَّني لست كأبي ولا جدِّي.. والآن.. انصرفوا، لأنِّي لا أستطيع تحمُّل رؤية وجوهكم اللئيمة وَتَذلُّلكم الكاذب.

تذكَّر الحنَّاوي ضحكات يونس عندما روى له هذه الواقعة، وأخبره أنَّ الوجهاء خرجوا يلملمون أطراف أرديتهم، ويتعثَّر بعضهم ببعض وهم يغادرون ديوان الحفيد غير لاوين على شيء، فضحك هو لمشهد الوجهاء الكوميديّ، ثم توقَّف عن الضحك عندما لاحظ أنَّ بعض المارَّة في الشارع ينظرون إليه في ريبة.

كان قد وصل إلى مقهى الزنبقة السوداء الذي التقى فيه يونس أوَّل مرَّة، ولكنَّه لم يجده هناك. كما لم يجد هناك أبو طويلة الذي جاء يسأل عنه المعلِّم الشطِّي في الضحى. حامد علوان، وهو ليس صديقًا ليونس ولا من جيله، ولكنَّه يستلطفه على قلَّة ما يفعل مع أبناء الجيل الجديد من الشعراء، كان قد سأله أيضًا، وبعد الظهر جاء صدبقه خلف، رجل الحرس الوطنيّ على إحدى بوَّابات الحامية، وسأل كذلك. وهذا الأخير يشكِّل، إلى جانب أبو طويلة، أحد أضلاع

المثلّث الذهبيّ لصداقات طفولة يونس الذي لم يهتزّ، رغم تقلُّباته وتغيّر أصحابه انطلاقًا من تغيّر اهتماماته. أصدقاء يونس لم يتغيّروا، فهم كانوا نوعًا من حصن له، وهذا يحتاجه المرء دائمًا. أمَّا الأصحاب والزملاء فيتغيَّرون. فهو لم يعد يرى وحيد، الذي جاءه مرَّة حاملاً أذن قطّ تعبيرًا عن ولائه له. كان يونس قد قال له مازحًا، ذات يوم، لكي تكون منّا نحن عصبة الأشرار ينبغي عليك أن تقدّم طلب انتساب. سأله وحيد: ما هو؟ فقال يونس: قطع أذن قطّ! كاد وحيد أن يقذف معدته عندما أخبره يونس بطلب الانتساب. ذهب. لم يعد مرَّة أخرى إلى يونس إلّا وبيده شيء ملفوف في محرمة ملطّخة بالدم. كما لم يعد محسن، الذي بكاه بحرقة، موجودًا. محسن الذي أراه، مبكرًا جدًّا، هشاشة الحياة، وإمكانيَّة تبدّدها بلمح البصر. وحتى لو بقي على قيد الحياة، فهو لا يعرف إن كان سيكون من أصدقائه أم من أصحابه الذين تباعدت بينه وبينهم الطرق.. لكنْ كلّا، كان محسن سيفرض صداقته بلطفه ومحبَّته ليونس واعتباره مثلاً أعلى له، وكان يونس سيتقبَّل، على الأغلب، هذه الصداقة، ويصبح في حياته مربَّع صداقات متساوي الأضلاع!

قليلة هي الأحداث التي هزَّت يونس، من أعماقه، مثلما هزَّه ما حصل لمحسن.. الموت البعيد لا يبدو موتًا، خاصَّة للصغار الذين لا يعرفونه ولم يمت أحد في سنّهم بعد. ولكن ليس الموت فقط هو الذي هزَّه، بل طريقة الموت، وتلك الزيارة السريعة إلى سرير مستشفى يتمدَّد عليه الموت بكلِّ جلاله المخيف. من تلك العين اليسرى (أو اليمنى) التي تطلّعت إليه من زاوية ضيِّقة، من قزحيَّة تالفة، من حياة تودّع سريعًا، كلّ ما رأت، وهو قليل.

كان محسن في سنّه، ولدًا وحيدًا مُدَلّلاً لأبوين عجوزين يتحدَّران

من أصول محليّة، أنجباه بعد انقطاع الأمل بولد ذكر، يحصل، تقريبًا، على ما يريد قبل أن يطلبه، يعرف نقطة ضعف والديه هذه، فيضغط عليها بالدلال القاسي للولد الوحيد الذي يعرف أنَّ تمنُّع الوالدين، أحيانًا، لا يطول، إذ سرعان ما يبادر أحدهما إلى ردّه، راضيًا، عن حرده المزعوم. كان والده المهندس مشرفًا على سدٍّ مائيٍّ بين جبلين وراء أسوار مركز الحامية، ومن المتردّدين إلى صالون والد يونس في أيَّام الخميس، وكان يقول الشعر بعاميَّة الحامية، وهو شعر جيِّد بحسب رأي والد يونس. كان محسن يقطن مع ذويه في حيِّ النهضة، الذي بنت سلطاتُ الحامية نواته الأولى كإسكان للموظَّفين. لم تجمعه مع يونس مدرسة، ولا حيٌّ سكنيٌّ، ولكنْ من خلال علاقة عائلتيهما. وكان يملك استعدادًا طبيعيًّا كي يكون صديقًا ليونس، بل تابعًا له عن طيبة خاطر، فقد كان يتطلَّع إلى شخص ملهم، فكان يونس. راح يقلِّده في الشعر الطويل والبناطيل ذات الألوان الفاقعة والقمصان المزمومة، فيما كان باقي الأولاد الذين يعرفهم منضبطين، بشلل داخليّ كامل، إلى مشيئة آبائهم ومدارسهم: شعور قصيرة، بناطيل ضيِّقة الـ (كوب)، قمصان ذات ياقات قصيرة، وسيماء كالحة كئيبة.

ثمَّة قاسم مشترك آخر جمع محسن بيونس هو: التدخين. فمنذ لقاءاتهما الأولى، رآه يونس يحتفظ بسجائر في جيب قميصه. ولكنْ عكس يونس الذي كان يبتاع سجائر بالمفرد، بين حين وآخر، تسلَّط محسن على علبة والده، الذي كان يغضُّ طرفه عن لبس ابنه وإهماله دروسه وذهابه إلى السينما، ففعل الأمر نفسه بخصوص علبة سجائره المتناقصة دائمًا. وعندما لم يكن محسن يجد يونس في البيت، كان يعرف أين يجده: تحت شجرة كينا عملاقة في الحديقة العامَّة، يدخِّن ويقرأ رواية من روائع القصص، أو يواصل نقاشًا محتدمًا مع أبو طويلة على طاولة في مقهى الزنبقة السوداء.

محسن قلَّد يونس في أشياء كثيرة إلَّا في طبعه الحادّ وحماسته لما يحبُّه ويؤمن به إلى درجة تسفيه آراء الآخرين عند اللزوم، فقد كان مفقودًا من معدن لدن ولطيف، يحبُّ الموسيقى ويكره التورُّط في نزاعات الأولاد، فلم تؤهِّله تلك النقيصة كي يصبح جزءًا من عصابات الأحياء الشعبيَّة. وبسبب دالّته على أهله، استطاع أن يشتري مسجّلاً وأشرطة لمطربيه ومطرباته المفضَّلين، فصار يحيا في الأغاني أكثر ممَّا يحيا في الواقع، ويعيش حالة حبٍّ دائمة، ويتصرَّف على هذا الأساس.

لم يكن والد محسن عسكريًّا، رغم أنَّ السدَّ المائيَّ تابعٌ لقيادة القوَّات المسلَّحة، تروي منه جنودها، ومزارعها الحيوانيَّة وحقولها الزراعيَّة. كان يرتدي ثيابًا مدنيَّة تميِّزه عن العاملين معه من مرتدي الكاكي. رجل ضئيل الجسم، ذو انحناء خفيف، ووجه مسالم، لا يعكس ضغائن أو حسدًا أو صراعات داخليَّة، بل أعماقًا تخلَّصت من كلّ ما يسمِّم الدم، باستثناء النيكوتين، وجه رجل لا يرغب في أكثر ممَّا لديه، ولا يرى في تقصير ابنه في المدرسة ورسوبه، غير مرَّة، ما يدعو إلى النكد وسوء الطالع. كان يونس وخلف وأبو طويلة يذهبون، أحيانًا، مع محسن على درَّاجاتهم الهوائيَّة إلى مقرّ عمل والده في السدّ. لا بدَّ من أنَّ يونس يتذكَّر أكثر من عصريَّة، مالت فيها الشمس الشرسة إلى الانكسار، فاستمتع بشعور رطب منعش لمجرَّد رؤية مياه السدّ التي تتلألأ تحت الشمس. كان والد محسن يصنع لهما الشاي الأحمر القاني بنفسه، ويقدِّم لهما بسكويتًا أسمر سميكًا خاصًّا بالقوَّات المسلَّحة. لا يتحدَّث كثيرًا، إذ يكتفي بسؤال محسن عن دراسته، فيجيبه ابنه أنَّها جيِّدة، وهي ليست كذلك، أو يسأل يونس عن والده، فيقول له إنَّه بخير. ثم لا شيء بعد ذلك. ولا بدَّ من أنَّ يونس يتذكَّر

المياه المتسرّبة من شقوق في السدّ الإسمنتيّ وقد حفرت لها مجرى أخضرَ بين جبلين يطلّان على الصحراء ووهجها الهائل. أعشاب وطحالب نمت على هذا التسرُّب، الضئيل، المتواصل لمياه السدّ صنعت لنفسها حياة، على شكل خطٍّ أخضر طويل متعرّج، معاكسة لمحيطها. وإلى الأعشاب التي نمت بقوّة الماء العجيبة، كانت هناك بضع شجرات من التين البرّي والصنوبر تحيط بالمكتب الذي يعمل فيه والد محسن، وبضعة موظّفين وعمّال آخرين يبدون في حالة انقطاع تامّ عن العالم.

لم يكن هناك ما يمكن فعله في صحبة والد محسن غير شرب الشاي الحلو، وأكل البسكويت العسكريّ الخشن، وتبادل كلمات قليلة مع الرجل المتوحّد في عزلة سدّه الإسمنتيّ، ولكن ما إن يدير ظهره، لأمر ما، حتى يسطو ابنه على علبة سجائره، ثم يستأذنون منصرفين، فيذهبون، من فورهم، متتبّعين المجرى العشبيّ الأخضر، المفعم برائحة الطّين الرطبة. يدخّنون ويتحدّثون عن علاقاتهم الحقيقيّة، أو المختلَقة، مع البنات، أو يتولّى يونس، كالمعتاد، قصّ ملخّص رواية قرأها، فيسرح محسن بخياله إلى الأمكنة البعيدة التي تجري فيها الأحداث، ويتقمّص على نحو عميق، أكثر من يونس ورفاقه، حياة شخوص القصّة، خصوصًا، عندما تكون عن الحبّ.

كانت تفتنه تلك الحيوات، التي تعيش صراعات وتواجه مصاعب جبّارة، ثم تتغلّب عليها وتنتهي، غالبًا، نهايات سعيدة. كان يحدث أن يحرّف يونس القصّة لتناسب تطلّعه إلى تلك النهايات، أو يرفع درجة عذابات العاشقين، فيرى وجهه يتقلّص، وترتسم عليه علامات شقاء كأنّه هو بطل القصّة، الذي لا يستطيع البوح بمكنون قلبه، أو الذي يواجه صدّ الحبيبة وهجرانها، وليس شخصًا في رواية تجري أحداثها

في القرن التاسع عشر في بلاد باردة وبعيدة!

هكذا جاءه محسن، ذات يوم، لكي يكتب له رسالة حبّ.

قال له: أرجوك أكتب لي رسالة. قال له يونس إنّه مستعدّ شرط أن يعرف من هي المحبوبة. تمنّع محسن. ولم تكن هذه عادته. فقال له يونس: اكتب أنت الرسالة إذن. ولمّا بدا له أنّ يونس مصمّم على معرفة من تكون اضطرّ، أخيراً، إلى الإفصاح عن اسمها. كانت صباح، ابنة حيّ يونس وأخت أحد زملائه في الصفّ، وقد رآها محسن، أكثر من مرّة، أثناء زيارته بيت يونس.

كانت صباح البنت الأجمل في حيّ يونس، الأكثر مرحًا وغواية بريئة، ذات شعر أسود ناعم طويل يتطاير في الهواء وبشرة بيضاء تميل إلى الحمرة، تتصرّف بعفويّة، ولكنْ بثقة العارفة فارقها الجماليّ عن الأخريات. فوجئ بردّ فعل يونس، أو بالأحرى بانعدام ردّ فعله. كان يتوقّع أن يتطاير الشرر من عينيه. فهي أخت أحد أصحابه، وخشي أن يعدّ يونس تصرُّفه معيباً واستغلالاً لعلاقة الصحبة بأخي صباح. لا شيء من ذلك حدث. هدأت أعماقه المضطربة. انتظر يونس تفاصيل يحكيها عن العلاقة. لم تكن هناك تفاصيل، فهو لم يفاتحها بشيء ولا يعرف إن كانت تبادله الشعور نفسه. كلّ ما في الأمر بحلقات طويلة مسهبة من عينيه الذاويتين من الغرام، تمسيد شَعر من بعيد، خفق موجع في قلبه.

هناك مشكلة! قال يونس.

ما هي؟ ردّ محسن.

الدين! قال يونس.

ماذا قلت؟ ردّ محسن بذهول.

أقول لك: الدين، الدين المختلف!

كأنَّ غيوم الدنيا كلّها عبرت في تلك اللحظة عينيْ محسن العاشقتين الحزينتين. تذكَّر أنَّها من دين آخر. وهذا أمر يصعب تذكُّره عندما يقع المرء في الحبِّ، لا يفكِّر في الدين ولا في المنزلة الاجتماعيَّة. القلب الصغير، المراهق، مثل الطير لا يعرف الحدود والأسيجة. وكان العرف السائد في البلاد أنَّ أبناء الدينين الأساسيَّين في الحامية يتبادلان كلّ شيء تقريبًا، يتشاركان في كلّ شيء تقريبًا، باستثناء العلاقات العاطفيَّة والزواج.

لكنَّ الغيوم، التي عبرت عينيْ محسن، في لحظة قنوط كونيّ، سرعان ما انقشعت، صارت السماء زرقاء مبهجة. قال: وماذا يعني ذلك؟

فردّ يونس بخبث: يعني ما في أمل!

كتب يونس الرسالة العتيدة لمحسن. كتبها بإخلاص للرسالة نفسها، للكلمات التي تستولي عليه، أكثر ممَّا هو إخلاص لصاحبه. لكنَّ محسن لم يسلِّم الرسالة التي كانت تحرق يده وجيبه وقلبه إلى صباح. كان يتعلَّل، كلَّما سأله يونس، بعدم وجود الفرصة المناسبة. لم تأت الفرصة المناسبة، ولم تعرف صباح شيئًا، على الأغلب، عن الآمال التي كانت تحيا وتموت في نفس محسن الذي واصل حبّه في الأغاني.

تغيَّرت حياة يونس. كبر. لم يعد يكتب رسائل وقصائد إلى حبيبات أصدقائه، ولم يعد يهتمّ بحكايات الحبّ والغرام. هناك حياة أخرى يحياها وعالم آخر ينشغل بقضاياه وهمومه.

ذات يوم، عاد يونس إلى بيت أهله وسمع الخبر الصاعق: محسن انتحر!

كلّ ما عرفه يونس، من أهله، أنَّه سكب نفطًا على جسده وأشعله بعود كبريت.

لكنَّ محسن لم يمت. نقلوه بحروق هائلة أتت على جزء كبير من جسده إلى المستشفى الوطني، وإلى هناك طار يونس وأبو طويلة وخلف وسالم، فوجدوه ممدَّدًا على السرير، ملفوفًا بالشاش الأبيض، وامّه جالسة إلى جانبه تنتظر حصول معجزة. لم يكن محسن غائبًا عن الوعي، كُلّيًا، فقد لاحظ يونس أنَّ إحدى عينيه تحركت، وأنَّه رآه.

مرَّة أخرى، كان محسن قد وقع في الحبّ، ولكنَّه هذه المرَّة كان حُبًا من طرفين، ويريد الزواج فورًا بمن يحبّ. وحاول أهله إقناعه بأنَّه لا يزال صغيرًا على الزواج، ولكنَّه أصرَّ، فرفضوا، لأوَّل مرَّة ربَّما، طلبًا له؛ وفي شبه غفلة عنهم، أخذ تنكة نفط إلى غرفته وأغلق الباب بالمفتاح وسكب النفط على نفسه وأشعل النار. وبحسب تحليل أبو طويلة الذي سرده، لأعضاء الشلّة، فهو لم يفعل ذلك في غفلة تامَّة عن أهله، فقد أشعرهم بنيَّته الإقدام على عمل حاسم، عمل نهائيّ. لم يكن يريد، فعلاً، الانتحار. كان يرغب في أن يدركه أهله في اللحظة الأخيرة وأن يثنوه عنه، ولكن ليس بدون استجابة لطلبه.

الخطأ القاتل الذي ارتكبه محسن، في تحليل أبو طويلة، كان في إغلاقه الباب بالمفتاح. فلمَّا تعالت صرخاته، بعدما شبّت النار فيه، لم يتمكَّن أهله من فتح الباب، وهو لم يستطع، على ما يبدو، أن يفعل، ولمَّا تمكَّنوا من كسر الباب كانت النيران تلتهم جسده النحيل.

لم يطل الوقت بمحسن. توفِّي متأثرًا بالحروق الهائلة التي طالت كلّ جسده الشابّ. لكنْ ثمَّة من قال إنَّه مات بسبب إهمال طبّي. فلم يول الأطبّاء، بحسب هذا القول، اهتمامًا مناسبًا لولد ارتكب خطيئة الانتحار.

*

تعيَّن على المعلِّم إحسان الشطّي أن يردّد، في ذلك اليوم الطويل، الكلام نفسه للذين جاؤوا يسألون عن يونس. فكَّر أنَّ سؤال ثلاثة أشخاص، في يوم واحد، عن يونس مجرَّد مصادفة. ثم خطر له أنَّ الأمر قد لا يكون كذلك. فبسبب علاقته القديمة، والوطيدة، بأبي يونس تسلَّلت إليه بعض الرؤى والأفكار الصوفيَّة، كالرسائل التي تعبرنا ولا نوليها أهمِّيَّة، الأرقام والحروف ودلالاتهما. فقال في نفسه: ماذا لو كانت تلك علامة، أو رسالة ما؟ ثلاثة أشخاص يسألون تباعًا عن ابن صديقه، الذي طالما ناداه بالخطَّاط الصغير، رغم أنَّه لم يخطّ لوحة في حياته ولا علاقة له بمهنة أبيه؟ رفع المعلِّم الشطّي سمَّاعة الهاتف وأدار رقمين أو ثلاثة من أرقام هاتف بيت صديقه الخطَّاط في ناكوجا آباد، ثم تراجع عندما سمع الحنَّاوي يسأل تيسير، ابن المعلِّم الشطّي وساعده الأيمن في المقهى، عن يونس، فتوجَّه إليهما. لكنَّ الحنَّاوي غادر قبل أن يتمكَّن المعلِّم الشطّي من الدردشة معه كما يفعل عادة. ليست هناك إشارة رابعة في عرف الإشارات. يعني لا وجود

لرسالة ولا من يحزنون في هذه الأسئلة العشوائيّة. بيد أنّه استدرك أنّ أربعة أشخاص يسألون عن شخص، في يوم واحد، أكثر من ثلاثة! أعاد إدارة رقم ناكوجا آباد مرّة أخرى. تجاذب أطراف الحديث مع صديقه الخطّاط. عرف، من دون أن يبدو السؤال عن يونس هدف المكالمة، أنّ «الخطّاط الصغير» في رحلة عمل في جنوب البلاد ولن يلبث أن يعود.

ثمّة علاقة قويّة تربط بين عدنان الخطّاط والمعلّم إحسان الشطّي، الذي يتحدّر من عائلة جنوبيّة استقرّت بالقرب من مركز الحامية مع مجيء الجنرال الأصهب. فهما كانا زميليْ دراسة في أوّل مدرسة متكاملة ضمّت خليطًا تجريبيًا، أريد له أن يكون رائدًا، يجمع أبناء فئات اجتماعيّة ووظيفيّة، ومنابتيّة، مختلفة في باحة واحدة لصهر المؤسّسين والمحلّيين والقبائل التي هجرت الغزو في بوتقة وطنيّة واحدة. بوتقة الوطن. وقد نجحت التجربة إلى حدّ ما، أي إلى اللحظة التي وقع فيها التمرُّد الجنوبيّ الذي رسم فاصلاً، نفسيًا ورسميًا غير معلن، بين فئتين: التي أيّدت التمرُّد الجنوبيّ، وتلك التي تنتمي إلى جماعة المؤسّسين، ذات القاعدة المحلّيّة العريضة. غادر إحسان الشطّي المدرسة في المرحلة التكميليّة ليساعد والده، مؤسّس مقهى الزنبقة السوداء، في عمله، فيما استمرّ صديقه عدنان، والد يونس، في دراسته، ثم رحل، بعد تخرُّجه، إلى مدينة السندباد للتتلْمُذ على يد بهجت الخطّاط، أشهر خطّاطي محيطه وزمنه. القواسم المشتركة بين الرجلين تبدو، للوهلة الأولى، قليلة إن لم تكن معدومة. لكن هذا من الخارج، والخارج، كما دأب والد يونس على القول، لا يعوّل عليه، لأنّ الحقائق والجواهر لا تُعرف من الخارج. فالأرواح، في عرف الخطّاط، جنود مجنّدة، تطوف في ليل العالم وتتشام كما تتشام

الخيل، فما يتعارف منها يأتلف وما يتنافر منها يختلف، بصرف النظر عن المنازل الاجتماعيَّة والمشاغل الحياتيَّة لذوي هذه الأرواح. فهذا التآلف يخترق الحدود والاعتبارات، التي تجعل من الناس أغنياء وفقراء، بيضًا وسودًا، رجالاً ونساء، موظَّفين عموميِّين وأبناء سبيل. وقد ساهم اختيار والد يونس مكتبًا لأعماله التجاريَّة بالقرب من المقهى في توطُّد العلاقة أكثر مع المعلِّم الشطِّي، بعد انقطاع سني الدراسة التي قضاها عدنان الخطَّاط في الخارج، وكثيرًا ما يجد الخطَّاط نفسه في مقهى صديقه بعد فراغه من عمل مكتبه التجاريّ، سواء للاسترخاء قليلاً وشرب فنجان من القهوة، أو للعب دَوْر شطرنج مع رفيق صباه، وعضو صالونه الأسبوعيّ. لكنَّ يونس وأباه نادرًا ما التقيا في المقهى. كان يونس وشلَّته يغادرون إلى مقهى آخر قبل أن تطأه قدما والده. يسمع جرس الإنذار من المعلِّم الشطِّي، ابنه تيسير. هذا لا يعني أن الخطَّاط يجهل بمرابطة ابنه وشلَّته هنا، وفي أمكنة أخرى، بل يعرف أنَّه صار يرتاد ناديًا ليليًّا، غير أنَّه لا يرفع العصا في وجه ابنه الشابّ، يترك للأمّ، للأخ البكر، سند، أن يفعلا ذلك.

من بين مرتادي مقهاه، الذي تصدح في جنباته أغاني الطرب وتسمع على طاولاته رميات أحجار الطاولة والنرد أو أوراق اللعب، كانت شلَّة يونس لها اهتمامات مختلفة عن السواد الأعظم من الروَّاد. كان يحدث أن يجلس المعلِّم الشطِّي إلى طاولتهم، ويطلب المشروبات التي يحتسونها عادة على حسابه، ويستمع إلى نقاشاتهم ويشارك في بعضها أحيانًا. المعلِّم الشطِّي يحبُّ هذه الزمرة الغريبة من الروَّاد، الشبَّان الذين يريدون تغيير الدنيا بجرّة قلم، الذين يروون حكايات أو يقرأون شعرًا، ويحتدّ نقاشهم بعض الأحيان وسط ضجَّة روَّادٍ يهربون إلى المقهى من قسوة الحياة اليوميَّة وضجرها، ومسؤوليَّات العائلة

وطلباتها التي لا تنتهي.

لم يكن أحد من شلّة يونس في المقهى بعدما أنهى المعلّم الشطّي مكالمته مع صديقه عدنان الخطّاط. ولكنَّ صاحب المقهى فكّر في الزمن الذي لا يعرف المرء ماذا يخبّئ له، وأيّة مصائر تنتظر الناس وهم غافلون عنها.. وخطر في باله القول: إنَّ الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا؛ وهذا من كرامات صالون الخميس الذي يحضره بانتظام.

*

في بيت أهل يونس، كانت رلى كأنَّها في بيت أهلها. جميع أفراد العائلة يحبّونها، فهي من هذا النوع الذي ينبغي عليك أن تحبّه ولا شيء غير ذلك. فليس فيها ما لا يحبُّ: وجهها المستدير المشرَّب بحمرة خجل دائمة، *إلَّا في السرير حيث تنقلب نَمِرةً*، غمَّازتاها على وشك إطلاق زوبعيتن، ثم هناك جاذبيَّة ليس مصدرها شكلها الخارجيّ بل تنبع من الداخل. أهل يونس يمكن أن يختصروا رأيهم فيها بالقول إنَّها بنت عائلة. هي ابنة عائلة، بل عائلة مرموقة تعرفها عائلة يونس، لانتساب العائلتين إلى نادي مؤسّسي الحامية، وعلاقة الخطَّاط الجدّ الوطيدة بجدّ رلى، التي لم تنحدر إلى ولديهما. لكنْ في ذاكرة والد يونس واقعة استدعائه من والد رلى إلى مكتبه في مقرّ الحرس الخاصّ، وسؤاله، في لطف، أن يبعد يونس عن ابنته، بعدما علم بأمر العلاقة بينهما، التي لم يجتهدا كثيرًا في إخفائها. بيد أنَّ الأمور تغيَّرت مذ قُتل والدها في المحاولة الفاشلة رقم ١٢ لاغتيال الحفيد. قائد حرسه، والد رلى، هو الذي أصابته الرصاصات بدلاً من رئيسه، الذي

أقام له جنازة عسكريَّة مهيبة، وحرص على أن يتمّ الاهتمام بعائلته بعد رحليه كما لو أنَّه لا يزال في الخدمة. هذا الأمر لا يغيِّر ولا يبدِّل في معاملة عائلة يونس كنّتهم. فهم يحبُّونها بصرف النظر عن أيّ اعتبار آخر لأنَّها تُحَبُّ، ولأنَّها، بالتأكيد، حبيبة يونس وزوجته. رغم صغر سنّها، تميَّزت رلى بدرجة عالية من الذكاء الاجتماعيّ والتعقُّل، يبدوان مستهجَنَيْن لفتاة في سنّها، خصوصًا من حبيب قلبها يونس، الذي سلَّم بهذا التعقّل غير المرغوب وغير المطلوب، واعتبره طبعًا يصعب تغييره، بل لماذا يفعل ذلك طالما أنَّه لا يغيِّر شيئًا في علاقتهما؟ تعقُّلها يوازن تسرّعي وجنوني، كان يقول في نفسه، ليس ضروريًّا أن نكون مجنونين. يكفي واحدٌ. هكذا تبدو رلى، لمن لا يعرف من هي، كأنَّها البنت الثالثة في العائلة، التي تقارب سنّ أخت يونس الصغرى والتي صارت صديقتها.

في الوقت الذي كان يونس غائبًا عن البيت، مدَّعيًا أنَّه في رحلة عمل إلى جنوب البلاد، كانت رلى تتحرَّك في البيت بما يشبه السرنَّمة. كأنَّها تمشي في نومها، أو كأنَّها مخدَّرة. فقد أحسَّت أنَّ يونس يخبِّئ عنها شيئًا. فلم يكن كلامه مقنعًا وهو يتحدَّث إليها عن اضطراره إلى الغياب مدَّة أسبوع عن البيت.

أسبوع؟

ليس كثيرًا!

بل كثير. أسبوع يعني سبعة أيَّام في أربع وعشرين ساعة.

مضطرّ. للأسف.

لماذا لستُ مقتنعة بسبب غيابك؟

لأنَّك ستشتاقين إليَّ، ولن تخفّف هذا الشوقَ أيَّةُ حجّة غياب!

أنا أشتاق إليكَ وأنتَ معي، ولكن ليس هذا هو السبب.

ماذا إذن؟

قل أنت.

لكنّه كما أخبرتك: تأسيس فرع للمكتبة الوطنيّة في الجنوب، أنت تعرفين كيف هو الوضع هناك.

أخشى أن تكون رحلتك لسبب آخر.

مثل ماذا؟

كشف هذا الحوار ذو الكلمات التي تخبّئ أكثر ممّا تظهر، عن توتُّر مكبوت في علاقة الحبّ الخالدة بين يونس ورلى، كما يحبّ يونس أن يصف، سببه حياته الثانية التي تجعله يغيب عن البيت من دون سابق إنذار، التخلُّف عن مواعيد له معها، أو مع أصدقائهما، تلك الأوراق التي يعكف على كتابتها ليلاً بعد أن تأوي إلى النوم، ويسارع إلى إخفائها ما إن تراها. لم تذهب أفكار رلى بعيدًا في تخمين السبب، أي لم تفكّر بوجود امرأة أخرى في حياته، فهذا لا تشكُّ فيه، وإنّما في ما ينخرط فيه من أنشطة معادية للدولة، بحسب تعبيرها، قد تكون أخطر من مجرّد كلماته التي يرميها كالشرر أينما جلس ضدَّ الحفيد ونظامه، شيء أخطر من ذلك يجعلها تنقبض كلّما فكّرت فيه. وقد أسفت في نهاية حوارهما السابق على أنّها قالت ليونس، من دون تفكير مسبق، إنّه سيظلّ ولدًا ولن ينضج. كيف قلت له ذلك؟ فكّرت، في هذه الكلمات مائة مرّة في فترة غيابه عنها، وتمنّت لو أنّ هناك آلة تمحو الكلام بعدما يُقال، الكلام الذي لم يقصده المرء أو الذي قاله في لحظة غضب. ولكنّي قلقة عليه! قالت لنفسها. هي قلقة عليه دائمًا بسبب كراهيّته العميقة للحفيد، وجهره بذلك من دون حذر في بيئة

مؤيِّدة بالكامل، له.. قد تُنْقد حكومته، وقراراتها، ولكن ليس الحفيد، الذي هو في نظر البيئة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها يونس ورلى فوق النقد، وفوق الحكومة. الحكومات تروح وتجيء، ولكنّ الحفيد يبقى. المؤسّسون يبقون. موقف يونس غير المهادن ضدّه يثير حفيظة رلى. فبعد كلّ شيء، كان والدها رجلاً من أوثق رجالاته وعائلته الحاكمة. ولكنَّ هذا الاختلاف التامّ في الموقف من الحفيد ونظامه لم يؤثّر على حبّهما، الذي يسمّيه يونس الخالد. إنّهما يُحبّان بعضهما بعضًا حُبّ المراهقين المستعدّين للتضحية بأنفسهم في سبيل من يحبّون. كم مرّة نشرت صحف الإثارة، الأكثر انتشارًا في البلاد، قصصًا لفتيات وشبّان ألقوا أنفسهم من مبانٍ عالية، ابتلعوا كمّيّة كبيرة من الأدوية، أو شربوا سمًّا لأنّه حِيل بينهم والارتباط بمن يحبُّون؟ كثيرًا. بل إنّ واحدة من هذه الحوادث الفظيعة وقعت بالقرب من يونس: صديقه محسن. كان «التنظيم» يؤوِّل ظاهرة انتحار المراهقين بكونها احتجاجًا غير واعٍ على كبت الحرّيّات العامّة، وانسداد الآفاق أمام شريحة الشباب. لكنّ يونس لم يكن يصدّق ذلك. إنّه يحبُّ رلى ذلك الحبّ، الذي يمكن أن يدفعه إلى عملٍ مماثل. لا حياة له من دونها. هذا ما كان يشعر به في أعماقه.

كانت رلى تحضِّر له، بعد عودته، مفاجأة. عندما فكَّرت بالمفاجأة التي تريد أن يسرع يونس لكي تزفَّها إليه، مرَّرت يدها برفق على بطنها. المفاجأة تكمن هناك، وهذا ما عرفته من طبيبها في آخر زيارة له. لم يكن أحد يعرف. لا أهله ولا أهلها. هي حرصت على ذلك. كانت تنتظر يونس لتبلغه بما يتحرَّك في أحشائها. بيد أنّ هذا الخبر الذي فوجئت هي به، لم يخفّف من قلقها عليه، وما يجعل لهذا القلق وزنًا وثقلاً هو أنّها تقيم اعتبارًا لحدسها. تعتبره بوصلتها الداخليّة

التي نادرًا ما تخطئ. وهذه المرَّة أقلقها كثيرًا حلمٌ، أو كابوسٌ، رأت فيه يونس هائمًا على وجهه في الصحراء. عَطِشٌ. وزائغ البصر. يرى مياهًا تتلألأ أمامه فيركض إليها، ولكنَّها تظلّ تبتعد وهو يركض بقامته الطويلة المترنِّحة إلى أن ابتلعه السراب. صحت من النوم وهي مبلَّلة بالعرق. كان العرق ينحدر من عنقها وينسرب من بين نهديها. وعندما نامت ثانية، عاد الكابوس، ولكنْ بدل الصحراء والسراب، كان هناك جبل عالٍ يقف يونس على إحدى حوافِّه التي تطلُّ على وادٍ عميقٍ، وهناك يدٌ تدفعه في اتِّجاه الهاوية، ولكنَّها كانت تستفيق، مبلَّلة بالعرق، قبل أن يسقط.

*

عندما أخبره مسؤول العمليّات في الداخل عن دوره في هذه العمليّة، ولماذا عليهم الانتقال إلى هذا الطور من العمل، لم يفهم يونس قصده. سمع كلامه ولكنّه لم يستوعبه. هل هذا ما سيقوم به؟ كان يحتاج إلى من يؤكّد له أنّ هذه الكلمات التي سمعها صحيحة، وأنّ هذا، بالضبط، هو الدور الذي ألمح إليه الرفيق هاني في آخر لقاء بينهما في مدينة السندباد.

لا يعرف، في غمرة النبأ المفاجئ، الذي لم يخطر على باله قطّ، كيف ولماذا حضر جدّه وهو يحمل يده اليمنى بيده اليسرى. ينقلها من طرف الكنبة ويضعها في حجره. أو يضعها على طاولة الطعام كأنّها قطعة خشب ويستخدم يده اليسرى. كان يرفع رأسه قليلاً إلى الأعلى، كأنّما ليرى شيئًا لا يبدو للآخرين، الله مثلاً الذي يرفع إليه غضبه الصامت أو شكواه من الفالج الذي أصابه في سنيه الأخيرة، وضرب العضو الذي يتّصل عبره بالعالم، ويحقّق وجوده من خلاله: يده اليمنى. أهو الشعور بالمحنة أم فكرة المحنة نفسها، ما دفع صورة الجدّ إلى ذهن يونس، هنا والآن؟

كان قد عرف جدَّه في سنيه الخمس عشرة الأخيرة، عندما كان لا يزال يقيم في العاصمة قبل انتقاله، مع جدّته، للإقامة في ناكوجا آباد، بعيدًا عن الضجيج وأبواق السيَّارت وعوادمها. فقد ترك الجدّ والجدَّة بيتهما الكبير في العاصمة لابنهما الأصغر، سليم، وزوجته وطفليهما، وابنتهما الوسطى، خديجة، وزوجها وأبنائهما الثلاثة. كان البيت الذي يقع في حيّ الرابية، حيث أقامت عائلة يونس بالقرب من الجدّ والجدَّة، من النوع التقليديّ الذي تنفتح غرفه كلّها على ساحة صغيرة، مبلَّطة، فيها بحرة ماء وأشجار تين ورمَّان وأكثر من دالية عنب على عرائش، وعلى جوانبها أزهار ونباتات في أصص فخَّاريَّة. كان ذلك البيت المفضَّل ليونس. كان جنَّته. ثم صارت ناكوجا آباد التي يطير إليها، مع خلف مرَّة، أو أبو طويلة، أو سالم مرَّة أخرى، كلَّما كانت هناك عطلة مدرسيَّة مكانه المفضَّل، لأنَّ جدَّه وجدَّته يقيمان هناك. لم يكن جدّه، آنذاك، سوى جسد نحيل، صارم، وذكرى بعيدة لخطَّاط كبير.

لم يفكِّر من قبل في محنة جدّه. لماذا أصابت البلوى يده اليمنى تحديدًا؟ كأنَّ في ذلك عقوبة مفصَّلة له خصِّيصًا. ليست يده اليسرى، ليست عينه، ليست لسانه، ليست حاسَّة شمِّه. يده اليمنى التي خطَّ بها كلاسيكيَّات ذائعة الصيت في الحامية، والجوار، هي التي عطبها الشلل. ليست هناك عقوبة أقسى، فكَّر يونس، من شلّ يد رجل اعتاش على الخطّ وعاش من أجله. كان يونس يلتصق بجدِّه عندما يلتقيه. يحبُّ جلسته، وكلامه عن الخطوط وأنواعها. كان يروي له حكايات عن والده، الذي جاء من عاصمة الأمبرطوريَّة الآفلة وشارك مع الجنرال الأصهب في تأسيس الحامية. من بين إخوانه وأخواته، كان هو الأقرب إلى جدِّه، حتى على مستوى الشكل. لم يبك أحد ويرتمي على التراب عندما مات الجدّ كما فعل يونس. لكنَّ محنة جدّه لا رادَّ لها. وليس ما يطلبه منه مسؤوله

كذلك. ليس قدرًا صمّمه إله عنيد لا يفعل شيئًا سوى امتحان مخلوقاته المسكينة. شلل يد جدّه اليمنى لم تنفع معه كلّ محاولات العلاج التي تكفّلت فيها الدولة مرّة والعائلة مرّة أخرى. تحوّل من عطب عضويّ إلى قدر مخصوص ولئيم. لكنَّ وضعه ليس هكذا. هذا الرجل الذي أمامه، أو أحد ما في الخارج، قرّر نيابة عنه، وعليه هو أن يقوم بهذا العمل. لكنّه يستطيع أن يرفض. أن يقول كلّا لا أستطيع. ابحثوا عن واحد غيري. أنا شاعر وليست لي علاقة بأمورٍ كهذه. هناك من يستطيع أن يقوم بالمهمّة أفضل منّي. هذه كلمات سهلة ولا تحتاج إلى جهد كبير لنطقها. ولكنْ، أهي فعلاً كذلك؟ هل يستطيع أن يقول ذلك حقًّا؟ كيف يرفض هذا التكليف، وقد أقسم على تقديم كلّ ما يستطيع من أجل الحياة الجديدة التي يَعِدُ بها التنظيم، بما في ذلك حياته. هو، أكثر من أيّ شخص آخر، لا يستطيع أن يرفض، لأنّه إن فعل فلن يستطيع التعايش مع سقوطه في الامتحان. رفضه سيكون جيّدًا لكثيرين، أهله، رلى، ولكنّه سيكون عارًا عليه، جرسَ عارٍ يقرع في عنقه إلى الأبد.

ها إنّني أسقط عند أوّل امتحان حقيقيّ لشجاعتي وعزيمتي وإيماني. أستطيع أن أحتمل السجن، التعذيب، النفي، حرمان حركة اليد، مثل جدّي، بشرفٍ وكبرياء، على أن أحمل جرس عارٍ يقرع في عنقي أينما ذهبت، حتى عندما آوي إلى النوم. لا أستطيع أن أقول كلّا. لن أكون رجلاً أو حتى شاعرًا إن قلتها، فالشعر ليس مجرّد كلمات منمّقة نكتبها، بل حياة نعيشها. الحياة بعزّة أو الموت بشرف. ***لا تسقني ماء الحياة بذلّة..***

هذا صدر بيت شعر طالما سمع جدّه يترنّم به. وهو ما راح يتردّد، على شكل موجات متعاقبة، في ذهنه المكتظّ كزقاقٍ في السوق المسقوفة، الفارغ كالصحراء التي تترامى وراء أسوار الحامية، ولا أحد

يعرف ما وراءها.

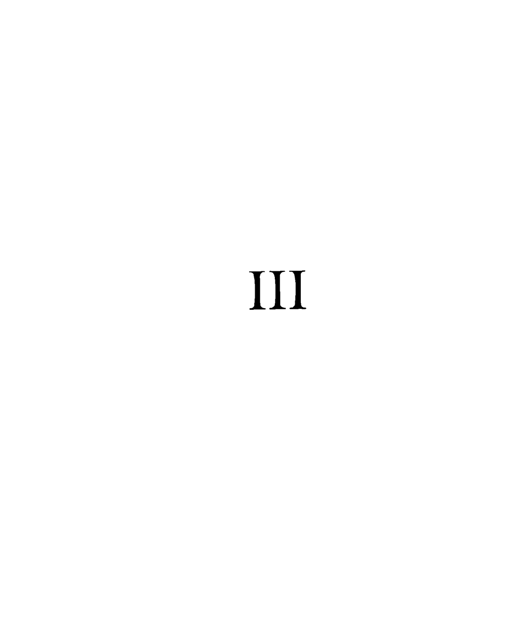
لا يستطيع شخص، مهما ادَّعى معرفته بك، الوصول إلى ما تخبِّئه في أعماقك. الآخرون يرونك بقدر ما تُظهر لهم من نفسك. حافظ على ثبات يديك. لا تبلِّل شفتيك بريقك. لا تهرع إلى علبة السجائر التي أمامك لتداري ما يعتمل في داخلك. هذا ما قاله له الشبح الذي ظهر في تلك اللحظة التي تفقد فيها الأشياء وزنها، التي يتقدَّم فيها الخوف من نقطة قصيَّة في الأعماق، الشبح الذي له ملامحه وعمره ونبرة صوته.

كان الرجل الذي يجلس أمامه ينتظر قراره. لكنْ لا تبدو عليه علامات قلق. كان متأكِّدًا، على ما يبدو، من جواب يونس، فهو من مربِّي الفهود ومرقِّصي الأفاعي ووازني الأفعال بنظرةٍ إلى تقاسيم الوجوه. كان يعرف «فريسته». وكان متأكِّدًا من القرار.

تمثَّلت مرحلة العمل الجديدة باغتيال الحفيد أثناء حضوره الحفل الوطنيّ الكبير، الذي سيُقام في ذكرى يوبيله الفضّيّ. ضرب الرأس مباشرة. سقوطه سقوطٌ للنظام برمّته، مثل الحيّة التي تموت بقطع رأسها. هكذا قال له مسؤول العمليَّات الداخليَّة، الذي تحدَّث عن التاريخ الذي ينتظرهم هناك، قريبًا، على بعد خطوة أو خطوتين، التاريخ العاطل عن العمل، في هذه البلاد، سيشتغل من جديد!

سيكون على يونس أن يوصل منفِّذيْ العمليّة الاثنين، إلى أقرب نقطة من المنصّة، التي سيجلس فيها الحفيد، والمنبر الذي سيقف عليه ليلقي كلمته إلى الأمَّة، فهو أكثر شخص في «التنظيم» يعرف مركز الحامية ونقاط قوَّة أسواره ونقاط ضعفها، إنّه ابن الخطَّاط الذي يجاور مكتبه مكتب الحفيد، ابن سلالة المؤسِّسين، الشاعر البوهيميّ وراوي الحكايات لأصدقائه.. ولهذا كلّه هو الشخص المناسب الذي لن يشكّ فيه أحد.

كانت العمليَّة تحمل هذا الاسم الحركيّ: «الذئب».



III

لا تعلّق مؤسَّسة الأمن الوطنيّ على الأعمال الإرهابيّة، بحسب وصف الإعلام المحلّي، التي تتصدّى لها، ولا على أيّ نشاط يتعلّق بدورها في البلاد أو خارجها. . إنَّها تعمل في صمت. كأنَّها غير موجودة لولا تلك النجمة الحجريَّة خماسيَّة الأضلاع التي تتراءى من بعيد كمركبة فضائيَّة. كلُّ طالب عمل، كلُّ طالب يدخل جامعة، كلُّ موظَّف يتمّ توظيفه، كلُّ تاجر يصدِّر وكلُّ تاجر يستورد، كلُّ ممرِّضة في مستشفى، وكلُّ غفير أو حارس متهالك في مصنع متهالك، ينبغي أن تمرّ أوراقه في دهاليز تلك النجمة الحجريَّة خماسيَّة الأضلاع، وهي التي تقول نعم أو لا. مع ذلك لا توجد ورقة يمكن لأحد أن يشهرها، أو يوثِّقها، عليها خاتمها، لأنَّ ذلك مخالف للدستور الذي يندر أن تسلَم قضيَّة من القضايا التي ترفع في المحاكم ببند منه. لكن، نظريًّا، القانون قانون، والدستور دستور. ورغم أنَّ فعاليَّتها تتخلَّل كلّ نشاط حيويّ في البلاد، فهي لا تصدر بيانات أو تصريحات. وزارة الإرشاد والتعبئة الوطنيَّة هي التي تصدر البيانات وتعلّق على الأحداث، بأقلّ

قدرٍ ممكنٍ من التفاصيل والمعلومات، لأنْ لا معلومات لديها إلّا ما يصلها من الأمن الوطنيّ.

لم يُنشر سوى نزر ضئيل عن محاولة الاغتيال الجديدة، التي اضطرَّت وزارة الإرشاد إلى الإعلان عنها، بسبب وجود صحافة أجنبيَّة نقلت الخبر فور وقوعه، ولكنْ، أيضًا، من دون تفاصيل تشفي الغليل. غير أنَّها تظلّ أكثر قليلاً ممَّا جاء على لسان وزارة الإرشاد. لم يكن خبر محاولة الاغتيال، بحدّ ذاته، مفاجئًا لمواطنيّ الحامية، فهم اعتادوا سماع محاولات اغتيال لرأس البلاد، يقول البعض إنَّها بلغت بعمليَّة «الذئب» ١٣ محاولة. ما كان مفاجئًا، في الخبر الرسميّ، أنَّ وزارة الإرشاد أعلنت عن إصابة طفيفة لحقت بـ «الآمر»، جرَّاء العمليَّة الإرهابيَّة التي أسفرت عن مقتل المهاجمين الاثنين. هذا لم يحدث من قبل. فلم يعرف سكَّان الحامية حقيقة محاولات الاغتيال، التي تعرَّض لها الحفيد، وما إذا كانت تلك مفبركة أو جدِّيَّة، وهل ألحقت به أذى جسديًّا أم لا. فالتضارب في الآراء حول هذا الموضوع قائم. هناك من يقول إنَّها حقيقيَّة، ولكنَّه ينجو منها بسبب الاحتياطات الأمنيَّة المشدَّدة وغير التقليديَّة التي يشرف عليها المستشار وفريقه، وهناك من يقول إنَّ القسم الأكبر منها مفبرك بغية تصفية خصوم، أو تمرير قرارات يصعب تمريرها في الأوقات العاديَّة، فقد مُرِّرتْ صفقة بيع المجمَّع الحكوميّ المركزيّ غداة الإعلان عن محاولة لاغتياله أثناء زيارته بلدات نائية في الجنوب، وصُوِّرت المطاردة، وبُثَّت على التلفزيون، مع ثلاثة من منفِّذيها الذين فرُّوا بسيَّارة دفع رباعيّ في منطقة وعرة، سرعان ما حاصرتهم فيها قوَّة مشتركة من الشرطة وحرس الحفيد الخاصّ، وألقت القبض عليهم، لكنَّ أحدًا لا يعلم لمن هي الرؤوس الثلاثة التي تدلَّت صبيحة يوم جمعة في ميدان الحافلات المركزيَّة،

مكتوب على صدور أصحابها البؤساء آية القصاص إيَّاها.

كان على التنظيم أن يجمع أقصى قدر ممكن من المعلومات من يونس، الذي تمكَّن من الفرار، والتجأ إلى بيت آمن في حيّ الشعلة، كما كان مقرَّرًا في الخطّة، ومن أعضاء في التنظيم ومتعاطفين معه يعملون في أجهزة الإسعاف، وهيئة النظافة الوطنيَّة التي تولَّت تنظيف مسرح العمليَّة. لم يكن هناك الكثير من المعلومات، ولم يتأكَّدوا ما إذا كان منفِّذا العمليَّة قد قُتلا فعلاً. فقد يكون إعلان وزارة الإرشاد عن مقتلهما فخًا كي تسترخي الجهة التي تقف وراءها وتتصرَّف بحذر أقلّ. مقتل المسلَّح «سين» الذي بدأ إطلاق النار من الجهة الغربيَّة للمنصَّة، وصرع عريف الحفل، مؤكَّد.. فقد رآه يونس وهو يخرُّ على الأرض بعد إصابته بعدد من الطلقات، التي جاءته من غير جهة. وهذا ما تأكَّد للتنظيم من مصدر آخر، لكنَّ المسلَّح الثاني «راء» الذي لم يتوقَّع حرس الحفيد وجوده، على الأغلب، وظنُّوا أنَّ هناك مسلَّحًا واحدًا في مسرح العمليَّة، هو الذي فاجأهم برصاصه، وأصاب الحفيد. كان يونس قد فرَّ مندسًّا بين الحضور الذي راح يهرب، أو يأخذ الأرض، عندما أُصيب المسلَّح الثاني، ولا يعرف، في خضمّ الفوضى التي حدثت، ما جرى له، غير أنَّ متعاطفًا مع «التنظيم» يعمل في الإسعاف الوطني، أبلغ صلة الوصل به أنَّهم نقلوه إلى مستشفى عسكري داخل مركز الحامية مصابًا بجراح بالغة. ربَّما فارق الحياة. وإن لم يكن قد فارقها، فهو في وضع حرج للغاية. قال إنَّ رجال الأمن شكَّلوا حلقة حوله ودفعوا به إلى سيَّارة الإسعاف. عَمِلَ التنظيم على اعتبار المسلَّح الثاني «راء» لم يُقتل، واحتمال أن يتمكَّن الأمن الوطنيّ من انتزاع بعض المعلومات منه قائم. هكذا بدأت خطَّة «الإخلاء». وكان على رأس الذين ينبغي إخلاؤهم الشريك الثالث في

عمليّة «الذنب»: يونس.

لنقل إنَّ إخراج يونس من العاصمة، فورًا، هو إجراء عمليّ أكثر ممّا هو شكٌّ في قدرته على الصمود في التحقيق، لكنْ من جهة ثانية فإنَّ قلَّة قليلة ممَّن يُعتقلون لا ينبسون ببنت شفة في التحقيق. قد لا يكون الشاعر البوهيميّ، منهم.

طلب يونس أن يذهب إلى أهله في ناكوجا آباد، ومن هناك ينتقل إلى النقطة التي سيتمّ تهريبه منها إلى الخارج، ما دام هناك احتمال كبير أن لا تكون مؤسَّسة الأمن الوطني قد انتزعت معلومات من شخص ميّت، أو شبه ميّت. لكنْ طلبه رُفِضَ بحزم. قال يونس إنَّه لن يغادر هكذا من دون أن يودّع أهله، ورلى وبعض أصدقائه. أكَّد له مسؤوله أنَّ ثمَّة خطرًا في ذلك، ليس على حياته فحسب، بل على أهله وعلى كلٍّ مَنْ يلتقيه. سيعدّونهم شركاء في الجريمة. هذه الفكرة ردعته، فكرة أن يزجّ بوالده وأخيه سند، وربَّما شهاب الأصغر سنًّا، وربّما رلى، في تحقيق أو سجن لمجرَّد أنَّهم رأوه دقائق، أو ساعات بعد العمليّة، جعلته يتخلّى عمّا كان قد عقد العزم عليه. فكَّر أنَّه لن يستطيع، في كلّ الأحوال، البقاء في ناكوجا آباد، لأنَّ أنظار الأمن ستتَّجه إلى هناك مباشرة عندما يعلمون علاقته بالعمليَّة. ثم ماذا سيقول لهم؟ كيف سيودّعهم من دون أن يخبرهم بعلاقته بما حصل؟ صعب. غير ممكن. مستحيل. فكّر يونس وهو مشلول الذهن ومشوَّش، وغير قادر على الإحساس بثقله على الأرض، بأنَّ عليه أن يكتب رسالة إلى رلى، أضعف الإيمان. لا يمكن أن يفرَّ من البلاد من دون أن يَعِدَها بشيء ما.

جلس تلك الليلة إلى طاولة في أحد أركان الغرفة. أمامه بضعة فناجين من القهوة ومنفضة مترعة بأعقاب السجائر. أوراق وقلم.

هناك، نحو عشر صفحات خطّ عليها بضع كلمات ثم كوّمها بيده ورماها في سلّة المهملات. يكتب سطرًا، سطرين، ثم يكوّم الورقة ويرميها. كانت أصعب كلمات يكتبها في حياته. وضع الرسالة في مظروف، وكتب على الغلاف كلمتين: إلى رلى. ولكنّ هذا ليس كلّ شيء. لقد كتب الرسالة. فمن سيوصلها إليها من دون أن يلفت الانتباه.. من هو الشخص المناسب في هذه الحالة التي تتقلّص فيها البشريّة كلّهاإلى صفر؟

فكّر في ثلاثة أو أربعة أشخاص يمكن أن يكلّف أحدهم بإيصال الرسالة. لن يتردّد، على الأغلب، أيّ منهم في حملها. إنّهم أصدقاؤه الحقيقيُّون. كلمة «الحقيقيُّون» بدت غريبة بعض الشيء عندما قالها في نفسه. هل يعني أنَّ هناك أصدقاء غير حقيقيّين. الأصدقاء ينبغي أن يكونوا حقيقيّين وإلّا انتفت عنهم صفة الصداقة. صرف النظر عن متابعة هذا الطنين الفلسفيّ المزعج، الذي عَبَر ذهنه، وراح يركّز على ما يريده الآن. إيصال الرسالة التي عكف، طيلة الليل، على كتابتها. الرسالة ـ الصدمة. الصدمة التي لا بدَّ منها.

الأشخاص الذين فكّر فيهم هم: إبراهيم الحنَّاوي، أبو طويلة، حسن فيَّاض، المعروف باسم عقلة الأصبع، خلف مزيد حمدان، ووحيد القط، وهم، باستثناء الحنَّاوي وعقلة الأصبع، رفاق يونس في المدرسة، أو الحيّ. أيُّ واحد من هؤلاء مستعدّ لحمل رسالته.

شطب اسم الحنَّاوي، لأنَّه لا يريد أن يورِّطه في أيِّ شكل من الأشكال بأمور هو في غنى عنها. أبو طويلة؟ كلَّا أيضًا، فهو عضو في التنظيم ولا يجوز أن يضعه في موضوع شبهة. عقلة الأصبع غير ممكن، فرلى لا تعرفه، سوى من حديث يونس عنه، كما أنَّه مراقب من الشرطة وصاحب سوابق. وحيد القطّ قطع أذن قطٍّ مسكينٍ كي يبدو

شرِّيرًا، وهو ليس كذلك. يبقى خلف. هذا في وضع بعيد عن الشبهات. هو أيضًا متخرِّج حديثًا في مدرسة الحرس، أخذ موقع والده في إحدى بوَّابات عبور المشاة المهمَّة المؤدِّية إلى مركز الحامية، وهذا تقليد قديم لا يزال متَّبعًا، منذ أيَّام الجنرال الأصهب الجَدّ. لقد نسي سالم مرهون. رغم انتمائه إلى عالم طفولة يونس ومراهقته، لا يستطيع أن يتَّصل به، لأنَّه لا يعرف كيف سيكون ردُّ فعله في مثل هذه الحالة. فكَّر في خاله أدهم. ولكن كلَّا. فلن يكتفي خاله بكلمة، بطلب، من دون توضيح. سيتطلَّب الأمر شرحًا، ولا وقت لديه للشرح.

وفيما هو يستعرض، في حيرة وبلبلة، الأسماء والوجوه التي يمكن لواحد منها أن يحمل رسالة بدت أثقل من جبل، تراءت له صورة صاحبه، حسيب مرتضى، كاتب القصص البوليسيَّة. كان يمكن أن يكون عونًا في وضعه المأزوم. لا يمكن اعتبار حسيب جزءًا أصيلاً من حياة يونس، ولا حتى من شلَّته، إلَّا إذا أراد المرء أن يضعه، تعسُّفًا، في شلَّة من الشلل الأدبيَّة التي تعيش في المقاهي، وفي هذه الحالة ستكون أقرب الشلل إليه شلَّة يونس. لماذا قفزت صورة حسيب إلى ذهنه؟ ليس هناك منطق، ولا حساب، لتوالي الصور في الذهن. لا لحضورها ولا لغيابها. ولكنْ ربَّما حضرت صورته في ذهنه لأنَّه اختفى، مثلما سيفعل هو الآن. وربَّما لأنَّ عقليَّته البوليسيَّة كانت ستجترح حلولاً، لا تخطر على باله، لورطته البوليسيَّة والوجوديَّة معًا؟ وضعه الآن هو التطبيق الحقيقيّ لمفهوم حسيب للقصَّة البوليسيَّة، ذات البعد الوجوديّ، أكثر من قصصه نفسها. حسيب العجيب! قال يونس في نفسه:

كان يونس جالسًا مع أبو طويلة وخلف ومحسن في مقهى الزنبقة السوداء عندما تقدَّم منه شابٌّ أسمر، مربوع، يرتدي بذلة سوداء

وقميصًا أزرق، حليق الشاربين ما يبرز شفتيه الغليظتين اللتين تكشفان عن صفّ من أسنان كبيرة، بعض الشيء، كأسنان حصان. قال له: انت يونس الخطّاط؟ فقال يونس نعم. اجترّ الشابّ الأسمر المربوع، الذي يرتدي بدلة سوداء وقميصًا أزرق، كرسيًا وانضمّ إلى طاولة يونس وأصدقائه. قدّم نفسه: أنا حسيب مرتضى، كاتب قصص بوليسيّة. تشرّفنا، قال يونس وهمهم أبو طويلة، ولم يعلّق محسن، ثم أضاف: لقد قرأت قصيدتك «سيّدة المدينة»، وأعجبتني رغم تأثّرك الكبير بالكتاب كذا. عرف الملتفّون حول الطاولة أنّه كاتب متّصل بدوائر الصحافة والنشر، وقد نشر العديد من قصصه البوليسيّة، ذات البعد الوجوديّ، بحسب تعبيره، في بعض الصحف والمجلّات المحليّة، بل هناك مجلّة معروفة تصدر في الخارج تمكّن من نشر إحدى قصصه فيها. لم يسمع يونس وأصدقاؤه باسمه من قبل، ولكنّهم رحّبوا بانضمام كاتب معروف، ينشر في الصحافة الداخليّة والخارجيّة إلى طاولتهم التي تحبو على أرض الأدب. وهكذا صار حسيب مرتضى وجهًا مألوفًا في المقهى، إن لم يكن جالسًا مع يونس وشلّته تجده يدردش مع حامد علوان الذي بالكاد يقترب منه كاتب مغمور.

فكّر يونس أنّ حسيب يتفادى الضحك ما أمكن، وإن فعل فبفم يكاد أن يكون مغلقًا. خطر له أنّ تفاديه الضحك أو الابتسام قد يكونّ حرجًا من ضخامة أسنانه واصفرارها، أو لغلظ شفتيه اللتين كان يحاول أن يأكلهما، أو يقلّص مساحتهما، وهو يتكلّم. بدا أنّ هناك صراعًا بين مرحه ورغبته في الضحك وحرصه على جعل شفتيه تبدوان أصغر، وأسنانه أقلّ انكشافًا على من يكون معهم.

كان كاتب القصص البوليسيّة، ذات البعد الوجوديّ، غامضًا بعض الشيء، أو لعلّه كان يتعمّد الغموض حول أصله وعمله، وقد زاد،

تحفّظه في الكلام الاجتماعيّ ومواربته فيه، غموضه الذي يليق بكاتب قصص بوليسيَّة. أمّا دعاواه بنشر قصص له في الصحف والمجلّات، فقد دعمتها القصاصات التي يحملها في حقيبة يد سوداء لا تفارقه، وعرضها على يونس ورفاقه. كان اسمه مطبوعًا بحروف المطبعة، ولا مجال لإنكار ذلك.

قال يونس لحسيب، بعد فترة من تعرُّفه إليه، بحضور بعض أعضاء الشلَّة، لم أسمع بشيء اسمه القصَّة البوليسيَّة الوجوديَّة، أو ذات البُعد الوجوديّ، هناك القصَّة أو الرواية البوليسيَّة فحسب، وهذه أجنبيَّة أصلاً، وهناك الوجوديَّة وقد قرأت بعض نتاجها الأدبيّ، المترجم ايضًا. فأجابه حسيب بأنَّ كلامه صحيح، فهو صاحب هذا الاتّجاه، أمّا لماذا؟ فلأنّي أربط بين المادَّة البوليسيَّة في القصَّة والشرط الإنسانيّ. كيف؟ قال يونس. أجاب حسيب: خذ مثلاً ذلك الذي يقتل شخصًا لا يعرفه على شاطئ رمليّ، لم يشكّل تهديدًا له رغم انعكاس لمعة سكّينه على عينيه، أعني رغم ذلك الوهج الذي انطلق من حدّ السكّين غير أنّه لم يكن بقصد الأذى. ردّ فعل القاتل انطلق من لحظة عماء كلّي، من شلل تامّ في المحاكمة المنطقيَّة، فأقدم على ارتكاب جريمته. البعض يقول لأسباب عنصريَّة، ولكنّي أقول لأسباب مرتبطة بالشرط الإنسانيّ. كان حسيب قد كرّر أكثر من مرَّة تعبير الشرط الإنسانيّ، كأنّه سمعه للتوّ ويريد أن يرسّخه في ذهنه، هو قبل الآخرين. فقال له يونس إنَّه يقدّم مبرّرًا فقط لجريمة صرف، جريمة لا سبب لها ولا منطق سوى العنصريَّة. كما أنَّ هذه رواية وجوديَّة ولا تمتُّ إلى البوليسيَّة بصلة، رغم وجود الجريمة فيها. فليس فيها لغز. الجريمة حصلت والقاتل يعترف بها. لغزها الوحيد غير بوليسيّ، هو لماذا أقدم على ما أقدم عليه. تملّص حسيب من محاصرة يونس له،

وقال: على ذكر البوليسيَّة، لقد ذكرتَ قبل قليل إنَّ القصَّة البوليسيَّة أجنبيَّة أصلاً، ولكن هل تعرف أنَّ نقَّادًا وأكاديميِّين، أجانب، يعيدون أصلها إلى حكايات الليالي، وتحديدًا حكاية التفَّاحات الثلاث؟ أفلح حسيب في التملُّص من الحصار، أو ما كان يظنّ يونس أنَّه حصار، وأثار اهتمام، بل دهشة الحاضرين الذين رغبوا في معرفة ذلك. فقال، وسط إصغاء الجميع، وعلى رأسهم يونس، الذي كان يرغب في مواصلة نقاشه معه، إنَّها حكاية طويلة ومتداخلة، على عادة الليالي، الأفضل أن تعودوا إلى قراءتها من مصدرها، وستعرفون ما كنت أقصد. أظنّ أنَّها في نهاية الليلة التاسعة والستِّين! رغم أنَّ يونس يعرف حكايات متناثرة من الليالي، سمع بعضها، أو قرأه، وهو صغير، خصوصًا عن السندباد وعلاء الدين وعلي بابا، لكنَّ هذه الحكايات الشهيرة لا شيء أمام الكتاب نفسه وحكاياه التي تتناسل، وفق متواليات عجيبة، من بعضها بعضًا. حكاية تلد حكاية إلى ما يبدو أفقًا من الحكي غير النهائيّ. بعدما رمى حسيب اسم حكاية التفَّاحات الثلاث، راح يونس، ليلتها، يلتهم الكتاب ذا الأجزاء المتعدِّدة، في طبعة أنيقة، في مكتبة والده. ومثل شهرزاد، لم يستطع أن ينام إلَّا عند صباح الديك. ومثلها، عليه أن يعاود رحلتها المذهلة مع ملحمة القصّ والحكي ولعبة التأجيل والإرجاء حتى تكسب ليلة أخرى من عمرها.

ولأسابيع راح يقصُّ ما يقرأ على أبو طويلة وخلف ومحسن، وحسيب إن حضر، أو حتى المعلِّم الشطّي الذي يحبّ يونس وجلسة أصحابه، الذين لا يلعبون الورق ولا يدخِّنون الأرجيلة.. حتى كادوا أن يملُّوا.

هذا دَين لم ينسه يونس لحسيب، الذي لم يقصد، ربَّما، سوى التملُّص من نقاشه مع يونس، فظلَّ يذكّره بأنَّه ممتنٌّ له بهدايته إلى هذا

الكنز العظيم، الذي كان يتربّع، في مجلّدات بنيّة ذات حروف مذهّبة، في مكتبة أبيه، وكان يعدّه، مثل كثيرين من أبناء جيله، من الكتب الصفراء، الركيكة لغة وشعرًا ومعنى.

وإلى كونه يعمل في إحدى الصحف، تميَّز حسيب مرتضى عن يونس وشلّته بثلاثة أشياء: إنَّه لا يدخّن، وإنَّه مطّلع على القصّة والرواية الحديثتين في الخارج، وعلى معرفة بالسينما الجديدة وسينما المؤلّف، التي لم يكونوا يسمعون عنهما. ومنه عرف يونس أسماء كُتَّاب روائيّين غير كُتّاب القرن التاسع عشر التي تُنشر أعمالهم في سلسلة أروع القصص ويدمنون قراءتها. ومعه حضر في صالة سينما العهد فيلمًا، لم يمكث في العرض سوى أسبوع، لمخرج كان حسيب مرتضى معجبًا به أيّما إعجاب. كلّ ما علق في ذهن يونس من الفيلم تعليقات حسيب عن أبعاده السياسيّة الخفيّة، التي سمّاها رسائل سياسيّة، ففوجئ يونس بهذا الجانب في كاتب القصص البوليسيّة لم يعرفه فيه من قبل.. يتذكّر يونس شيئًا آخر: بطلة الفيلم بتنُّورتها القصيرة وفخذيها الرخاميَّين، وكاتب القصّة القصيرة البوليسيّة، الذي عضّ شفتيه الضخمتين لمّا تحدّثا عنها وهما يخرجان من دار العرض حتى كاد يدميهما.

كان حسيب مرتضى يسكن مع أهله في حيّ النهضة. فسأله يونس: صديقنا محسن، تذكره، يقطن في الحيّ نفسه، أين في حيّ النهضة؟ فوجئ على ما يبدو بسؤال يونس. فغمغم بما يعني أنّه في منطقة معهد المساحة الوطنيّ. لم يعر يونس، وشلّته، الأمر أهمّيّة.
زار حسيب بيت يونس أكثر من مرّة، وتعرَّف إلى والده، الذي كان يعرفه بالاسم وأذهلته أعماله التي لا يعرضها على الملأ، فدخل معه في حوار حول ما وصفه بالجانب الوجوديّ في أعماله. لم يفهم والد

يونس هذا الأمر، لكنَّه سُرَّ به. صار على حسيب أن يردّ الزيارة من دون أن يطلب منه أحد. ذهب يونس وأبو طويلة إلى بيته في دعوة على شاي وكيك في العصريَّة. كانت هناك شجرة سرو كبيرة أمام الشقَّة الأرضيَّة في إحدى بنايات إسكان الموظَّفين. لم يَرَ يونس وأبو طويلة أيًا من عائلة حسيب. كان هو الذي دلف إلى داخل البيت وأحضر الشاي والكيك إلى غرفة الجلوس التي كانت على أحد جدرانها صورة مؤطَّرة للطفل الأشقر الباكي المنتشرة صوره كالنار في الهشيم في البيوت والمحالّ، وصورة في صدر الصالون للحفيد بمنطي حصانًا عربيًا أصيلاً، وصورة على الحائط الأيمن لآية الكرسيّ بخطّ النسخ. وفي الأركان بعض نباتات الظلّ والأزهار. لم يخطر ليونس، ولا للمتشكّك الأبديّ أبو طويلة، أن يتساءلا عن عدم رؤيتهما أحدًا من عائلة حسيب، كما يفعل أهل يونس أو أبو طويلة عندما يأتي ضيوف. كما لم يخطر لهما التساؤل عن سرّ لهجته الغريبة. فلا هي من العاصمة ولا من الجنوب، ولا من الشرق أو الغرب. الأمر الوحيد، الذي عرفه يونس عن حياته الاجتماعيَّة، بعد تلك الزيارة، أنَّه على علاقة سيِّئة بأبيه. نقطة على أوَّل السطر. بعد ذلك لم يعد إلى هذا الموضوع مرَّة أخرى. ما هو عمل والده؟ لا أحد يعرف. لعلَّه كان عسكريًا مثل معظم أبناء القبائل، الذين جذبتهم العسكريَّة من دون أيَّة مهنة أخرى في الحامية. لعلَّه تاجر، أو شيء من هذا القبيل، بدليل بيتهم الذي بدا على شيء من اليسر الماديّ. ما كان مهمًّا بالنسبة إلى يونس أنَّه قارئ جيِّد. يسبقه في القراءات، ونوعيَّتها، ممَّا جعل يونس يضاعف جهوده القرائيَّة كي يعرف ما يجري في عالم الأدب الذي قرَّر الانخراط فيه بقوَّة.

لم يكن حسيب يعرف الوسط الأدبيّ كما كان يقول، خصوصًا

جماعة الندوة الأدبيَّة، التي تضمُّ في عضويَّتها أهمّ شعراء البلد وكتّابه ونقّاده، لأنَّه فشل، أمام يونس، في الدخول إلى مقرِّها ومقابلة من كان يدَّعي أنَّه يعرفهم، لكنَّه اصطحبه، بدلاً من ذلك، إلى الصحيفة، التي كان يعمل فيها. وكانت تلك أوَّل مرَّة يرى فيها يونس صحيفة من الداخل: المطبعة الضخمة، التي تقع في قبو البناية الخاصَّة بالصحيفة وأنوارها الفلورنسيَّة القويَّة، والهياكل البشريَّة المنكَبَّة على أذرع المطبعة وقلبها الصاخب، وأحرفها النحاسيَّة، ورائحة أحبارها. حالَ الصخبُ الميكانيكيّ، صعب الاحتمال، دون سماع كلام يونس مع بعض عمَّال المطبعة، بدا حوارًا بين زملاء. ثم صعدا إلى طابق التحرير في الدور الأوَّل. لوَّح حسيب لبضعة كائنات مهدَّمة، منكبَّة برؤوس رماديَّة على أوراق صفراء خشنة أمامهم، إلى جانبها قصاصات تشبه البرقيَّات ينقلون منها شيئًا. قال حسيب: دعني أعرِّفك برئيس القسم الثقافيّ. ذكر اسمه، لكنَّ يونس لم يعرفه. غضب من نفسه كيف لا يعرف رئيس القسم الثقافيّ الشاعر والناقد فلان. لكنَّ المهمّ أنَّ حسيب قدَّم يونس إليه باعتباره شاعرًا، فأبدى رئيس القسم الثقافيّ حركة طلعت من وضعه الرخويّ وسلَّم على يونس بطرف طويلٍ، لزجٍ يشبه اليد.. أطرب يونس اللقب. الشاعر يونس الخطَّاط! هذه هي المرَّة الأولى التي يُقدَّم فيها إلى رئيس قسم ثقافيّ في صحيفة يوميَّة باعتباره شاعرًا.

العجيب أنَّ حسيب استطاع أن يكون مقنعًا لأبو طويلة، وأن تكون هناك علاقة بينهما سواء بحضور يونس أو من دونه. بما أنَّ أبو طويلة لم يستطع أن ينتزع شرعيَّة من الشلَّة باعتباره شاعرًا، على الأقلّ ليس بجودة وموهبة يونس، قرَّر أن يتَّجه إلى القصَّة القصيرة. وليس هناك أفضل من حسيب يدلَّه على طريقها. كان أبو طويلة مقتنعًا بأنَّ الإنسان يستطيع أن يتعلَّم أيّ شيء. وإذا كان الشعر يحتاج، في هذه

البلاد، إلى موهبة وشيطان يملي على الشاعر قصائده، أو يوحي له بها، فإنَّ القصَّة القصيرة لا تحتاج إلى شيطان، فلم يسمع أحدًا يتحدَّث عن شيطان القصَّة القصيرة، بينما الكلّ يتحدَّث عن شيطان الشعر.
هكذا نشأت قواسم مشتركة بين الاثنين جعلت أبو طويلة يعرف جانبًا من حياة حسيب اليوميَّة. كان لحسيب عالم ليليّ لم يكن يونس وشلّته يعرفونه: الشراب. الشراب حتى السُّكر. هذا هو التعبير الصحيح.
وهو الذي دلَّهم، بعد وقت من توطُّد علاقته بالشلَّة، إلى بار ليليّ بائس في وسط البلد، يُدعى الاسترخاء، يفوح برائحة الخمرة والرطوبة وعطور ارتيستاته العجائز المترنِّحات. رفض يونس الدعوة أوَّل مرَّة.
ثم ذهب. ثم صار يذهب مع أبو طويلة أو خلف، أو محسن، إن لم يكن حسيب موجودًا. كانوا يَرْشون بوّاب البار، القبضاي المتهالك من وطأة السنين، حتى يسمح لهم بالدخول. لكنَّ يونس وأصدقاءه لم يغنِ لهم البار سوى لحظة مغامرة، ورؤية عالم سِرّيّ كانوا يسمعون عنه ولم يروه عن قرب، عالم محجوب بستائر ثقيلة وعتمة ورطوبة ودخان سجائر وسمعة اجتماعيَّة سيِّئة عن السائرين في الشارع. عكس حسيب الذي كان يعني له تقريبًا كلَّ شيء. لم يصدِّق يونس خلف عندما قال إنَّه ساعد حسيب على الفرار من أيدي الشرطة، التي رأته يترنَّح ويكاد يسقط من السُّكر. سأله يونس هل ذهب به بتلك الحال إلى بيت أهله، فأخبره خلف أنَّه طلب منه إيصاله إلى مكتب الجريدة.. أوصله إلى هناك وتركه. دخول يونس في عالم حسيب الليليّ كشف له جوانب مذهلة في شخصيَّته. فحسيب الليل غير حسيب النهار، كأنَّما هما شخصان لا شخص واحد، شخص النهار العاديّ، اللطيف، الذي يتحدَّث عن القصَّة والرواية والسينما الجديدة وسينما المؤلِّف، وشخص الليل الكئيب، العصبيّ، ذو العينين الحمراوين، الذي يمكن أن يحطِّم

زجاجات وكؤوسًا إذا استُفِزَّ، وهذا أمر لا يحتاج إلى جهد. يكفي الاختلاف معه في الرأي. ومثلما ظهر حسيب فجأة في وسط شلَّة يونس، بدأ يختفى من المقهى، والبار، وتباعدت لقاءاته بيونس وشلَّته، إلى حدِّ الانقطاع، ولكنْ من دون أن تلاحظ شلَّة مقهى الزنبقة السوداء هذا الغياب، فهو لم يكن عضوًا أصيلاً فيها. في هذه الفترة، بدأ يونس ينصرَّف كشاعر، خصوصًا بعدما نشر قصائد في إحدى المجلَّات، ودُعي إلى أكثر من أمسية شعريَّة في العاصمة والأقاليم، وكاد أن ينسى حسيب، الذي انقطعت أخباره عن الشلَّة تمامًا. شعر يونس وأبو طويلة وخلف بالذنب حيال حسيب، الذي أهملوه، بل نفروا منه، بعد تكرُّر حالات سُكره الشديد، وتحوُّلاته الليليَّة العجيبة، فقرَّروا أن يسألوا عنه في بيت أهله. ذهبوا إلى البيت الذي أخذهم إليه. دقُّوا الباب. أطلَّت امرأة في منتصف الثلاثينيَّات. قالوا إنَّهم يريدون أن يروا حسيب. استغربت المرأة. ثم قالت إنَّها لم تعد تراه منذ وقت، وقد توقَّف عن إعطاء ابنها دروسًا في اللغة، التي كانت علاماته فيها سيِّئة.

ليس هذا بيته؟

كلَّا.

أبدًا؟

نعم.

ولكنَّنا جئنا معه إلى هنا ذات يوم.

ذلك لأنَّه طلب من زوجي ومنِّي أن يستقبل عندنا أصدقاء له دعوه أكثر من مرَّة إلى بيوتهم، وقال إنَّ بيت أهله متواضع جدًّا وهو يخجل من استضافتهم فيه.

قرّروا أن يسألوا عنه في الصحيفة، التي يعمل فيها. فوجئوا بأنّه لم يكن يعمل صحافيًّا في القسم الثقافيّ فيها، بل في قسم تصحيح البروفات في المطبعة، وأنّه ينام ليلاً هناك.. ولكنّه ترك عمله منذ فترة. اختفى. كان مدير قسم التصحيح رجلاً طاعنًا في السّنّ ويكنُّ لحسيب مودّةً.. أخذهم خارج القبو، وقال لهم إنّه سمع من زميل لهم في المطبعة أنّه غادر البلاد. ثم همس: انضمَّ إلى حركة التمرُّد في الخارج. ذُهل يونس وأبو طويلة وخلف. كيف؟ فهو لم يبدُ مُسَيَّسًا، ولا يتذكّرون أحاديث لهم معه في السياسة. لم يكن يونس، حتى تلك اللحظة قد انضمّ إلى «التنظيم». كان لا يزال يرى الرجل الذي رآه، مرّة، يقرأ كتابًا وصارا يتناقشان على حدة بعيدًا عن وسط البلد وعيون مخبريه. لكنَّ رئيس قسم التصحيح العجوز، ذا المساهمات الأدبيّة القليلة، قال إنَّ ذلك ليس مؤكّدًا، فهو مثلهم لا يعرف عن حسيب ميلاً إلى السياسة والمعارضة. ولكنّه، عكسهم، يعلم أن لا فارق عنده، أيًّا يكن رُقْعَه، بين الحقيقة والخيال. لم يقل الكذب، وهي الكلمة التي اضمرها ذلك الشيخ المحبّ لحسيب. الكذب المرضيّ. الغموض المتعمَّد. هل هذا صحيح؟ ماذا عن خبر آخر وصل إلى يونس وشلّته حوله: إنّه انخرط في الحرب الكبيرة التي لا تزال تدوّي فيها المدافع ويتساقط القتلى في ساحاتها المنسيّة، ولكنْ من دون أن يكترث بها أحد من فرط طولها وتكرار حوادثها وأخبارها، التي فقدت أيّة قدرة على جذب المستمعين؟ وماذا عن الذين قالوا إنّه أُصيب في تلك الحرب وأنقذ حياته راهب في دير، اعتكف فيه حسيب بعدها ولم يخرج؟ الحقيقة؟ لا أحد يعرف. من يعرف الحقيقة على أيّة حال؟

*

وبما أنَّ يونس لم يعد إلى البيت، ولا رآه الأشخاص الذين سألوا عنه، أو سعوا إلى لقائه في الأماكن التي يتواجد فيها عادة، فقد وضع ثمانية أشخاص، في أماكن مختلفة، أيديهم على قلوبهم عندما سمعوا خبر محاولة الاغتيال ومقتل المسلَّحيْن اللذين لم يُكشف النقاب عن اسميهما. أمّه، رلى، أبوه، أخوه سند، الحنَّاوي، أبو طويلة، خلف، المعلِّم الشطِّي شعروا بوخزات في قلوبهم وهم يسمعون خبر محاولة اغتيال الحفيد من الراديو أو التلفزيون. الخبر نفسه كفيل بأن يُحدث، لوحده، هذه الوخزات. وكمن يتواطأ مع نفسه، رفض هؤلاء أن يربطوا بين وخزات قلوبهم وغياب يونس، أوِ علاقة يونس بما جرى، واعتبروا مرور صورة يونس، بأذهانهم، في إطار هذا الخبر مجرَّد مصادفة، أو خبط عشواء. هذا كثير أصلاً على أهله. رلى خصوصًا. ظلَّت وخزات القلوب تلك سرِّيَّة، فلا أحد من هؤلاء يعرف أنَّها حدثت لغيره. غير أنَّ الوحيد الذي تصرَّف، على الفور، عند سماعه الخبر هو الحنَّاوي. كان، أكثر من السابقين، يتملَّكه شعور داخليّ

نويّ بأنَّ يونس متورِّط في عمل ما منذ طرق بابه قادمًا من مدينة السندباد. وما سعيه الفاشل إلى اللقاء به بعد الليلة التي قضاها في شقّتهما المشتركة، ***فشلٌ كقدرٍ إغريقيّ مصمَّم خصّيصًا لدفع الأمور حتى النهاية***، إلّا من هذا الباب. كان يعرف أنَّ الأمن الوطنيّ سيصل إليه عاجلاً أو آجلاً، عندما تتحدَّد صلة يونس بما جرى. فهو صديقه، وشريكه في السكن. هذا، في حدِّ ذاته، يكفي لكي يكون موضع شبهة أو تحقيق. بسبب يونس وتهوّره سيكشفون وضعه. وهو لا يقلُّ خطورة عن ارتباطات يونس، وسوف يصلون بالتعذيب وتهديد الأهل إلى ما يريدون منه. وستكون مجزرة. عليّ أن أختفي بأسرع ما يمكن. لا يمكنني الانتظار حتى يتمّ القبض عليّ. أخبر الحنّاوي جماعته بأنّه يتوقَّع أن يكون تنظيم «إلى العمل» وراء العمليّة، وعليه، بسبب صداقته بأحد كوادره، أن يختفي. الشخص الوحيد الذي رأى يونس عندما عاد من سفرته، التي لا يعلم بها أحدٌ من الذين قلقوا عليه، اختفى عن الأنظار. فكّر في أن يبلغ والده، أو أخاه سند، بأنَّ يونس بات عنده ليلة. ولكنّه لم يفعل.

لا أستطيع أن أترك أثرا يؤدّي إليّ. هذا هو الأمر. آسف يا صديقي!

*

حسم يونس قراره الداخليّ واتّصل بخلف، الذي لم يره منذ نحو شهر أو أكثر. طلب أن يلتقيه في محطّة القطارات المركزيّة. قال خلف إنّ هناك حالة طوارئ، ولا يستطيع ترك موقعه. أخبره يونس أنّ الأمر ضروريّ جدًّا وعاجل. خذ إذنًا لساعة فقط. قال. كان قد تمّ ترتيب نقل يونس، برحلة قطار في الدرجة الثانية إلى مدينة حدوديّة تقع فيها مزرعة دواجن نموذجيّة مسجّلة باسم رجل أعمال، لكنّ ملكيّتها تعود إلى «التنظيم»، ومن هناك سيُهرَّب خارج البلاد.

لم تمض ساعة حتى كان خلف عند نسر الحامية الذي يتوسّط نُصُبُه ساحة القطارات المركزيّة. مغبرّ. قديم. ذهبه مغطّى بسخام عوادم القطارات. عندما رفع يونس نظره إلى حيث النسر، شعر بأنّه يبادله نظرة حادّة لم يحجبها السخام. كانت المحطّة تعجُّ بقوّات عسكريّة. لم يبد عليهم أنّهم يبحثون عن أحد. في وضعيّة استعداد وتأهُّب، ولكنّهم لا يراقبون المارّة. بدوا أنّهم لحماية المحطّة، أو إشعار القادمين والمغادرين بأنّ كلّ شيء تحت السيطرة. كان خلف

يرتدي زيّ الحرس الوطنيّ. وكالعادة كان بشوشًا، معتدل القامة، كما يليق بعسكريّ شابّ في حرس الحامية. بجانب يونس بدا أقصر قليلاً. هكذا كان، دائمًا، ترتيب طول الأصدقاء الثلاثة من الأطول إلى الأقصر: أبو طويلة، يونس، خلف. الأصدقاء الثلاثة. الفرسان الثلاثة. أليست هذه حكاية تقمّصوها في أيّام المراهقة الهنيّة؟ بلى. كأنّ دهرًا مرّ على ذلك وليس بضع سنين فقط. الفرسان الثلاثة، الكلّ للواحد والواحد للكلّ. لم تكن تلك الأيّام بعيدة جدًّا عن الزمن الداخلي لخلف، عكس يونس، الذي قطع في أيّام زمنًا سيبلغه خلف ببطء، لاحقًا. كان وجه يونس قاتمًا، ضامرًا، بعينين محمرّتين وزائغتين. بدا أحولَ على نحو تامّ. اجتاحه، للحظة، سرور داخليّ لرؤية خلف، فالعالم ليس مغلقًا في وجهه، ولا يزال، هناك، من يستطيع أن يعتمد عليه.

*

لم يُظهر خلف بين يونس وأبو طويلة، وأعضاء آخرين من الشلّة الموسَّعة، ذوي الأفواه الثرثارة، مواهب مماثلة لصديقيه المقرَّبين ولا انشغالتهما عندما بدأت العلاقات بين الشبَّان تُفْرز على أساس اهتماماتهم التي غالبًا ما تتقدَّمها كرة القدم، وأقلّ كثيرًا القراءة والكتابة. كان كثير التردُّد على بوَّابة المشاة، التي يقف عندها والده كصقر أسطوريّ، وكان يونس وأبو طويلة يذهبان معه، أحيانًا، ويستمتعان بضيافة والد خلف، الذي يطلب لهم المرطَّبات وما يتصادف لديه من حلوى، وقد يستمعون منه إلى مفارقات وأحداث طريفة تصادفه على هذه البوَّابة التاريخيَّة، خصوصًا التي تتعلَّق بالكتب الممنوعة، ويعرف أنَّها تثير فضول يونس. بيد أنَّ خلف أظهر موهبة في الصيد تبزُّ رفيقيه، بل وحتى سند، الصيَّاد الماهر، الذي كان يستصدر تصاريح خاصَّة للصيد في الصحراء، التي تعتبر منطقة شبه عسكريَّة وخطرة، نظرًا لأنَّها لا تزال مسكنًا لبقايا القبائل التي روَّعت سلطات الحامية وسكَّانها. كان كأنَّه يعود إلى سلالته الصحراويَّة ما إن يترجَّل من سيَّارة عائلة يونس اللاند

روفر، التي كان يسمّيها الأخير «المطيّة الميكانيكيّة». رغم أنّه لم يعش في الصحراء ولا عاش فيه أبواه، غير أنّ روح الصحراء تعود إليه وتتلبّسه. كان يسمع صوت تنفّس الأرنب البرّي قبل أن يفرّ من أمام خطى الصيّادين القادمة، أو من أمام أضواء اللاند روفر ليلاً. وكان يستطيع أن يميّز لون الحجل من حجر شبيه بجانبه، ويرديه أرضا عندما يطير ببندقيّة الصيد الخاصّة بسند، وعندما كانت مجموعة الأصدقاء تصطاد أرانب بريّة في الليل على أضواء السيّارة، التي تجمّدها في مكانها، كان هو الذي يهرع، بفرح طفوليّ، لالتقاط تلك الأرانب التي أنهكها الجري ولم يعد لديها مكان تأوي إليه.

كان خلف يحبُّ أن يصغي بعمق، ***تلك هي خصلته وفضيلته***، إلى يونس، أو أبو طويلة، يتحدّثان عن كتاب ما. قصّة. قصيدة. معرض تشكيليّ. أمّا الأفلام فكانوا يَحْضَرونها، غالبًا، معًا ويتحدّثون عنها بعد خروجهم من صالة السينما، وربّما ينشب النقاش بين يونس وأبو طويلة بسبب اختلافهما في تحليل الفيلم وفهمه. هكذا تكوّن لدى خلف، الذي يمتلك حافظة جيّدة، خزين من عناوين كتب وأسماء مؤلّفين وفنّانين تشكيليّين، ونبذات متفرّقة عنهم وأعمالهم، تشكّل مفاتيح لمحادثة سريعة في الأدب والفنّ، وتسهم في فكّ شفرة القراءات التي لا يني يجد نفسه في قلبها مع صديقيه، فأرَيْ الكتب، على حدّ تعبيره. وبصرف النظر عن الكتب والقراءات، تجذّرت علاقة الأصدقاء الثلاثة عبر أهمّ مرحلتين في تأسيس الذاكرة واحتمالات الحنين، الطفولة والمراهقة. كان هناك من ينضمّ إلى الشلّة، لسبب أو لآخر، لكن نواتها ظلّت مكوّنة من هؤلاء الثلاثة.

خلف ابن أحد شخصيّات الحامية المعروفة. فهو القيّم على معبر المشاة الذي يؤدّي إلى مركز الحامية المسوّر بحجارة بركانيّة، ويُعَدُّ معلمًا

من معالم المكان. إنّه الرجل الذي رمى نفسه على قنبلة أُلقيت على الحفيد، عندما كان يتفقّد سور الحامية والمدافع الكبيرة، التي بناها جدّه على جوانبها لتدبّ الرعب في قلوب من تبقّى من القبائل، التي كان الغزو مصدر عيشها. كان الحفيد وحاشيته قد وصلوا إلى معبر المشاة، الذي يشرف عليه والد خلف عندما تدحرجت قنبلة يدويّة أمامه مباشرة، فما كان من والد خلف إلّا أن رمى نفسه على الأرض، وأبعدها عن الحفيد قدر ما استطاع. انفجرت القنبلة وأصابت والد خلف بجراح بالغة كادت أن تكون قاتلة، لو لم يأمر الحفيد بنقله، على وجه السرعة، إلى مستشفى يعالج فيه هو شخصيًا وكبار قادته العسكريِّين والسياسيِّين. نجا والد خلف من الشظايا، التي اخترقت رأسه، فلم تعطب دماغه، بيد أنّه سيظلّ يحمل، إلى أن يموت، آثار الجراح في رأسه وثلاث أصابع فقط في كفّ يده اليمنى. هكذا نجا الحفيد من المحاولة رقم ٩ لاغتياله، بفضل إخلاص العسكريّ في الحرس الوطنيّ، مزيد حمدان، والد خلف، الذي يتحدّر من أصول قبليّة محلّيّة. في احتفال نقله التلفزيون الوطنيّ مباشرة، رأى المواطنون الآمر وهو يقلّد رجل الحرس الوطنيّ، مزيد حمدان، وسام الشجاعة، الثاني من حيث الأهمّيّة، بعد وسام الإخلاص الوطنيّ. مواصفات مثل مواصفات والد خلف تفتن الحفيد، فيقابلها بما تستحقّ من كرم الاحتفاء. فهذا هو نموذج المواطن المثاليّ في نظره. هكذا يكون رجال الحامية، الذين يصنعون استقرارها المحسود من قبل جيرانهم. يد الحفيد التي تنبسط، بشيء من الاشمئزاز للمتملّقين، تنفتح بأريحيّة في حالات التفاني والإخلاص له وللبلاد. هكذا وجد طلب خلف الالتحاق بمدرسة الحرس الوطنيّ ترحيبًا من الجهات المعنيّة، فهو، بعد كلّ شيء، ابن الرجل الذي أنقذ زعيم البلاد وقائدها من موت محقّق.

*

بعد كلام سريع وعابر، أبلغ يونس صديقه خلف أنَّه سيغادر البلاد لفترة من الوقت. لا تسألني عن السبب. قال لخلف الذي يعرف أنَّ يونس لم يغادر أرض الحامية من قبل. فهو لم يكن يعلم بسفرته إلى مدينة السندباد. لا أعلم كم ستطول غيبتي، لذلك أريدك أن توصل هذه الرسالة إلى رلى، من دون أن يعلم بها أحد آخر غيرها. لا أحد من عائلتي. مفهوم؟ مفهوم. مفهوم، قال خلف. كان قد مضى يومان على عمليَّة «الذئب»، شنَّ خلالها الأمن الوطني عمليَّات اعتقال واسعة في صفوف من يشتبه فيهم، بينهم أعضاء من تنظيم يونس.

كان القطار الذاهب إلى الحدود على وشك المغادرة. ينفث أنفاسًا سوداء ثقيلة، ويصدر عن مناورته الصغيرة قبل الخروج من المحطَّة فحيحٌ كأنَّه ديناصور أو تنِّين مُحْتَضَر، وثمَّة من يقفز بأكياس وحقائب إلى عرباته قبل أن ينطلق. تأثَّر يونس وهو يرى خلف، صديقه القديم، على وشك أن يذرف دمعة. وتأثَّر أكثر عندما خلع ساعته وقدَّمها إليه. أعرف أنَّك لا تحبُّ الساعات كما لا أحبّ الكتب،

ولكنّني لا أملك شيئًا آخر غيرها الآن أقدّمه إليك. أريدك أن تأخذها لتذكُرك بي. أرجو ألّا يطولَ غيابُك، قال خلف محاولاً أن يبدو مرحًا. تعانقا بتأثُر شديد، والقطار يتحرّك ببطء. ثم راح يبتعد. لم يغادر خلف مكانه إلى أن اختفى القطار. واختفى صديق طفولته فيه. فكّر خلف بيونس الذي ابتلعه الحوت. وهذه الحكاية يعرفها، لأنّها كانت مقرَّرة عليهم في دروس الدين. ولطالما ظنَّ أنَّ اسم يونس لم يكن صدفة سيِّئة على ما يقول صديقه. فيونس لم يكن يحبّ اسمه، الذي يذكِّره برجل عجوز من أقاربه لا يتحرّك من دون عكّازه. كان يرى اسمه يلائم رجلاً عجوزًا أكثر ممّا هو اسم صبيّ أو شابّ. كم من الوقت سيلبث يونس في بطن هذا القطار، وأين سينزله في نهاية المطاف؟ قال خلف في نفسه. كانت رسالة يونس، الموضوعةُ في مظروفٍ أبيضَ مستطيلٍ، وتحمل على غلافها الخلفيّ كلمتين بخطّه، لا تزال في يد خلف. تطلّع إليها، قرأ كلمتي يونس المكتوبتين بخطّ يبدو متعجِّلاً.. إنّه خطّ يونس، ولكنْ ليس فيه شيء من الجمال، الذي كان يتسلَّل إلى خطّه بتأثير، غير مباشر ربّما، بإرث عائلته. وضع خلف الرسالة في جيب قميصه العسكريّ.

لم يسأل خلف يونس عن سبب مغادرته المهرولة للبلاد بناء على طلب صديقه، لكنّه قدّر أن يكون السبب شجارًا مع عائلته، أخيه سند تحديدًا، بسبب حالة الإهمال التي يعشيها يونس وانعدام شعوره بالمسؤوليّة، وعدم مساعدته في شؤون المكتب طالما أنّه كان يقضي وقته مطرودًا من العمل أكثر ممّا كان يعمل بعد تركه معهد الصحافة في السنة الأخيرة. لكنَّ ذلك ليس مقنعًا. يغادر يونس البلاد ويترك رلى وراءه بسبب خلاف مع سند، أو حتى مع أبيه؟ لا. لا. لا.

ورد خاطر سريع في ذهن خلف يتعلّق بما جرى قبل يومين. هل

يمكن أن يكون ليونس علاقة بذلك؟ هل هو السبب وراء سفره المفاجئ إلى الخارج إلى حدّ أنّه يترك رسالة لرلى؟ لكنّه استبعد ذلك. ربّما لأنّه كان يرغب في ألّا يكونَ ذلك هو السبب. كما أنّه استبعد أن يبلغ جنون يونس وتهوّره حدّ التآمر على القتل. يونس، بعد كلّ شيء، شاعر. عاشق أسطوريّ لرلى. شابّ متهوّر. لم يعرف العوز ولا الحاجة. يتكلّم، يثرثر، يرمي كلامًا كبيرًا يجفلُ الآخرين، ولكنْ لا يمكن أن يكون جزءًا من مؤامرة، أو جماعة إرهابيّة. يمكنني تخيّله يفعل أيّ شيء سوى القتل، أو المشاركة فيه. أيّ شيء إلّا هذا، قال خلف في نفسه.

*

في القطار، وبعدما سلَّم خلف رسالة إلى رلى، ورأى يده الملوّحة تحرّك هواء المحطَّة الخاثر، ورأى النسر الذهبيّ المغبرَّ يدير وجهه إليه من عليائه، بدأ يونس يشعر بشيء يتحرَّك. . ليس القطار، بل معدته التي راحت تتقلّص وتكاد تصعد إلى حلقومه، فخطر في باله من كان يتحدَّث في بيتهم عن القلوب عندما تبلغ الحناجر. قلبه أو معدته؟ إنَّها معدته التي ضربتها صاعقة، ليس الألم ما يشعر به بل هو شيء آخر. شعر أنَّ يد خلف المعلَّقة بالهواء، التي صافحها آلاف المرَّات، وتعاركت مع يده آلاف المرَّات، لن يصافحها ثانية. كأنَّ آلة زمن حملته إلى المستقبل، ليس إلى الماضي لتغيير المستقبل، فهذا لا تجيده آلة الزمن اللعينة هذه. إنَّها تتحرَّك فقط إلى الأمام. نقلته من حيث هو في الدرجة الثانية لقطار ذاهب إلى الحدود، حيث رأى ما لم يكن يتخيَّل أن يراه من فرط غرابته. رأى والده يُهان بسببه، وأخاه سند يحاول حمل عبء العائلة بعد تضعضع صحَّة الوالد واعتكافه في محترفه لا يكاد يخرج منه مُنكبًّا على رِيَشِهِ وأحباره وأسرار حروفه

الإلهيَّة، وأمّه تمعن في مناجاة الطيور الطائرة، تناجي الحمام واليمام والسنونو ومالك الحزين والهدهد والكراكي وأبو الحنّاء، لعلّها تأتي بخبر من ابنها الغالي، وإخوانه وأخواته الأصغر يكبرون من دون أن يحملوا في ذاكرتهم العديد من الصور والذكريات عنه، ورأى أنّه سيعرف البرد، ويظلّ يمشي حتى تتعب خطاه من المشي فيتوقَّف في بلدة لا يعرفه فيها أحد، عَطِشًا، مهدودًا، وأنّه سيطرق أبوابًا في بلدة يمرُّ أناسها من جانبه ولا يرونه، ولا يفتح له أحد، فيسمع خرير ماء قريب فيمشي إليه ويمشي، والخرير يحافظ على مسافة البعد والغموض نفسها. كابوس قال، كابوس. نفض رأسه، فتطايرت حبَّات عرق ساخنة من جبينه، ذهب إلى حمَّام القطار، صدمته رائحة البول والأمونيا، كتم نفَسَه، فتح صنبور الماء ورشَّ وجهه. في الكابوس، الذي حملته إليه آلة الزمن، لم يستطع أن يرى رلى في أيّ مكان، كانت كأنَّها خارج الزمن وخارج المكان، تنظر إليه بالحنان نفسه والشغف نفسه والعتب نفسه، الذي يعرفه، ولا شيء يفاجئه، لا شيء تنبئ عنه صور المستقبل التي كانت تحمله إليها آلة الزمن، حتى نظرة الشغف والحنان والعتب هذه، لم تكن تشير إلى ما يمكن حصره في حدث أو موضوع. كأنّ رسالته إليها لم توضح موقفه، بل كأنَّها لم تكن. ثم امَّحت هذه الصور الطافية. حاول استعادتها بلا جدوى. فكَّر: أعرف هذه المكايدة، لعبة الذاكرة الصبيانيَّة، إن رغبت كثيرًا في استعادة شيء ما يستعصي عليك، إنسه، لا تفكِّر فيه، تجاهله، سيأتي لوحده. وبدلاً من رلى، التي يرغب في استحضارها، الآن وهذه اللحظة، حضر في ذهنه، من دون رابط أو سياق، وجه سلمان أستاذه الشعريّ. عجيب، قال.

كان يونس ينادي الشاعر سلمان الكتبي، أستاذي، ولم يتغيَّر هذا

اللقب رغم توطُّد العلاقة الشخصيّة بينهما. وها هو أستاذه الشعريّ يحضر من غير استدعاء، وفي اللحظة الخطأ والمكان الخطأ. ماذا جاء بك يا أستاذ سلمان؟ أنت يا من وضعتني على درب الشعر الطويل. الشعر، وليس السرد، وليس القصّ والحكي، ملاذي عندما تنغلق الأبواب في وجهي وتنسدّ المنافذ. لم أعرف انغلاق الأبواب وانسداد المنافذ من قبل. كنت أسمع بهذا من الرجال والنساء الأكبر سنًّا، وكنت أظنّ أنّ الأمر مجرَّد مجاز مهلهل، فكيف يحدث هذا والعالم واسع ومنافذه عديدة؟ كيف يصبح العالم الواسع هذا أضيق من خرم إبرة؟ تذكّر قول والده عن عبور الجمل من سمّ الخيّاط. أنا الآن، في هذا القطار الذي يترنّح تحت ثقل عمره وحمولته من البشر البائسين وبهائمهم وأعلافهم وحقائبهم وآمالهم، انغلاق الأبواب وانسداد المنافذ حقيقة لا مجاز فيها. كانت هناك دائمًا أبواب تفتح لي، أبواب في وسعي دقّها، أبواب أدخلها بخطوة واثقة أو متنزّهة أو متخوّفة، غير أنّي لم أجد في وضعي هذا، عندما ضاقت الدنيا في وجهي، حقيقة لا مجازًا، بابًا أفتحه من دون أن ألحق الأذى بمن سيفتح لي. الباب الوحيد، نصف الباب، الباب الموارب الذي دققته وفتح كان خلف. شكرًا لأنّك موجود يا خلف، فمن سواك كان سيحمل رسالتي إلى رلى؟ حبّي ونفسي وبهجتي. كان يمكن أن تكون هي الباب الذي ألوذ به عندما تغلق في وجهي الأبواب، وعندما تنسدّ المنافذ، وعندما أنادي ولا أسمع جوابًا، كأنّي صوتُ صارخٍ في البريّة، ولكنْ ليس الآن وأنا بهذه الحمولة الثقيلة التي أحملها على ظهري، ليس الآن بعدما قطعت جسري مع العالم الذي تقيم فيه، فصار بيني وبينها بحر متلاطم، لا ألومها إن رمت رسالتي إلى سلّة المهملات وقالت إنّي أنا من قطع الجسر الذي يؤدّي إليها. فعلتَ ذلك عن سابق إصرار وترصُّد

بوسع القصيدة أن تفعله لي الآن؟ القصيدة التي كانت ملاذي وعزائي ووعي. بيدكَ أنتَ فعلتَ ذلك. ما الذي جاء بك يا أستاذ سلمان؟ ماذا ونميمتي وبوصلتي؟ هل تظنّ أنّي في حاجة إلى عينيك الذاويتين وفمك المزموم وأخاديد خدَّيك وجروح روحك التي لا تشفى؟ ولكن ما ذنبك أنت؟ أنت حدَّثتني عن الشعر وقلت لي إنَّه درب طويل ومؤلم، ويشبه طريق الذي صعد الجبل وعلى رأسه إكليل من الشوك. كان كلامك عن الشعر يشبه الشعر غير قابل للتصديق، فالشعر لا يسعى إلى هذه الحقائق التي يتنافس عليها الناس ويتصارعون ويكذبون ويقتلون، لأنَّها حقائق ضيّقة، وغير قابلة للشكّ والاستئناف، للشعر حقيقة مقدودة من معدن أقلّ ندرة في الطبيعة من الذهب، لأنَّ الشعر، عكس الكلام، قليل. وعكس الثرثرة نادر.

كأنَّ في داخل يونس أكثر من يونس، ولكلّ واحد منهم منولوجه، ففي الوقت الذي حضر في ذهنه، من غير استدعاء، وجهُ أستاذه الشعريّ وراح يتكلّم إليه، كان هناك، في اللحظة ذاتها، منولوج آخر، مختلف تمامًا يدور في داخل يونس الثاني، أو الثالث، ولم يكن له علاقة بالصور التي حاول استعادتها من ألبوم رأسه:

ذاكرة يونس الخطّاط المتقافزة مثل خطاه وذهنه المضطرب لم يتوقّفا عن استعادة الأحداث، التفكير فيها، المقارنة بينها، حلفها كلّها والبدء من جديد، بحثًا عن إجابة على سؤال واحد، سؤال أخير، أهمّ سؤال بعدما لم يعد ممكنًا إعادة الزمن إلى الوراء، ولا بأيّة آلة زمنيّة: لماذا أنا الذي عُهِدَ إليه بهذه المهمّة؟ لماذا أنا بالذات؟ وهذه هي الأجوبة التي بسطها شيطانه الداخليّ أمامه:

لأنّك ابن الخطّاط، الرجل العَلَم في الحامية، المقرَّب من مكتب الحفيد، وسليل مؤسّسي الكيان اللذين لا يرقى، في العادة، شكٌّ في

ولائهم، وإخلاصهم لسلالة الجنرال الأصهب.

ولأنّك كذلك، فقد اهتمُّوا بك مذ التقيت ذلك الرجل الذي جلس بجانبك في مقهى، وبادرك بالحديث عن كتابٍ كنت تضعه أمامك على الطاولة، وقاد هذا الحديث العارض إلى أحاديث ولقاءات أخرى صارت، بعد قليل، أكثر بعدًا عن الأعين، وأكثر تخصُّصًا، ولم تعد إلى ذكر ذلك الكتاب الذي كان على الطاولة قط.

ولأنّك كذلك، فقد اهتمُّوا بتلميع اسمك المتداول، حتى تلك اللحظة، في أوساط المراهقين، وممارسي الحبِّ عبر النظرات والتنهُّدات والرسائل، فأوكلوا لآلتهم الإعلاميَّة الخفيَّة، بزجِّ اسمك بين أسماء كبيرة أين أنت منها، وطلبوا من المحسوبين عليهم، وحلفائهم، في الجمعيَّات والنوادي الأدبيَّة والفنيَّة وضعك على قائمة برامجهم، لغرض في أنفسهم وليس بالضرورة بسبب موهبتك.

ولأنّك كذلك، يعني ابن الخطَّاط وسليل العائلات المؤسِّسة، تمَّت ترقيتك، بسرعة، في الأطر التنظيميَّة، ولهذا السبب طلبوا منك نقل الرسالة، التي أوحوا إليك بخطورتها وأهمِّيَّتها بالنسبة للتنظيم، ورتَّبوا لك لقاءً مع الأمين العام، أُحيط بغموض وترقُّب، في مدينة السندباد حتى تتأكَّد من جدارة وضعك والثقة الموضوعة فيك، وليس لأنّك شابٌ مؤمن بالتغيير إلى حدود الإطاحة العنيفة بالعالم القديم وإلقائه في سلَّة مهملات التاريخ على حدِّ تعبيرك. ولكن ماذا ستفعل لو علمت، مثلاً، أنْ لارسالة كانت في كعب فردة من حذائك التي لم تجوَّف أصلاً، ولم توضع فيها رسالة، وكلّ ما حصل هو الإيحاء لك بأهمِّيَّة ما يسندونه لك، وبأنّك موضع ثقة مطلقة، وإلَّا ما رتَّبوا لك لقاء مع الأمين العام في بيته، أو ما أوحى إليك بأنَّه بيته، وتناولك طعام العشاء إلى مائدته مع من ظننت أنَّها زوجته.

ولمّا بلغ يونس هذا الحدّ من حضيض الشكّ في نفسه، إلى هذا القاع الذي ليس بعده قاع من عدم الثقة بالنفس وانعدام الجدارة، وإلى هذا الحدّ من الشكّ في التخطيط التآمريّ، الانتهازيّ، الاستغلاليّ، اللامبدئي لرفاقه، وربّما أيضًا ضحكهم عليه عندما كان يلير ظهره، انتفضت كبرياؤه، وكرامته المهدورة، واعتزازه بنفسه، وتمكّنت هذه الثورة، التي لم يَرَ شراراتها ولهبها المتصاعد أحدٌ من ركّاب القطار، من بسط بعض الإشارات والدلائل التي تنفي ما سبق، وتؤكّد عكسه، مثلاً:

إنّك لست الوحيد من نسل مؤسّسي الحامية في التنظيم، ولا الوحيد الذي له أب معروف وعَلَمٌ في مجاله، ولست وحدك من يعرف الطرق إلى مركز الحامية وكيف يخرج منها، فإن أردت مثالاً حيًّا، قريبًا، كي لا تفضح أسرار التنظيم، فها هو صديقك أبو طويلة من أبناء العائلات الأولى، التي جاءت مع الجنرال الأصهب مثلك، ووالده مدير مرموق في المؤسّسة الوطنيّة للإسكان، كما أنّه يكتب شعرًا ومقالات مثلك حتى وإن كانت كتابته، في رأيك ورأي بعض النقّاد، ليست بجودة كتابتك. فلِمَ لم يقع عليه الخيار؟ لِمَ لم يكن هو؟

اقتنع يونس، بعض الشيء، بهذا المثل، لكنّه لم يكن قادرًا على إيقاف حلقات الشكّ والريبة وتأرجح الثقة بالنفس التي ظلّت تتوالى على ذهنه، فمن يستطيع أن يوقف وسواس الشكّ إذا تسلّل إلى ذهن إنسان؟ ثم عاد يسأل نفسه: لماذا أنا؟ وأجاب على سؤاله:

لأنّي متحمّس.

متهوّر.

عاطفيّ.

مبدئي.

مغامر.

ليست عندي حسابات من وراء انخراطي في التنظيم، فماذا سأكسب من وراء ذلك غير المخاطر وربَّما الهلاك؟ ثم قال لنفسه: أنا موهوب. أنا شاعر موهوب، أنا أعرف الشعر وأعرف أنّي شاعر موهوب، ولم يلمّعوا اسمي، بل ساعدوه على الانتشار في أوساط جديدة مختلفة عن الأوساط التي كنت أتوجَّه إليها سابقًا. أنا لست ضحيَّة لعبة لا أعرف قواعدها ولا من يديرها، أنا لست مخدوعًا. أنا لست فارس طواحين الهواء، وهم لا يضحكون عليّ عندما أدير ظهري ويقولون انظروا إلى هذا الساذج الذي قلبناه ضدَّ سلالته وجعلناه خاتمًا في إصبعنا لمجرَّد أنَّنا دلّكنا نرجسيَّته الطفوليَّة قليلاً! ليسوا خسيسين ليقولوا ذلك. لم يغرِّر بي أحد. كنت أعرف المخاطر كلّها، ورغم ذلك، أقدمت على ما أقدمت عليه بإيمان داخليّ عميق، هذا هو دوري في حركة التاريخ مهما كان صغيرًا، ومجرَّد شكّي في ذلك يعني أنَّ حياتي لا معنى لها، يعني أنّي ألقيت نفسي في التهلكة وأنا مغمض العينين. المهمّ الآن أن أنجو من أيديهم لكيلا يذلّوا أبي بسببي، بإمكانه التبرُّؤ منّي عندما أكون في الخارج، فليقل إنّني لست ابنه، وإنّي جلبت عليه العار وعلى العائلة. لا يهمّني، المهمّ ألَّا يتعرَّض للإهانة. لا أستطيع أن أتعايش مع فكرة إذلال أبي. سيكون انتقامي كبيرًا ومدمِّرًا إن حصل ذلك.

*

بحث خلف عن سيَّارة أجرة للذهاب إلى السوق التجاريّ. كان يريد أن يشرب فنجان قهوة في مكان شلَّته المفضَّل، ويفكِّر في ما حصل للتوّ قبل أن يعود إلى عمله. يحتاج إلى أن يفكِّر. فما حدث قبل قليل لم يتوقَّع أن يصادفه على الإطلاق: رحيل يونس عن البلد؟ شعر أنَّ ورقة من أوراق حياته سقطت. هناك شيء انتهى للتوّ. هذا الشعور لا تخطئه الأعماق.

عندما وصل إلى مقهى الزنبقة السوداء، لم يَرَ أحدًا من الذين يعرفهم. فقد حالت الحرارة المرتفعة، أو حالة الطوارئ المعلنة في البلاد، دون خروج الناس، بل والكائنات الحيَّة الأخرى، إلَّا للضرورة. حتى المعلِّم إحسان الشطِّي، الذي نادرًا ما يغادر المقهى، لم يكن موجودًا. هناك ابنه تيسير. وهذا شخص جافّ، لا يشبه أباه المرِحَ والاجتماعيّ في شيء. وجيّدٌ أنَّ المعلِّم الشطِّي غير موجود، لأنَّه لا يرغب في الكلام والدردشة. ليس الآن، على الأقلّ. طلب قهوته المعتادة، بسكَّرٍ خفيف، أشعل سيجارة من علبة عليها ألوان

العلم الوطنيّ الثلاثة، وراح يفكّر في ما حصل قبل قليل في محطّة القطارات المركزيّة.

كانت السماء غائمة بعض الشيء. هناك رطوبة في الجوّ سببها الحرّ الذي يبخّر كلّ شيء. جلس خلف إلى طاولة قريبة من الباب الكبير الذي يطلُّ على الشارع. ولكن لا نسمة هواء واحدة. كأنَّ الهواء معطَّل. فكَّر. هذا مجاز يمكن أن يروق ليونس. على الجهة الأخرى من الشارع، كانت هناك شجرة تين تصطلي بحرِّ الخارج. لم تخفّف الغيمة التي تلبِّد السماء من سطوة الحرارة، بل جعلت الجوّ خانقًا أكثر. شجرة التين، التي لطالما رآها ولم يعرها انتباهًا، تبدو معمّرة. على أوراقها الخضراء القاتمة طبقة من الغبار وفيها بعض أكواز تين ناضجة في الأعلى، حيث لا تستطيع أن تبلغها أيدي العابرين. غمرته ذكرى مضحكة من طفولة الأصدقاء الثلاثة. في السنة الأخيرة من مرحلة الدراسة التكميليَّة، كانوا يجلسون تحت شجرة تين عجفاء بالقرب من المجرى المائيّ، الذي يفصل مركز الحامية عن البلد. في ظهيرة تطقطق فيها الأشجار والحجارة ويتفتَّتُ التراب من فرط الجفاف وقوَّة الهجير، هبطت تلك الفكرة الجهنَّميَّة على رأس يونس.

قال في لحظة إلهام وهو يتطلَّع إلى شجرة التين فوق رؤوسهم: أتعرفون كيف يمكن للواحد أن يكبِّرَ أيره؟ فوضع الثلاثة، من دون وعي، أيديهم على فتحات بناطيلهم حيث ترقد أعضاؤهم، التي لم يستخدموها، حتى ذلك الوقت، إلّا للتبوُّل، رغم معرفتهم بأنَّ لها استخدامات أخرى بدأت تطلُّ برأسها من فتحات تلك البناطيل.

قفز يونس إلى الشجرة وجمع بضع حبَّات تينٍ غير ناضجة، ورماها إلى خلف وأبو طويلة. قال: ادهنوا عضويكما بحليبها. لم تكن القطرات البيض التي استخلصوها من تلك الثمار الفقيرة كافية

لدهن كامل أعضائهم، فقفز الثلاثة إلى الشجرة وجمعوا مزيدًا من حبّات التينة وأوراقها ودهنوا أعضاءهم. كان حليب التين اللزج، ذو الرائحة الحرّيفة، حارقًا بعض الشيء. لكنْ سرعان ما راح الحريق يندلع في عضوي خلف وأبو طويلة، اللذين كبرا فعلاً. ضحك يونس، الذي تبيّن أنّه كان يخاتلهما ولم يدهن عضوه، من كلّ قلبه وهو يراهما يركضان كالمختونين حديثًا في أكثر من اتّجاه، ثم عندما رأياه يكاد أن يقع على قفاه من الضحك عادا إليه وأوسعاه ضربًا. كان يونس قد عرف مفعول حليب التين من أخيه سند وجلسة مع أصدقاء مماثلين. الحكايات والتجارب تتكرَّر، ولكنْ في أزمنة وأشخاص آخرين. والأهمّ بإضافات جديدة، إضافات نهر الزمن المتدفّق بلا توقُّف. تكرُّر يعني أيضًا أنّها لا تتطابق.

أخرج خلف المظروف وأخذ يهوّي وجهه، ثم أعاده ثانية إلى جيب قميصه. هل سِرُّ رحيل يونس المفاجئ موجودٌ في الرسالة؟ تساءل. ولكنّي لن أفتحها، قال لنفسه. لقد ائتمنني يونس، من بين جميع الذين يعرفهم، على حملها، وتعهَّدت له بإيصالها في أقرب وقت ممكن. فكَّر بكلمة يونس، التي لم يسمعها من فمه سابقًا، عندما ألحَّ على إيصال الرسالة إلى رلى، بسرعة، ثم أضاف: رجاءً.

*

لكن مشكلة يونس، التي لم يعرف خلف كنهها، حتى تلك اللحظة، لم تكن مع عائلته. عندما أعملِ فِكْرَهُ كان على قناعة بأنَّ مغادرة يونس بلاده، وعلى عجل، لا يمكن أن تكون بسبب خلاف مع أخيه سند، الذي زادت مشاجراته معه في الفترة الأخيرة، ولا مع أبيه. ولكن لِمَ لا تكون مع رلى؟ سيعرف السبب. ولكن ليس في هذه اللحظة التي يستعدّ فيها للعودة إلى مكاتب الحرس الوطنيّ، داخل أسوار مركز الحامية. بيد أنَّ يونس كان، دائمًا، على خلاف مع عائلته. إن لم يكن مع أبيه فمع أمّه، وإن لم يكن معهما، فمع أخيه سند. ولكنَّه خلاف من ذلك النوع الشائع، بل الحتميّ في فترة من عمر الأبناء. فالوقوف في وجه الأهل سُنَّة. هذه طريق لا بدّ من سلوكها، كالخيط المعلّق بين الجنَّة والنار، على الجميع عبوره. إنَّهم السلطة الأولى التي ينبغي أن تُحارَب كي تُفْسِحَ المجال للأبناء لِشَقّ طريقهم. لم يفكِّر يونس في الأمر على هذا النحو، ولا على أيّ نحو آخر. فالأبناء مثله، في فتوّتهم، لا يفكِّرون بذلك. إنَّهم يتصرَّفون.

اعتبر يونس أنَّ الانجراف في تيَّار مغاير لتيَّار الأهل قانون طبيعيٌّ، عضويٌّ ونفسيٌّ في آن. يحدث هكذا مثلما تَشُقُّ الأسنانُ طريقها في اللحم، والبذرة التربة التي تحتضنها لتخرج إلى الضوء والهواء. هكذا تحدث الأشياء في الطبيعة، بنوع من القسوة، ومن دون حاجة إلى الفذلكة.

العلاقة المتراوحة بين الحبّ والتنافس، التمرُّد وسلطة الأخ الأكبر التقليديَّة، حدثت مع أخيه سند. ثلاث سنين تفصل في العمر بينهما. كان هناك أخ آخر مات في المهد يتوسَّطهما. وهذا جعل العلاقة بينهما أقرب وأكثر احتدامًا. فلا توسّط بين سند ويونس. لا فاصل. لطالما قال يونس، إنّه لن يطيع سند، في كلّ حال، لمجرَّد أنَّه أخوه الأكبر، حامل أختام سلطة الأب. فهو يعتزُّ بشخصيَّته المستقلَّة من دون سبب كاف لهذا الاعتزاز سوى، ربَّما، بريقِ الإعجاب الخفيّ، الذي يلمحه في عينيْ والده بين حين وآخر. لم يظهر هذا الاستقلال إلَّا باللفظ. فهو يعيش مع عائلته. يعتمد عليها ماليًّا. لم يكلِّف نفسه مساعدة والده في أعمال المكتب المتشعّبة، كما يفعل سند، إلَّا عند الضرورة. سند هو الذي صار يشرف، تقريبًا، على كلّ أعمال المكتب بعد تخرُّجه من دراسة الغرافيك في كلّيّة الفنون. كان هذا يسبِّب انفجارات بين الاثنين. عدم مبالاة يونس، أو تعاليه، على أعمال المكتب التجاريَّة المزدهرة، وازدرائه للعمل التجاريّ عمومًا. وقد أدَّى الشجار بينهما إلى حدّ الانفجار ومغادرة يونس البيت والسكن في حيٍّ قريب من معهد الصحافة العالي حيث كان يدرس. كان ذلك بعدما تعرَّف إلى الحنَّاوي في مقهى الزنبقة السوداء، وبدأت صداقة سريعة بينهما. فقد وجد يونس في الحنَّاوي الشيء الذي لم يجده في أفراد شلّته. معرفة الشعر والاطِّلاع العميق على التراث بنظرة نقديَّة، نادرًا ما سمعها في محيطه.

ولكنْ رغم علاقته المحتدمة مع أخيه سند، كان يونس يثق به. كان يخبره ما لا يخبر به أحدًا آخر. كان موضعَ سرِّه. أخوه شهاب كان أصغر من أن يدخل معه في أمور تخصّ «الكبار»، رغم محاولاته المضنية التعلُّق بأذيال يونس وتقليده. وهو ما كان يدعو يونس إلى ردعه بقوَّة، غير أنَّ شهاب لم يرتدع. فقد كان يرى في يونس النموذج الذي يريد أن يكونه عندما يكبر. شهاب هو أكثر من أحبَّ يونس بين إخوانه، وأكثرهم شبهًا به.

كانت هناك مواضيع مشتركة بين سند ويونس، منها مثلاً، موقفهما من قضايا التراث. فقد كانا يريان أنَّ أباهما، الخطَّاط العظيم، لا يبذل جهدًا للتماشي مع العصر، بل لا يرغب. بيد أنَّ تعبير يونس عن هذا الموضوع أكثر شراسة من أخيه. تعبير يفتقر إلى الحصافة والدبلوماسيَّة، اللتين يتحلّى بهما سند ويفتقر إليهما أخوه الأصغر. سند أقرب إلى أبيه في الاهتمامات، وقد درس الغرافيك لأنَّه يحبُّ الخطَّ والرسم والتصميم، وليس لأنَّ الخطَّ مهنة العائلة المتوارثة. فهو مثل أبيه لا يرى الخطّ مهنة تُدَرَّسُ، بل موهبة مثلها مثل الشعر والرسم يمكن صقلها بالتعلّم، ولا بدّ من التعلّم سنين طويلة، على يد أستاذ في الخطّ ويجاز منه، قبل أن يتمكّن المرء من القول إنَّه دخل عالم الخطّ الواسع والمعقَّد، ولكنْ لا بدّ أوّلاً من الاستعداد الداخليّ، الذي يسمَّى: الموهبة، ثم الصبر.

لذلك لم يهتمّ يونس كثيرًا بأعمال أبيه.. كان يرى فيها محاولة عنيدة لمواصلة شيء انقرض. فالطباعة والمكننة والتقنيَّات الحديثة هي السائدة في المهن الكتابيَّة. حتى اليافطات واللوحات التي تحمل أسماء الشوارع وتشير إلى الاتِّجاهات يُكتب معظمها بخطوط آليَّة. والد يونس اضطرّ، بطلب مباشر من الحفيد، أن يضع خطوطًا للاستخدام

الآليّ واسع النطاق في الحامية. فلم يعد ممكنًا الاعتماد على الخطّاطين في كلّ ما له علاقة بالكتابة.

الآلات تزحف على الأيدي وتقضمها تدريجيًا، ولن تكون هناك حاجة إلى الأيدي التي بنت العالم حجرًا حجرًا إلّا في أضيق الحدود.

ربّما بسبب انشداده إلى الحداثة، التي تكتسح الكلام على الشعر والرواية والقصّة والرسم وما شابه ذلك، صار يرى في أعمال أبيه في الخطّ انغلاقًا في عالم سابق، لن يعود. زمن يجرجر نفسه بالقوّة في الوقت الراهن. الغريب أنَّ علاقة يونس بأبيه كانت مميَّزة، رغم كلّ تخرُّصاته عن الحداثة وقتل الأب المعرفيّ والقطع مع الماضي، وما شابه من ألفاظ ومصطلحات غريبة، شائعة في الصحف والمجلّات، يلوكها مَنْ يعرف ومَنْ لا يعرف. فوالد يونس، الخطّاط المتصوّف، لم يكن أصلاً قاسيًا ولا ذا صوتٍ عالٍ مع عائلته. أمّ يونس، مربّية الأجيال، كما يناديها ابنها الثاني بخليطٍ من الحبّ والتهكّم معًا، هي التي تولّت هذا الدور، ولم تيأس قَطّ من انعدام مردوده. حاول والد يونس أن يقرِّبه من عالمه. كان يطلب منه حضور صالون الخميس، ويضمّ طيفًا من المهتمِّين بالفنون والأدب التراثيَّة. الكنوز الذهبيَّة للأسلاف التي يليق بها، في نظر يونس، المتحف أكثر من أيِّ مكان حيّ آخر. وقد حضر يونس العديد من هذه المجالس، وسمع الكثير عن ابن مقلة والبوَّاب والآمديّ والبغداديّ، من أرباب الخطّ قديمًا وحديثًا، وعن دور الأمبراطوريَّة المميَّز، برأي أبيه، في الحفاظ عليه وتطويره باعتباره فنًّا مقدَّسًا، كما سمع كلامًا متفرّقًا عن السهرورديّ والحلّاج والشيخ الأكبر، والحبّ الإلهيّ والحبّ الأرضيّ، ودعاوى القائلين بأنَّ الشعر القديم منحول وليس أصيلاً، وإنَّ شعراءه لم يكونوا حقيقيِّين. لكنَّ الأب المتسامح لم يعد يجبر ابنه على حضور مجالسه،

عندما صار قادرًا على قول لا، لا أريد. فهو لم يكن يؤمن بأنَّ على الابن أن يرث أباه في كلّ شيء. فقد كان يقول إنَّ هناك أشياء لا تورَّث، وإنَّ ورثتها قد لا يكونون من صلب المرء. هناك ورثة آخرون للأنبياء والعلماء والسالكين ليسوا، بالضرورة، من أصلابهم. هكذا يفكِّر.

كانت هناك لوحة معلَّقة في بيتهم للبغداديّ، رأى فيها يونس تناقضًا، كما قال لوالده ذات مرَّة. كان الأب يحبُّ سماع شطحات ابنه. وعندما يُسَرُّ بهذه الشطحات تلمع عيناه ببريق عميق، ويجاريه فيها. اللوحة مكتوب عليها هذه الآية: ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب. فقد استغرب، في حديثٍ مع والده، التناقض بين حركة وتدافع الخطّ الديوانيّ الجليّ والزخرفة والتشكيل اللذين ملأ بهما الخطَّاط فراغات اللوحة، وبين معنى الثبات والاستقرار والاطمئنان والركوز الذي تتحدَّث عنه الآية. الاطمئنان راسخ. فيه استقرار، ثبات، وخطّ اللوحة الديوانيّ متراقص ولاعب، وخفيف. لمعت عينا والده. قال له إنَّه شخصيًّا يميل، كما يعرف، إلى التقليل من الزخرفة. ويونس يعرف بالطبع كلام والده عن الحرف والفراغ، الحرف والمعنى القدسيّ الثاوي فيه. بيد أنَّ الأب أثنى على براعة البغداديّ الفنّيَّة، وليس بالضرورة على اختياراته اللفظيَّة والمعاني التي تسكنها. فالخطُّ، والتجديد فيه، عند البغداديّ هما الشاغل الأوَّل، هما الأساس، بينما عند والد يونس المهمّ هو المعنى، بل السرّ الثاوي في الحرف. كلّ حرف له تفسير خاصّ عنده، وله دلالة لا تدركها اللغة العاديَّة، أو الاستخدام الوظيفيّ للغة. وربَّما لا يدركها البصر العادي. تحتاج إلى أبعد من البصر لتراها. عليك أن تدخل في الحرف لترى ما فيه. ولكنْ، هذا لا يعني أنَّ الخطَّاط الأب منقطع عمَّا يحصل. فعالم

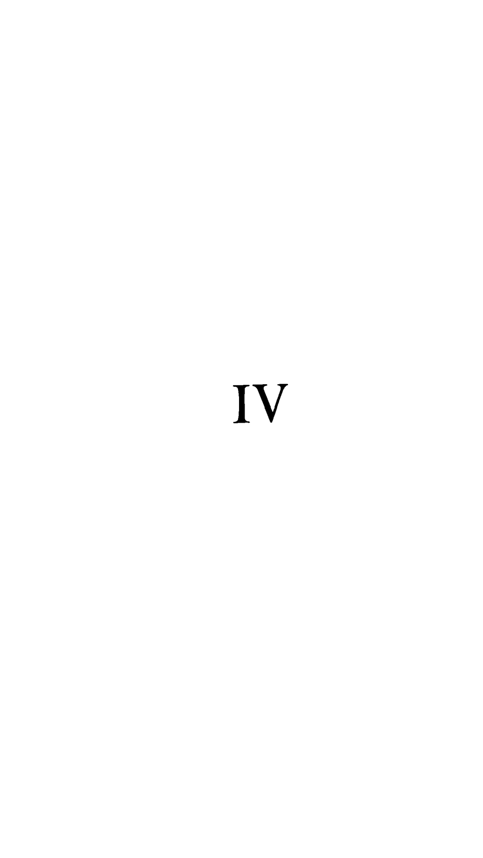
الخطّ صغير، ومخصوص، ويكاد أن يكون مغلقًا. ويخشى الأب أن يُقرض، إن لم يرفد بدماء جديدة. ومن الدماء الجديدة، اجتمع يونس ووالده على الإعجاب بأعمال المروانيّ، التي تمزج بين احترام القوانين الأساسيَّة للخطّ والجرأة على التجديد، والابتعاد عن الكليشيهات، التي غالبًا ما تلجأ إليها اللوحات الخطّيّة، وبالأخصّ التي تقتبس آياتٍ وأبياتَ شِعر، فاللوحة عنده هي التي تصنع معناها بنفسها وليس ما تستقوي به على المشاهد من كلمات واقتباسات دينيّة. فلا فضل لك في ما هو فاضلٌ في ذاته، هكذا كان الأبُ يقول.

*

جيء بأمهر الأطبَّاء لإنقاذ حياة المسلَّح الثاني، الذي تلقَّى ثلاث رصاصات، اثنتين في المعدة وواحدة في الصدر. رصاصتا المعدة هما الأخطر، لأنَّ رصاصة الصدر كانت في الجهة اليمنى فوق الرئة. كان قد نزف كمْيَّة لا بأس بها من الدم. حاول طاقم الإسعاف وقف النزيف، لكنَّهم لم يتمكَّنوا تمامًا إلَّا عندما وصلوا إلى المستشفى العسكريّ. فتَّش رجال من الأمن الوطنيّ ثيابه، حتى الداخليَّة، ولم يعثروا على ما يشير إلى هويَّته. كان اسمه على البطاقة الوطنيَّة التي يحملها بلال عبد القادر. عشرون عامًا. جهة الولادة إقليم الوسط. لكن، اتَّضح أنَّ هذه المعلومات مزوَّرة. تعيَّن عليهم أن يأخذوا بصمته للتأكُّد من هويَّته الحقيقيَّة في السجلّ المدنيّ. عرفوا من يكون المسلَّح الذي أصاب الحفيد بجرح في كتفه. اعتقلوا والده وإخوته الذكور وبعض أصحابه، الذين يلعب معهم الورق في مقهى الحيّ. لم يتوصَّلوا إلى شيء مفيد سوى أنَّه كهربائيّ في مصنع لتجميع الغسَّالات، يعطي أهلَه ثلاثة أرباع راتبه ويُبقي الربع الباقي لمصروفه الشخصيّ. لا

حياة ليليَّة. لا شرب. ولا حتى مراهنة على مباريات كرة القدم أو سباقات الخيل. أهله وأصحابه وزملاؤه في العمل لا يعرفون شيئًا عن جانبه الآخر. كان غريبًا أن يكون من إقليم الشرق، حقيقة، وليس من الجنوب أو الغرب، حيث ينتسب معظم الذين قاموا باغتيال، أو محاولة اغتيال، شخصيَّات رفيعة في الحامية. لم تصل التحقيقات حول المسلَّح الثاني المسجّى في غرفة العناية الفائقة إلى أكثر ما وصلت إليه بخصوص المسلَّح الأوَّل، الذي قُتل على الفور. أيضًا هويَّة مزوَّرة. الحقيقة: تسعة عشر عامًا، من إقليم الغرب، موظَّف حديث الالتحاق في هيئة النقل الوطنيَّة.

*



IV

لم يعرف يونس كم علاقته قويَّة بأبو طويلة، إلَّا عندما رآه يدخل بيت المزرعة. فرح من كلّ قلبه برؤيته، وعدَّ ذلك هديَّة غير متوقَّعة، بالمرَّة، في ظرفه الحالك. أحسَّ بالامتنان، *لمن؟ لا يعرف!* على وجود صديق طفولته هذا، الذي يكاد ينكّد عليه في كلّ شيء، ويشعر بغيرته حيال كلّ أمور حياته تقريبًا، بدءًا من علاقته بوالده الخطَّاط العظيم، الذي لا ينهر ولدًا، عكس أبيه الذي لا يكفُّ عن تقريعه والتقليل من شأنه، إلى رلى الحبّ الذي يشبه الشِّعْرَ فقط، الحبّ الذي لم تفلح علاقته المدبَّرة بهالة أن تصنعه، إلى شعور الآخرين بصدقه الذي يعبِّر عنه على نحو حماسيّ متفجِّر. لكن لا يهمّ لا يهمّ، كأنَّ يونس آخر نطق هذه الكلمات، التي تعتبرُ كلَّ ذلك ضريبةً صغيرةً وبلا أهمِّيَّة، يجب أن تُدْفع في العلاقات الإنسانيَّة، وربَّما هي أعراض جانبيَّة ملازمة للصداقة ينبغي التعايش معها. فالأصدقاء ليسوا صدى لبعضهم بعضًا، ليسوا وجهًا واحدًا لقطعة العملة نفسها، فكَّر.

كانت الأفكار تتقاذف يونس في الليلة التي قضاها هنا. بلا نوم.

دخّن عشرات السجائر وشرب العديد من فناجين القهوة. لو كانت هناك مشروبات كحوليَّة لكان الآن غائبًا عن الوعي. كان التنظيم قد أخلى بضعة أعضاء ممَّن لهم علاقة بالعمليَّة، شراء الأسلحة، النقليَّات، التدريب. كانوا خمسة. على هؤلاء أن يغادروا إلى الخارج فورًا. لا يعرفهم يونس ولا يعلم، أساسًا، كيف وأين، تمَّ التخطيط للعمليَّة ومن سيشارك فيها. كان يعرف دوره فقط، وعندما التقى المسلَّحَيْنِ في البيت الآمن لم يتبادل معهما سوى التأكيد على التعليمات، والضروريّ من الكلام. كلمات عمليَّة. إشارات. نظرات. ثم حركات جسد، مشوبة بالرهبة، طوال الطريق الخطر، المتشعِّب، المؤدِّي إلى المنصَّة التي سيقف عليها الذئب. كانت لهما، مثله، أسماء حركيَّة. كنَّا مغلقين على مهمَّتهما بما لا يدع مجالاً لأيَّة فكرة أخرى. وكان هذا هو المطلوب بالضبط. أمَّا هؤلاء الذين يختبئون معه في مزرعة الدواجن فلا يعرف من هم، ولا يريد. حتى لو أراد، فإنّ التعليمات التي تلقُّوها، هنا، حيث تنتظر مئات فراخ الدجاج دورها في التحوُّل إلى وجبة تقدَّم على موائد الطعام، بعدم الكلام بما جرى ووقع. لا كلام في هذا. لا أحاديث عن أدواركم، ولا دردشات. أنتم هنا لبعض الوقت فقط. ما سلاه بعض الشيء أنَّه وجد النسخة الكاملة من كتاب الفارس حزين الطلعة. كانت هناك العديد من الحكايات الجديدة التي لم يضمّها الكتاب المختصر. حكايات مذهلة لرجل يقرّر أن يحيا في عالم المُثُل، عالم الفرسان الجوَّالين الذين لم يعد لهم أثر إلَّا في الحكايات التي كان يدمن على قراءتها، غير مدرك، أو ربَّما العكس، أنَّ حياة الواقع تختلف عن حياة الكتب، وأنَّ الكتب يستحيل أن تتحوَّل إلى واقع، لأنَّ لهذا الأخير آليَّات مقاومة ضدَّ من يزحزح سكَّته، ويغيِّر قوانينه حتى لو كانت عشوائيَّة. فكَّر يونس، لأوَّل مرَّة، كيف أنَّ البحث عن الحقيقة والسعي إلى إقامة العدل، وهما أساس تجوال الفارس حزين الطلعة، يقترنان

بالهزل والحمق، كأنَّ من يفعل ذلك ليس من عالم الناس العقلاء المحترمين، أو كأنَّه هارب من مستشفى للأمراض العقليَّة. ولكنَّ الهارب من مستشفى كهذا يُثير في مَنْ يراه الخوفَ والارتباكَ، بينما لا يثير فارسنا هذا إلَّا السخرية، حتى إنَّ المؤلِّف نفسه لا يتعاطف مع بطله، فيتركه عرضة للهزء الشديد، وصنع المفارقات الواقعة دائمًا على حدود الخيال والواقع، بحيث يتساءل المرء أيّهما هو، لأنَّ الواقع لا يقلُّ غرابة، أحيانًا، عن الخيال.

كان الكتاب على رفٍّ يضمُّ روايات وكتبًا في التحليل النفسيّ والاجتماعيّ والتنمية البشريَّة. هذه هويَّة مراوغة لصاحب مزرعة ينتمي إلى «التنظيم»، أو قريب منه، لم يكن يونس متأكِّدًا من هذه العلاقة. لا شيء، على الرفّ، عن الدواجن والبيض الذي أكل منه المُرَحَّلون بمتعة كبيرة، مُثْنين على الأكل في الريف! لم يكن يونس من ممتدحي الدجاج والبيض الذي يؤكل في كنف الطبيعة، لأنَّه تقريبًا لم يضع في فمه سوى القهوة السوداء. ولأنَّ معدته حجر.

تمّ إخلاء أبو طويلة بسبب علاقته المعروفة بيونس. فلا دور له بما جرى. إنّه عضو في اللجنة الحزبيَّة التي يترأَّسها يونس، لكنْ ما جرى تمّ خارج اللجنة. كانت العمليَّة بين يونس وقيادة «التنظيم» في الداخل، مباشرة. خشي «التنظيم» أن يُعتَقل أبو طويلة لمجرَّد علاقته بيونس، وربَّما يحصل الأمن الوطنيّ منه على بعض الأسماء والمعلومات، فتقرَّر ترحيله معه إلى أن يُعاد ترتيب الأمور مجدّدًا في ضوء ما ستسفر عنه حملة الاعتقالات.

حتى وصوله إلى مزرعة الدواجن النموذجيَّة، لم يعرف أبو طويلة إلى أين هو ذاهب؟ ومَنْ سيقابل؟ كلّ ما قيل له إنَّ التنظيم يتعرَّض لحملة اعتقالات واسعة، وإنَّ على كوادره النزول تحت الأرض ريثما تمرُّ موجة الاعتقالات التي طالتهم كما طالت قوى أخرى. كانت

مفاجأته برؤية يونس مثل مفاجأة يونس برؤيته. هو أيضًا أصبح أكثر توازنًا عندما رأى يونس، وتوقَّع أن يفهم منه ما الذي يجري. لِمَ هما موجودان هنا على الحدود؟ ما هي الخطوة التالية؟ بل أين كان في الأيَّام العشرة الماضية؟

لكنْ كلَّا. فقد كانت التعليمات قاطعة بعدم الخوض في أمور تخصُّ «التنظيم»، وعلاقتهم به، ولِمَ هم موجودون هنا. الأفضل أن لا تحتكُّوا ببعضكم بعضًا إلَّا لشؤون وجودكم هنا. أنتم لن تلتقوا مرَّة أخرى، ولا ضرورة لعلاقات شخصيَّة. هذا ما قيل لمنتظري الترحيل الذين توزَّعوا على غرفة وصالون ومطبخ وما تشبه المضافة الخارجيَّة مفروشة بطرَّاحات ووسائد على الأرض. أُسقط في يد أبو طويلة. لن يعرف ماذا جرى. الآن على الأقلّ. حاول أن ينتحي بيونس جانبًا، غير أنَّ يونس أبلغه بضرورة عدم الخوض في التفاصيل. كلّ ما فهمته من الرفيق الذي استقبلنا هنا أنَّنا سنغادر معًا البلاد حتى تهدأ العاصفة، ثم نعود بعد ذلك. وهذا ليس خيارًا. إنَّه قرار مركزيّ.

لحسن حظّ أبو طويلة أنَّه كان مع خطيبته هالة ليلة وقوع العمليَّة التي سمعا بها من الراديو مثل الآخرين، فهما بعيدان عن الدائرة المصغَّرة التي كانت على علاقة بالتنفيذ. قالت هالة إنَّ عمليَّة كهذه لا تفيد سوى السلطات الحاكمة والحفيد شخصيًّا، الذي ستزيد عمليَّة فاشلة أخرى في حجم أسطورته. هالة لا تؤيِّد، أصلاً، أعمال العنف، أيًّا كان اسمها، وتعتبر أنَّها تصبُّ في مصلحة القوى المسيطرة طبقيًّا. وحده العمل بين الجماهير، طويل المدى، هو الذي سيؤدِّي إلى النتيجة المطلوبة. كان هذا رأي الرفيقة حنان مسؤولة الهيئة النسائيَّة. ثم ما يدرينا أنَّها ليست عمليَّة ملفَّقة من الألف إلى الياء مثل كثير من العمليَّات السابقة؟ قالت هالة، فردَّ أبو طويلة أنَّ ذلك ممكن لولا أنَّ الخبر بثَّته وكالات أنباء أجنبيَّة كانت موجودة في الاحتفال على ما

وعاد ليؤكّد شكوك هالة بأنَّ ما جرى قد يكون مسرحيَّة محبوكة جيِّدًا، حتى وإن أُصيب الحفيد، فهو مستعدٌّ لأن يفعل أيّ شيء لكي يبقى بعسكره وأمنه وبطانته على صدور الناس..

ما أثار استغراب يونس أنَّ أبو طويلة لم يتذمَّر من الوضع الغامض الذين هم فيه، بل الخَطِير، بل الخَطِير جدًّا، فضلاً عن ضبابيَّة ما سيحصل لهم لاحقًا، ولم يعترض على فكرة مغادرة البلاد إلى حين تهدأ عاصفة الاعتقالات. لقد بدا له مستثارًا. فكرة المغادرة إلى المدينة التي تطلُّ على البحر وتَّرته واستنفرت دواخله، وجعلته يرغب في الحديث عنها مع يونس أكثر من الحديث عن أيّ شيء آخر، أكثر ممَّا قد يصادفهما من متاعب ومعاناة في مدينة غريبة، أكثر من أنَّه سيترك جامعته في السنة الأخيرة، أكثر من أنَّه سيترك أهله وهالة من دون أن يعلم متى سيعود. ليس هذا أبو طويلة الذي لا يقبل كلمة نعم أو لا جوابًا. الذي يناقش ويناقش بلا كلل حتى يقتنع أو يقنع من يحدِّثه. أكبر يونس فيه هذا الإحساس العالي بالمسؤوليَّة، وقال في سرِّه: إنَ المحن هي التي تحكُّ معدن الرجال، الوقائع وليست الثرثرة التي لا تكلّف شيئًا. وبدلاً من التحدّث عمَّا جرى وسيجري، عاد يونس إلى قراءة بعض حكايات الفارس حزين الوجه، التي سرَّته وأخرجته من دوَّامة الأفكار المؤرقة. عاد إلى الفارس الهزيل وحامل سلاحه، ودخل في الغبار الذي أثارته غزوته على جيش رآه يزحف في اتِّجاهه، والغبار الذي يثيره يسدُّ الأفق، فكرَّ على الجيش الغازي ذي العجاج، وراح يُعمل رمحه فيه، وحامل سلاحه ينادي عليه ويصرخ لكي يتوقَّف، ولكن من دون جدوى.. ليكتشف بعدما ينجلي العجاج أنَّه أعمل سلاحه في قطيع من الأغنام التي راح رعاتها يرجمونه بالحجارة. هل هذا يُضحكُ أم يُحْزِن؟ الاثنان.

*

خرج المسلّح الثاني من الغيبوبة، أو أخرج منها بالقوّة. بدأ التحقيق معه ما إن فتح عينيه ليجد نفسه في مستشفى عسكري. كان يظنُّ أنّه مات. لقد رأى الموت، رأى البياض، رأى نفقًا طويلاً، بلا نهاية، لم يكن هناك لون لذلك النفق، ليس أسود ولا أبيض ولا رماديًا، ولا أحمرَ. هناك صورة له في ذهنه، لكنّه لا يستطيع أن يصفها بالكلمات. لو كان يملك الطاقة والكلمات المناسبة، لكان حدّثهم عن هذا النفق، لكنَّ المحقّقين الذين يكادون أن ينقضُّوا على حباله الصوتيّة، لا يهمّهم نفقه ولا موته ولا البياض الذي رآه، يريدون بضع كلمات فقط. تهمّهم حنجرته. عليه أن يستجمع كلّ قواه لكي ينطق هذه الكلمات القليلة: لأيّ تنظيم تنتمي؟ وأين تمَّ التخطيط للعمليّة، ومن هم شركاؤك فيها؟ إنّها أسماء. ثلاثة، أربعة، خمسة أسماء على الأكثر، وعنوان أو عنوانان. ركّز. تذكّر. لا تخف، من حسن حظّك أنّك لم تقتل أحدًا، هذا سيفيدك ويفيد عائلتك التي هي في ضيافتنا الآن.

لم يكن صعبًا على المحقّقين انتزاع تلك الكلمات. ولم يكن ذلك

موضع شك. فهم خبراء في انتزاع الكلمات. لا يريدون قصّة ولا حكاية ولا سردًا ولا خلفيّات ولا أيّ شيء جانبيّ. الأسماء فقط. كان «التنظيم» يعرف هذه الحقيقة، تجريد اللحم عن العظم، وقد تصرّف على أساسها. وكان يظنّ أنّه يسبق الأمن الوطنيّ بخطوة على الأقلّ. لقد أخفى كوادره الضالعة بالعمليّة وأرسلها إلى منطقة الحدود، هؤلاء هم «أدوات الجريمة»، التي يجب التخلّص منها بالترحيل إلى الخارج، ولكنّه كان أبطأ من مؤسّسة الأمن الوطنيّ في طمس الأثر. كان يحاذي خطوتها، يركض بموازاتها، ثم تخلّف عنها خطوة. وهذه الخطوة كانت قاتلة. ومجرّد حصول الأمن الوطنيّ على اسم قاد إلى اسم آخر. فآخر. وعنوان أوصلهم إلى عنوانين فثلاثة، جمعوا كلّ الذين يعرفون، أو يشكّون في انتمائهم إلى «التنظيم» بمن فيهم قائده المحلّي. كانت هناك خارطة فيها عناوين وعليها أسماء مفرودة على طاولة، في غرفة عمليّات الأمن الوطني. تحرّكت بعض الأسماء على الخارطة، كما تتحرّك قطع الشطرنج وتوضع على الخانة المناسبة لها في الرقعة. من بين تلك القطع، كانت هناك قطعة أذهلت المتحلّقين حول الطاولة. إنّها تتعلّق بالضلع الثالث للمؤامرة. الشخص الذي مكّن المسلّحيْن من الوصول إلى أقرب نقطة من المنصّة. الذي استخدم طرق طفولته وحينها للوصول إلى عنق الحفيد. كانت مفاجأة لا تخطر على بالٍ أن يكون أحد أبناء الخطّاط. سليل أبرز العائلات المؤسّسة، الشاعر البوهيميّ والصحافيّ المتبطّل، الذي يطارد الفتيات بقصائده الغزليّة، المرابط في المقاهي. هو الضلع الثالث في المؤامرة، الذي رغم ثرثرته، بل ربّما بسببها، لم يكن موضع شكّ على الإطلاق. ***دائمًا هناك درس. دائمًا هناك مرّة أولى.***

*

تبادل يونس وصديقه بعض الأحاديث العاديَّة. التزم أبو طويلة بعدم الخوض في أمور لها علاقة بما جرى وصلتها بالتنظيم، إن كانت هناك صلة. فهو لا يعرف. شكَّ بالطبع، ولكنَّه لم يتأكَّد. سأل يونس عن غيابه الأخير والطويل. فقال له إنَّه سيخبره لاحقًا. عندما نغادر البلاد ونكون في مأمن، سأخبرك. ولكنْ الآن علينا أن نغادر في أسرع ما يمكن. كانت الأسئلة تحتدم في ذهنه، ولكنَّه أبدى التزامًا بالتعليمات فاجأ يونس. بيد أنَّهما تحدَّثا عن أهلهما وكيف سيتلقَّون خبر مغادرتهما البلاد، خصوصًا إن طالت غيبتهما. كان أبو طويلة يظنّ، على عكس يونس، أنَّ الأمر قد لا يستغرق طويلاً ثم يعودان إلى بلادهما. يتدبَّران عذرًا عن سفرهما المفاجئ. سيغضب أهلهما. ولكنَّ الأمور ستعود إلى مجاريها بعد ذلك. ثم إنَّ هذه ليست المرَّة الأولى التي تقوم فيها سلطات الحامية الأمنيَّة بعمليَّات اعتقال واسعة. إنَّها مجرَّد انحناءة رأس أمام العاصفة، فكَّر أبو طويلة. لكنَّ يونس، الذي يعرف ما فعل هو شخصيًا، يعلم أنَّ عودته ليست قريبة، وأنَّها ليست

مجرَّد انحناءة أمام العاصفة لكي تمرّ، فإذا عرفوا دوره في ما جرى فهو لن يعود أبدًا. سأله إن كان قد ودَّع رلى.. فأخبره يونس أنّه لم يفعل وجهًا لوجه. ماذا يعني ذلك؟ سأل أبو طويلة. كتبت لها رسالة وأرسلتها بيد خلف، ردَّ يونس. قد يكون خلف أوصلها لها الآن. فكّر يونس في نفسه. ربَّما تكون قد قرأتها. حاول أن يستعيد بعضًا من كلمات الرسالة، ولكنَّه لم يستطع. كان يرغب في تخيُّل رلى وهي تقرأ مقاطع الحبّ الطويلة، كان يريد أن ترتسم في ذهنه ملامحها وهي تقرأ الكلمات التي كان قلبها يقفز من صدرها عندما يهمس بها في أذنها. لكنَّه لم يستطع. أحسَّ أنَّ هناك مؤامرة يحيكها ذهنه، ذاكرته، رأسه، سمِّه ما شئت، ضدّه. كيف تحضر في ذهنه الصور والانفعالات والأسماء والروائح التي لا يريدها، الآن على الأقلّ، ولا تتراءى له حبيبته رلى والتي هو في أمسّ الحاجة إلى تخيُّلها؟ تخيّلها فقط. فكَّر: هل هذا كثير؟

أنَّى ليونس أن يعرف، حتى بمعونة آلة الزمن التي قدَّمت له بعض الخدمات من قبل، أنَّ رسالته إلى رلى، رسالته التي عكف على كتابتها قرابة ليلة بأكملها، انسدّت خلالها رئتاه من كثرة التدخين، لن تصل.. فبعد اتّضاح صلته، سريعًا، بعمليَّة الذئب، ونشر صورة له من ضمن المطلوبين، في الصحف والتلفزيون، قرَّر خلف، بعدما سبّه مائة مرَّة، أن يتخلَّص من الدليل المادّي على أنّه التقى يونس قبل فراره من البلاد. هذا أمر خطير جدًّا وتترتَّب عليه عواقب وخيمة. ولكنْ عليه أن يقرأ الرسالة أوّلاً. قدَّر أنَّها رسالة عاطفيَّة كتبها يونس قبيل مغادرته، فهو لا يعرف أنَّ يونس لم يَرَ رلى منذ رحلة العمل المزعومة التي قام بها إلى الجنوب، فقد كان يظنُّ أنَّه التقاها، وأهله، قبل أن يفاجئه بخبر سفره العاجل إلى المدينة التي تطلّ على البحر. وليس كلّ من

يذهب إلى هذه المدينة يذهب لشؤون سياسيَّة، فبوسع الناس الذهاب إليها لكي يذهبوا إليها، على حدّ تعبير شاعر مرموق يقيم فيها. ممكن أن يذهب المرء إلى هذه المدينة من أجل نشر كتاب، حضور مهرجان شعريّ، معرض للكتاب، مؤتمر للصيارفة أو الفندقة إلخ.. فالحروب التي تدور فيها بين حين وآخر لم تخرجها من التاريخ كما تفعل في أمكنة أخرى، وهذا جزء من عبقريَّة المدينة غير القابلة للتفسير المنطقيّ البسيط.

وعندما فتح خلف رسالة يونس إلى رلى، بيدٍ مرتجفة وقلب يخفق من إحساس بالرهبة، كمن يفتضّ سِرًّا مُقدَّسًا، أو يقوم بخيانة معلنة على رؤوس الأشهاد، عَلِمَ أنَّ يونس لم يَرَ رلى منذ رحلته الغامضة المزعومة إلى الجنوب. فهو يعتذر عمَّا سبّبه لها من ألم وخيبة أمل، إنّني يا قلب قلبي لم أقصد ذلك، ولا كنت أعرف أنَّ الرياح ستجري بما لا تشتهي السفن، يقول يونس بالحرف، ثم يطلب إليها أن تتحلّى بالصبر ريثما يتدبَّر أمر انضمامها إليه في المدينة التي تطلُّ على البحر، أو غيرها، حيث لا يعرف الآن أين سيستقرّ في الفترة القادمة. وقرأ خلف أنَّ يونس يبلغ رلى بأن تنتظر رسائله المقبلة عن طريق خلف، فهو بعيد عن الشبهات، كما أنَّه الشخص الوحيد الذي يثق فيه ثقة تامَّة من بين أصدقائه. هذه الإشارة أثَّرتْ في خلف، رغم الوضع الرهيب الذي وضع يونس رلى، وأهله، وأصدقاءه فيه.

ماذا في الرسالة أيضًا؟ فيها كلام يشبه الشعر وشعر يشبه الكلام، فمشكلة يونس أنَّ شعريَّته تطغى على كلماته حتى تلك التي كان يخطّها في «الشرارة»، مجلَّة «التنظيم» الشهريَّة بتوقيع الحلَّاج! الشابّ الذي يوجِّه سهامه الحادَّة إلى الميتافزيقا، الدين، وخصوصًا تسييس الدين، يوقّع باسم شهيد الصوفيَّة! من يستطيع أن يفرَّ من جلد أبيه؟ من هو

الذي لا يتأثّر، من دون أن يعي ربّما، ببيئته حتى وهو يحاربها بلا هوادة؟ كان يونس يظنّ أنّه هذا الشخص وهو يكتب في المجلّة السرّيّة التي تحمل شعارًا شهيرًا يقول: ومن الشرارة يندلع اللهيب. لكن من يقرأ رسالة يونس هذه إلى رلى سيلاحظ خفضًا لمنسوب الشعريّة، وانضباطًا أكثر في الألفاظ والمجازات، لأنّه يريد أن يوصل رسالة مباشرة شخصيّة، حميمة، تهدف إلى الإقناع وليس إلى الإبهار، فلا حاجة به إلى إبهار في غير مكانه.. كما يُلاحظ اختفاء، أو شبه اختفاء، معجمه الإنشاديّ الذي كان يستولي على كيانه عندما تعرّف إلى رلى.

سرّتك يا ظبية الوديان حِق عنبر وأفاوية

لريقك طعم العسل البرّي،

ولشعرك فوح القرفة والناردين وزعتر الجبال.. إلخ.

أحرق خلف رسالة يونس. تأكّد من أنّ نار ولّاعته أتت عليها. دَعَكَ رمادها بحذائه العسكريّ، كمن ينتقم ممّا فعله يونس بهم. اللعنة عليك يا يونس! هل بلغ بك الجنون هذا الحدّ؟ كيف أمكنك أن تفعل ذلك وأنت تعرف أنّ حياة رلى، وحياة أهلك، وأصدقائك لن تبقى على حالها؟ اللعنة على كتبك وأفكارك ونزقك وشعرك ونرجسيّتك! لقد دمّرت حياتنا التي كانت جميلة وهنيّة. ماذا سأقول لهم عندما يستدعونني للتحقيق، لأنّي فقط صديقك؟ سأكذب طبعًا. لن أقول إنّك كنت تقضي عليّ بمناداتك إيّايَ للقاء في المحطّة، وإنّي لم أكن أعلم ماذا فعلت وبماذا تفكّر. من يصدّق أنّي لم أكن أعلم شيئًا خصوصًا إذا ما اكتشفوا رسالتك التي أردتني أن أوصلها إلى رلى، دليل إدانتك لي ودمغي بالجرم المشهود، أنا الذي تثق فيه أكثر من أيّ أحد آخر؟! سيستدعون أباك، أخاك سند، وربّما شهاب، رلى، أنا، أبو طويلة،

الحنّاوي، المعلّم الشطّي، ومن يعلم مَنْ أيضًا. اللعنة عليك لأنك جعلتني أنتهك خصوصيّة رسائلك فأقرأها، وأخلف بوعدي لك بأن أوصلها إلى رلى! ها أنا أحرقها وأحوّلها رمادًا من أجل رلى، ومن أجلك أيُّها اللعين الذي لا أعرف متى سأراه.. ومن أجلي بالطبع. كان ينبغي على رسالتك أن تُحرق. كان لازمًا يا صديقي.

*

لم يعلم يونس، وهو ينتظر ورفاقه وصول المهرِّبين في أيَّة لحظة، أنَّهم توصَّلوا إلى معرفة علاقته بما جرى، وأنَّهم نشروا صورة له *تبدو صورة طلب جواز سفر أو بطاقة أحوال مدنيَّة*، وأنَّ خلف قرأ رسالته إلى رلى وأحرقها ودَعَكَ رمادها بحذائه، وسبَّه ألف مرَّة، وأنَّ والده أوقف عن العمل في مكتبه القريب من مكتب الحفيد، وبدأ صمتًا واعتكافًا سيطولان، وأنَّ أمّه رفعت رأسها إلى السماء وسألت الله أن يخفّف بلواه وأن يردّه سالمًا إليها، وأنَّ أخاه سند شعر بأنَّه لم يخسر شقيقًا مشاكسًا فقط بل صديقًا سيوطِّد النفس على غيابه من الآن فصاعدًا، وأنَّ رلى بدت كمن تصعقه المفاجأة فشلّته عن الكلام. ارتجفت أعماقها عندما سمعت الخبر، وتحسَّست بطنها كأنَّ يونس يختبئ هناك، وتذكَّرت الكوابيس التي طاردتها في الفترة الأخيرة.. وقالت في نفسها: الآن تأكَّدت. كما لن يعلم يونس أنَّ المعلِّم الشطِّي سيشاطر صديقه الخطَّاط صمتًا وانزعاجًا داخليًّا عميقًا، بعدما أدرك أنَّ صفحة من حياة مقاه قد طويت، وأنَّ زمن البراءة (هذه الجملة التي

خطرت على باله في وصف الصفحة المنطوية) ولّى، رغم أنّه ليس والد يونس ولا عمّه ولا هو، بطبيعة الحال، من جيله. كان الخطّاط الصغير، كما يسمّي يونس وجماعته، مهمِّين في مشهده اليوميّ، من دون أن يدري، حتى حدث ما حدث، وها هو يشعر أنَّه لن يراهم في مقهاه مرَّة أخرى وهم يتصايحون على اسم كتاب أو يختلفون في النقاش حول فيلم، أو يقرأون قصائد وقصصًا لم يكن يفهم أغلبها.

أخيرًا وصلت سيَّارة المهرِّبين، بعدما كاد المنتظرون في مزرعة الدواجن النموذجيَّة أن ييأسوا من مجيئهم. كان القمر في طور المحاق. وكانت النجوم تتلألأ في ذلك الجزء القصيّ من البلاد، البعيد عن أضواء المدن، فتطرِّزُ الظلمةَ المتراميةَ بدبابيس مضيئة. شبكة هائلة من الدبابيس الفضِّيّة تلمع في كونها العميق المجهول. وكان بعض الكلاب ينبح، بتقطّع، في المزارع المجاورة. ولكن غير ذلك، لا أبواق سيَّارت، لا نداءات الباعة الجائلين المسجَّلة على شرائط مشوَّشة، ولا أصوات مغنِّين أو مقرئين منطلقة بأعلى ما تكون من شبابيك البيوت أو حافلات الركّاب وسيَّارت الأجرة.. لا شيء من هذا التلوّث السمعيّ، على حدّ تعبير الخطّاط، والد يونس.

لا يحبُّ المهرِّبون العمل في الليالي المقمرة، القمر، قنديل العشّاق والسائرين في الليل لغير سبب، ليس في صفّهم، فهو يفضحهم ويضخِّم خيالاتهم على الأرض المكشوفة، كما هي حال هذه المنطقة المحاذية للحدود. ومن حسن حظّ يونس ورفاقه أنَّ القمر لم يتولَّد بعد. كان لا يزال في رحم الكون. أو بدقَّة: بين الشمس والأرض. تمامًا في الوسط، فأسبغ نعمة الظلمة على رحلة يونس ورفاقه.

كانت سيَّارتهم نصف النقل مطفأة الأضواء، فهم لا يحتاجونها بسبب معرفتهم، حتى في ليلة بلا قمر، تضاريس المنطقة، وأين توجد الأودية والأخاديد الصغيرة، أو الأرض المنبسطة، وأين تتمركز نقاط

حرس الحدود الثابتة في مراقبهم على التلال، وكيف تتحرّك دوريّاتهم على طول المنطقة الحدوديّة، التي لم تتمكّن سلطات الحامية من ضبطها تمامًا قطّ، فظلّ هناك، رغم الإجراءات المشدّدة، من يعبر الحدود، ومن يُتْرَك له منفذ ليعبر الحدود لسببٍ ما، فهناك، مثلاً، أنواع من السلع ترغب سلطات الحامية في وجودها في السوق، ولكنّها لا تريد أن تتاجر بها رسميًا مع الدولة المجاورة، فتغضّ الطرف عن تهريب هذه البضائع التي غالبًا ما تكون مدعومة.

صعد يونس وأبو طويلة، ورفاقهما الآخرون، إلى الجانب الخلفيّ المكشوف من سيّارة نصف النقل، التي توقّفت عند بوّابة المزرعة الخارجيّة. كان الوقت يقارب التاسعة ليلاً، وكان المهرِّبان اثنين، السائق وآخر بجانبه. كانا ملثّمين بغطاء رأس محلّي. يونس ورفاقه كانوا ملثمين بالطريقة نفسها. على الطرفين أن يكتما هويّتهما. ترجّل المهرِّبُ الذي كان يجلس بجانب السائق، وبدا أنّه قائد الرحلة، وتحدّث إلى الشخص الذي استقبل يونس ورفاقه في المزرعة. كانا يراجعان خطّ سير الرحلة، عند أيّة نقطة يتركون «الشباب»، وما إذا كان عليهم انتظار من سيقلُّهم على الجانب الآخر من الحدود أم لا. من كلماته الأولى، عرف يونس مَنْ هو المُهرِّب الثاني، قائد الرحلة. لو أجرى حساب نسبةٍ بأن يرى هذا الرجل، بالذات، الآن وهنا، لكانت، ربّما، واحدًا في المليون. نسبة مستحيلة أو شبه مستحيلة. ومع ذلك ها هو هنا أمامه، ملثّم مثله، لا يستطيع أن يكلّمه أو يكشف له عن هويّته، ولا حتى أن يصدّق هذه المصادفة العجيبة المتدلّية من السماء السابعة. خفق قلب يونس عندما سمع صوت هذا الشخص. لحسن الحظّ أنّ أبو طويلة لم ينتبه إلى صوته. ربّما لم يخطر في باله أن يصادفه هنا.

صعد المُهرِّب، قائد الرحلة، إلى جانب زميله السائق وانطلقت السيّارة بأضواء مطفأة. لوّح يونس ورفاقه، في العتمة التي أنارها قليلاً

ضوء بيت المزرعة الخافت، للشخص الذي استقبلهم، وبدا أنَّه يلوّح لهم بيده كذلك. اختفى ضوء المزرعة وأضواء المزارع القريبة منها. وحلّت العتمة والصمت. لا نأمة سوى صوت محرّك السيَّارة التي تسير بغيار خفيف. دخلت السيَّارة نصف النقل، بعدما تجاوزت المزرعة بقليل، مجرى مائيًا عريضًا جافًا، كان نهرًا عارمًا ذات يوم، على ما يبدو، وسارت بمحاذاة الضفَّة اليمنى للمجرى، ففي هذا الجانب تتحرَّك دوريَّات حرس حدود الحامية. أراد المهرِّبان، كما هو واضح، أن لا تلحظهما أعين الحرس في سيَّارتهم الجيب الصغيرة، مطفأة الأضواء مثلهم في وسط الوادي أو قريبًا من الضفَّة الأخرى. لم يشعل أحد سيجارة رغم رغبة أكثر من واحد في التدخين. ممنوع التدخين منعًا باتًّا طوال الرحلة. والكلام كذلك. هذه هي التعليمات. فالليل الخالي من حركةٍ، أو صوتٍ، سوى صوت الحصى تحت عجلات السيَّارة، وسيط بارع في إيصال الكلام. فضلاً عن النار. حتى يونس وأبو طويلة لم يتكلَّما رغم جلوسهما متلاصقين. هيمن الليل الذي تبقّعه النجوم البعيدة على أيّ شيء آخر سواه. هيمنت الرهبة. هذا ليس حلمًا. إنَّه حقيقة. ها هي سيَّارة مهرِّبين تتحرَّك بهم في ليل محفوف بكلّ الاحتمالات بما في ذلك القبض عليهم. لا عودة إلى الوراء، إلَّا إذا وقعوا في أيدي حرس الحدود. الليل المظلم حجابهم وسترهم ولكنَّه أيضًا حجاب وستر آخرِين لا يرونهم قد يكونون على بعد خطوات منهم. كلّ شيء ممكن في ليل بهيم كهذا. ما لا تراه يخيفك بما يخفيه في جوفه. هذه تداعيات عبرت ذهن يونس. في ظرفٍ مختلفٍ كان يمكن لهذا الليل المشتول بالنجوم أن يكون قصيدة رومانسيَّة. لكنَّه في تلك اللحظة، على الحدّ الرفيع بين النجاة والهلاك، لم يكن كذلك. كان ركَّاب السيَّارة نصف النقل غارقين في

منولوجاتهم الداخليّة والصور التي تتوالى على أذهانهم، كلّ واحد حسب وضعه وحالته. وبعدما خرجت السيّارة نصف النقل من المجرى المائيّ الجافّ، التفَتَ وراء جبل. لم يكن جبلاً حقيقيًّا، بدا أقرب إلى تلّ رمليّ. رغم الظلمة، كانت الأرض التي دخلتها السيّارة نصف النقل صحراء. هكذا شعر يونس، فصوت الرمل تحت عجلات السيّارة مسموع، وله وقع مختلف عن الأرض الحصويّة، أو الوعرة. بدت السماء بدبابيسها المضيئة أدنى. خطر في بال يونس أنّ سماءً كهذه تغري بتأمُّل الكون، وليس غريبًا أنّها دفعت أشخاصًا، عديدين، لكي يعلنوا أنفسهم أنبياء ورسلاً. لكَزَ يونس صديقه أبو طويلة بكوعه وأشار إلى السماء والمدى أمامهما، كأنّه أراد أن يوصل إليه، بحركته تلك، فكرته عن الصحراء والأنبياء، بينما كان أبو طويلة يترنّح بين فكرتين واحدة بدأ يشعر بسخونتها وهي أنّه يغادر بلاده وأهله، ***فكّر بامّه اكثر***. والثانية أنّ فضاء جديدًا سينفتح له في المدينة التي تطلّ على البحر. خواطر وأفكار ونتف من كلام وحوارات مبتورة تعاقبت على ذهن يونس الذي يعرف، أكثر من صديقه، معنى هذا الخروج ومداه المحتمل. مرَّ في ذهنه بيت شعر شهير يقول «وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدرُ». هذا، أيضًا، موضوع لوحة خطّ لجدّه. كم هو صحيح. قال يونس في نفسه رغم امتعاضه من الحكم والخلاصات والأقوال السائرة التي يُراد لها أن تختصر حياة وأحوالاً ببضع كلمات. أيّ بدر مفتقد الآن؟ بدر السماء أم بدر الأرض؟ فكّر يونس. بدره، الذي لا يعرف الأفول والمنازل، هناك في ناكوجا آباد. بدره الكامل، غائب، مثل قمر هذه الليلة الذي لا يزال في المحاق. الذهن ماكينة عشوائيّة، الذاكرة كذلك، فوضى وتدافع للصور والكلمات. أريد صورة ثابتة. أريد كلمات مستقرّة أستند إليها. قال يونس في نفسه الحائرة المبلبلة.

بعد ساعة، أو أكثر قليلاً، من خروجهم من المجرى المائيّ الجافّ ودخولهم في صحراء، انحرفت السيَّارة في اتّجاه الغرب. تغيَّرت الطبوغرافيا. بالسمع أحسَّ يونس بذلك. بدأت الأرض تصبح وعرة. السيَّارة نصف النقل تتقافز بهم وتخضُّهم. أودية وتلال وممرَّات ضيِّقة. عند أحد التلال، توقَّفت السيَّارة نصف النقل بعدما شاهد المهرِّبان ضوءًا متقطِّعًا. كان ضوء مهرِّبَيْ الدولة الأخرى ينتظرانهم في سيَّارة نصف نقل، بسائق ومرافق أيضًا. تبادل مهرِّبو البلدين حديثًا سريعًا، ثم أشاروا إلى يونس ورفاقه بالصعود إلى السيَّارة الثانية. صعد الجميع. استعدَّت السيَّارة نصف النقل الأولى للعودة إلى الحامية.

وكما يحدث في الأفلام،

عندما تخرج روح شخص من جسده،

أو يخرج منه شبحه،

أو قرينه،

خرج شخص من جسد يونس له ملامحه وانفصل عنه. رآه، رغم العتمة، وهو يطلع منه، وينسلخ عنه، بلا صوتٍ، بلا ألم، ويترجَّل من السيَّارة التي ستأخذه ورفاقه بعيدًا، عَبْر تلك الأرض الوعرة، متجنِّبةً المدن، متوقِّفةً في بعض البلدات للتزوُّد بالوقود والمؤن، في طريقها إلى محطَّة الحافلات، التي تنطلق منها سيَّارت الأجرة في اتِّجاه المدينة التي تطلُّ على البحر. ثم رآه بقامةٍ طويلة منحنيةٍ بعض الشيء، كأنَّه يقاوم ريحًا شديدةً، يصعد إلى الجانب الخلفيّ المكشوف من سيَّارة نصف النقل حيث يجلس بجانب سائقها خاله أدهم، قائد الرحلة.. ويعود إلى الحامية.

*





يونس الخطَّاط، بطلُ رواية هنا الوردة، الذي يبتلعه الحوتُ المجازي، شخصيَّة مثيرة للإعجاب: فهو مزيج من العاشق، والمتمرِّد، والمغامر، والحالم الذي يمشي إلى هدفه الكبير، جارًّا معه سائرَ شخصيَّات الرواية التي ترى حقيقتَه، بينما يبقى هو الوحيد الذي لا يرى ذاته، لأنَّه - ببساطة - دون كيشوت العربي.

كان لدى دون كيشوت تابعُه الأمين الذي ينبِّهه إلى حقيقةِ ما يجري في الواقع. لكنْ مَنْ ينبِّه يونس؟ هناكَ من يقدِّم نفسَه، في مستهلّ الرواية، كأنَّه الكاتب؛ بيد أنَّنا سنعرف، من دون إبطاء، أنَّه ليس إيَّاه، وذلك في إطار لعبة سرديَّة مدهشة تسكُنها الشعريَّةُ في الأعماق. هذه رواية لا بدَّ منها لمعرفةِ ما جرى في زمنٍ عربيّ عاشت فيها الأحلامُ (أمِ الأوهامُ؟!) كأنَّها حقائق، والحقائقُ كأنَّها أحلام.

أمجد ناصر: شاعر وكاتب أردني مقيم في لندن. أصدر عددًا كبيرًا من المجموعات الشعريَّة وكتب الرحلة، إضافةً إلى كتابين صادرين عن دار الآداب: "حيث لا تسقط الأمطار" و"خذ هذا الخاتم". تُرجمت أعماله إلى لغات عدَّة.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
بالإذن من دون كيشوت سيلفادور دالي

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥

ISBN: 978-9953-89-527-7



9789953895277